مكتبة

فلسطين

فرانشِسكا ألبانيزي

عندما ينام العالم

قصص، كلمات، وجروح فلسطينيّة مفتوحة

ترجمة: أحمد ع. محسن

أنطوان دوين
© Antoine Doyen / Mirage Collectif

المقرِّرة الخاصة للأمم المتحدة المعنيّة بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة. حقوقية، أستاذة جامعية، وباحثة. عمِلَت في مكتب المفوّض السامي لحقوق الإنسان، وفي وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. خلال عملِها في هذه المناصب، قدّمت المشورة للأمم المتحدة ولعددٍ من الحكومات، وللمجتمع المدني في غرب آسيا وشمال افريقيا؛ ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ. في 2020 صدر لها «اللاجئون الفلسطينيون في القانون الدولي»، وفي 2023 صدر كتاب آخر حمل عنوان «إنّي أتّهم».

تُعدّ من أبرز الأصوات الحقوقية في مجال القانون الدولي الإنساني وقضايا اللاجئين، وقد رسخت حضورها العالمي من خلال مسيرة مهنية وبحثية ثرية، جمعت فيها بين الرصانة الأكاديمية والالتزام بالجوانب الإنسانية، وذلك خلال سنوات من العمل في الأمم المتحدة، وكذلك من التعاون مع مؤسسات بحثية معروفة مثل معهد دراسات الهجرة الدولية بجامعة جورجتاون. إلى مؤلفاتها المذكورة، وخلال عملها الأممي، أصدرت تقارير مرجعية من بينها تقرير «تشريح إبادة جماعية» الذي حاز اهتماماً واسعًا في الأوساط القانونية والسياسية. تتركز أبحاثها حول العلاقة بين القانون الدولي وحقوق الإنسان، ووسائل حماية الشعوب الخاضعة للاحتلال، إلى جانب إنجازها دراسات معمقة عن النزوح القسري والحق في تقرير المصير.

عندما ينام العالم

©دار هاشم للكتب والنشر

books@darhashem.com

x.com/DarHashemBooks
facebook.com/DarHashemPublishingHouse
instagram.com/DarHashemBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

عنوان الكتاب: عندما ينام العالم - قصص، كلمات، وجروح فلسطينيّة مفتوحة -

اسم المؤلف: فرانشِسكا ألبانيزي

ترجمه عن الإيطاليّة: أحمد ع. محسن

عن المترجم: أستاذ جامعي لبناني، درس الفلسفة في جامعة بارما – إيطاليا، وحاز شهادة الدكتوراه في العلوم الدينيّة، مِن جامعة القدّيس يوسف في بيروت. بالإضافة إلى العمل البحثي والترجمة، يدرّس التاريخ الإسلامي والفكر الديني المعاصر في معهد الدراسات الإسلاميّة – المسيحيّة، بالجامعة نفسها.

لوحة الغلاف: ملاك مطر

صورة المؤلف: أنطوان دوين
© Antoine Doyen / Mirage Collectif

ر.د.م.ك.: 978-1-918373-01-1
الطبعة الاولى، 2025

صدر هذا الكتاب في الأصل تحت عنوان:
Quando il mondo dorme
.Pubblicato per Rizzoli da Mondadori Libri S.p.A
Proprietà letteraria riservata
Mondadori Libri S.p.A., Milano 2025 ©

فرانشِسكا ألبانيزي

عندما ينام العالم

قصص، كلمات، وجروح فلسطينيّة مفتوحة

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنّ جميع الأرقام الواردة في هذا الكتاب، باستثناء تلك التي في الهوامش المضافة من المترجم، هي أرقام تعود إلى ربيع عام 2025، وهو موعد صدور الكتاب بنسخته الإيطاليّة، وقد تفاقمت المأساة منذ ذلك الوقت، ولا سيّما أنّ الترجمة العربية تصدر بينما لا تزال الإبادة مستمرة.

لم أشعر بغضبٍ مثل هذا في حياتي.
غضبٌ بسبب اللامبالاة تحديدًا.

غضبٌ ضدّ العنف الناتج عن الإبادة الجماعيّة، وكيف أنّها صارت جزءًا من يوميّاتنا.
غضبٌ في لحظةِ الإدراك أنّ ثمّة أشخاصًا لم يتأثّروا إطلاقًا،
بينما هناك آخرون سُحقوا تمامًا.

لم أكن لأتخيّل نفسي، مرّةً أخرى، في مواجهة مسؤولين مِن دول – دول مجتمعة بعضها مع بعض، وبعضها أكثر من غيرها – وفيها ومِن بينها مَن يمكنه إيقاف كلّ شيء.
لا يحتاج الأمر سوى إلى توقيع.

أفيض غضبًا، وأشعر بخيبة الأمل
وهذا ما يصيبني غالبًا في هذه القاعة،
عندما أرى العديد منكم، وهم يستمرّون في تمثيل المشهد ذاته.

من البديهي أن ندين هجوم حماس.
ومن البديهي أن نُعرِب عن تضامننا مع الضحايا الإسرائيليّين.
ومن البديهي أن نطالب بالإفراج عن الرهائن.
ولكن، هل يُعقل أنّه حتّى بعد قتل اثنين وأربعين ألف روحٍ في غزّة، أن يكون ثمّة مَن هو غير قادرٍ على التعاطف مع الفلسطينيّين؟

إليكم الحقيقة:
الذين بينكم اليوم، وتحديدًا الذين لم ينطقوا بكلمةٍ واحدة عمّا يحدث في غزّة، ليسوا إلّا دليلًا على أنّ التعاطف قد تلاشى من هذه القاعة.
التعاطف... ذلك الوتد الذي نجتمع حوله كبشر.

ولا يتعلق الأمر بالإحسان إلى الفلسطينيّين أو التصدّق عليهم.
إنّها مسألة تتعلق باحترام مسؤولياتكم،
الأمر الذي يستدعي التزام دولكم بضمان التطبيق الحازم لاتفاقيّة منع جريمة الإبادة الجماعيّة ومعاقبة مرتكبيها، لإيقاف هذه الجريمة.

لذلك، وإن كان صحيحًا أنّنا هنا اليوم لأنّنا نحترم القانون الدولي، فلا سبيل آخر أمامنا سوى فرض عقوبات على إسرائيل، ومراجعة العلاقات الدبلوماسيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة والاستراتيجيّة التي تربطنا بهذه الدولة.

لعلها تكون آخر إبادةٍ جماعيّة في تاريخ البشريّة.

فرانشِسكا ألبانيزي*
مقتطف من مداخلة أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة
بتاريخ 30 تشرين الأول/ أكتوبر 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

* اللفظ الصحيح للاسم بالعربية هو فرانشِسكا ألبانِزه، وليس ألبانيز كما يرد في بعض المصادر العربية، التي تترجم الاسم الإيطالي عن الفرنسيّة. وفي هذا الكتاب، سنعتمد اسم فرانشِسكا ألبانيزي، وهو الاسم الأكثر شيوعًا في الاستخدام العربي، وذلك تجنّبًا لحدوث أيّ لغط أو سوء فهم (المترجم).

فهرس

مقدّمة المترجم 13

مقدمة 15

هند: في فلسطين... كيف تكون الطفولة؟ 33

أبو حسن: عواقب الاحتلال... ما هي؟ 55

جورج: أن تعيش في القدس... ما الذي يعنيه ذلك؟ 73

آلون: كيف يمكن التعرّف إلى الشخص المعادي للساميّة؟ 95

إنغريد: نظام الفصل العنصري... كيف تُسقِطه؟ 117

غسّان: الإبادة... إلى أيّ درجةٍ من الوحشيّة يمكن أن تصل؟ 143

إيال: تدمير شعبٍ كامل... كيف تُحسَب الخطوات على ذلك الطريق؟ 153

مَلَك: وطن اللاجئ... أين يكون؟ 171

غَابْور: أن يحافظ شعبٌ على ذاكرته... لماذا الأمر مهمّ إلى تلك الدرجة؟ 185

خاتمة 207

شكر 215

مراجع 224

مقدمة المترجم

إنّها الثانية والنصف فجرًا في بيروت.

تحلّق «الزنّانة» بلا توقّفٍ بحثًا عن أرواحٍ تقصفها، وربّما عن أفكارٍ أيضًا. لكنّها الثانية والنصف فجرًا والناس نيام. ويبدو أنّ هذا هو الوقت المناسب فعلًا لكتابة هذه المقدّمة – تحت هذا الأزيز الذي لم يتوقّف في لبنان وغزّة منذ عامين – لكتاب المقرّرة الأممية فرانشِسكا ألبانيزي، عن فلسطين. «عندما ينام العالم»، تحلّق الطائرات لمطاردة الأحلام الهاربة من رؤوس أصحابها وصاحباتها.

يقدّم هذا الكتاب تصوّرًا معرفيًّا جديدًا للحقّ الفلسطيني، يقوم على سرديّةٍ تجمع بين معرفةٍ علميّة تحاول النموّ خارج الأطر السلطويّة التقليديّة، وبين تجربةٍ شخصيّة تماهت مع آلام الآخرين ضمن حدود وعي الكاتبة بهذه الآلام. هكذا، يعيد الكتاب بناء هذا الحقّ من منظورٍ تاريخي وتاريخاني في آنٍ واحد، ويستند في الدفاع عنه إلى القانون الدولي، هذا الأمر الذي لم يعُد رائجًا بين المطالبين بالعدالة لفلسطين والفلسطينيّين، وذلك بسبب الوهن الشديد الذي أصاب المؤسّسات القانونيّة الدوليّة، وفي ظِلّ غياب أيّ آليّةٍ تنفيذيّة للقرارات الصادرة عن محكمة العدل الدوليّة أو حتّى عن الأمم المتّحدة. خلال هذه العمليّة المتواترة والدقيقة، تراعي النصوص القيمة التاريخيّة الفعليّة للأحداث، وتجول على طريقٍ يمتزج فيه الشغف والمنهج لكي يقودها إلى خصوصيّة الأمكنة، من الجليل إلى غزّة، كما تحرص – عندما تستدعي الحاجة التاريخيّة – على إنصاف ضحايا المحرقة اليهوديّة قدر استطاعتها، وإعادة توجيه المسؤوليّة المباشرة عن تلك الجريمة إلى مرتكبها الغربي الفعلي. نصًّا تلو الآخر، تنفق الكاتبة الكثير من الجهد على إعادة بناء معرفتها الخاصّة بفلسطين، من خارج المناهج الاستعماريّة المهيمنة على أصول التربية والتعليم في الغرب، وعلى إخراج النصوص بلغةٍ أدبيّةٍ تتوخّى الدقة، لكنّها تفسح مجالًا رحبًا للعاطفة أيضًا.

مع ذلك، لا يقدّم الكتاب سردًا تقليديًّا رتيبًا للنظريّات القانونيّة المتعلّقة بقضايا الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينيّة، أو للفصل العنصري، ولا للإبادة الأخيرة في غزّة. كلّ هذه القضايا، بالإضافة إلى معاناة اللاجئين، أي سكّان الأرض الأصليّين، وقضايا أخرى تتعلّق بالحياة اليوميّة للفلسطينيّين والمتّصلة بتاريخٍ عميق، تتدفّق بغزارةٍ نحو «العالم النائم» عبر أصواتٍ حقيقيّة، أحيانًا قد تبدو مألوفةً للقارئ العربي، وأحيانًا قد تمثّل حدثًا. عشرة أشخاصٍ شاركوها هذه الرحلة الطويلة، في التعرّف إلى حقوق الفلسطينيّين. بعينين صادقتَين، منفتحتَين على حبّ الهواء والأماكن والأشخاص، نظرت المقرّرة الأمميّة إلى رحلتها الشخصيّة الطويلة وقرّرت أن يكون هذا الكتاب أخيرًا، صوتًا يرتفع، أو دعوة إلى الأمل بالحرّية والتحرّر، كما ذكّرت في الختام.

سيلاحظ القارئ العربي ورود مصطلحات غير متعارفٍ عليها في السرديّات العربيّة التقليديّة، وذلك لالتزام الترجمة بالمقاصد الدقيقة للنصّ الأصلي حتّى أقصى درجةٍ ممكنة من الناحية اللغويّة. بالإضافة إلى ذلك، وفي مسألة الأسماء، اخترنا نقل الأسماء الإيطاليّة والإنكليزيّة إلى العربيّة كما تُلفَظ بدقّة، لا كما شاع استخدامها. ولم تكن هذه النسخة بصورتها الحاليّة ممكنةً، لولا عوامل ثلاثة؛ الأول، هو تجاوب فرانشِسكا نفسها، في الردّ على جميع الأسئلة والاستفسارات. الثاني، هو الحماسة الشديدة لنقل هذا العمل إلى العربيّة، ومصدره «دار هاشم»، بشخص الناشر علي هاشم. أمّا الثالث، فهو شخصي، ويتعلّق بشريكتي في هذه الحياة، أي زينب، التي لولا دعمها المتواصل، إن كان في بيروت أو في إيطاليا، لم يكن إنجاز هذا العمل ممكنًا.

تتابع «الزنّانة» تحليقها فوق المدينة.

لكنّ الناس في بيروت، وفي القدس وفي غزّة، يتابعون ما درجوا عليه منذ سنواتٍ طويلة: اختراع الأمل. يحاولون إكمال حيواتهم، بما تسنّى لهم من أمل. لعلّ هذا الكتاب يكون هو الآخر بارقة أمل.

أحمد ع. محسن

بيروت

١٩/ تشرين الأول/ ٢٠٢٥

مقدمة

التضامن... هل هو التجسيد السياسي لمفهوم الحُبّ؟

في العاشرة من عمري، أصبحت لاجئًا. وفي رأسي، عندما كنت طفلًا، دار سؤالٌ بيني وبين نفسي عن العدوّ اللامرئيّ الذي دمّر حياتي. كيف كانت صورته؟ هل كان إنسانًا أم كان وحشًا؟ لماذا جعلني لاجئًا؟ ماذا فعلت له؟ من أين أتى؟ ما اللغة التي تحدّثها؟

سلمان أبو ستّة – «خريطة من أجل عودتي»

وجدتُ نفسي أفكّر كثيرًا في أورويل في الآونة الأخيرة. لم تبدُ لي عبارته الشهيرة «الحرب هي السلام، الحرّية هي العبوديّة، والجهل هو القوّة» أكثر راهنيّةً ممّا هي عليه الآن، وتحديدًا في النقاشات التي دارت أخيرًا عن إسرائيل وفلسطين.

على سبيل المثال، ما زال الكثيرون يصفون ما يحدث في غزّة بأنّه «صراع». وثمّة ما هو أسوأ من ذلك... إذ إنّ هناك من يعدّه صراعًا بدأ في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023. مثل هذه القراءة تنمّ عن سطحيّة البادئ بمطالعة كتابٍ من منتصفه، متجاهلًا صفحاتٍ كثيرةً تنضح بآثار الدماء والألم: قصّةٌ تمتدّ جذورها عمليًّا إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، ولا يزال تجاهلها ساريًا.

هكذا، لا يزال نداء العدالة، الذي ما انفكّ الشعب الفلسطيني ينادي به منذ ما يقارب قرنًا من الزمن، يُضرب به عرض الحائط. لا يلقى سوى آذانٍ صمّاء. نداءٌ ضدّ نظام الفصل العنصري الذي يضطهد الفلسطينيّين جيلًا تلو الآخر، وضدّ معاناةٍ

لا يمكن تفسيرها، ولم تتوقّف منذ نهاية عام 2023، بل استمرّت حتى بعد وقف إطلاق النار المفترض بين كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس 2025. إنّها إبادةٌ جماعيّة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

لم يعرف العالم مِن قبل مثل هذا الرعب الذي يخيّم على غزّة. وعندما أقول إنّ إسرائيل تكتب واحدةً من أشدّ صفحات التاريخ سوادًا، وما يُضاهي جرائم الإبادة الجماعيّة المرتكبة في الماضي، يردّ كثيرون: لسنا متيقّنين بعد. يقولون إنّه يجب علينا انتظار حكم محكمة العدل الدوليّة. لكنّ المحكمة – وهي الهيئة المسؤولة عن تسوية النزاعات بين الدول وتقديم الآراء الاستشاريّة في ما يتعلّق بالقانون الدولي – أكدّت بالفعل احتمال وقوع إبادة جماعيّة في كانون الثاني/ يناير 2024، وأمرت الدول باتّخاذ الإجراءات لوقف الأعمال الإباديّة التي ترتكبها إسرائيل. مع ذلك تصرّفت الكثير من الدول كما لو أنّها لم تفهم شيئًا، أو تجاهلت الأمر عمدًا. تُسمّى المعاهدة الدوليّة على هذا النحو: «اتّفاقيّة منع جريمة الإبادة الجماعيّة والمعاقبة عليها». فكيف إذن يمكن للدول التدخّل لمنع حدوث ذلك، إن لم تتصرّف فورًا، أي عندما يكون الخطر محدقًا، ووقوع الإبادة وشيكًا (كما سبق أن أكّدت محكمة العدل)؟

فلنضع الشق القانوني جانبًا... كيف يكون التزام الصمت ممكنًا إزاء وحشيّةٍ مستشرية؟

بعد أسابيع قليلةٍ من تقديمي التقرير الذي حمل عنوان «تشريح عمليّة إبادة جماعيّة» إلى الأمم المتّحدة، كنت في برلين، تحديدًا في أيّار/ مايو 2024. وكنتُ لا أزالُ صوتًا يغرّد خارج سرب الصمت، وندّدت بجرائم إسرائيل المتواصلة في غزّة. باستثناء القضيّة المُعلّقة التي رفعتها حكومة جنوب أفريقيا أمام محكمة العدل الدوليّة في كانون الأول/ ديسمبر 2023، مُتّهمةً إسرائيل بارتكاب أعمال إبادةٍ جماعيّة ضدّ السكّان الفلسطينيّين في غزّة، لم تُشِر أيّ أدبيّات أخرى إلى هذا الموضوع.

بعد السابع من أكتوبر، تحدّث بعض الباحثين البارزين عن الأمر مباشرةً – مثل المؤرّخ راز سِغال* Raz Segal – لكنّهم كانوا أصواتًا معزولة. وكان مؤرّخ إسرائيلي معروف آخر، هو إيلان پاپِه، قد ندّد بالفعل بالممارسات الإسرائيليّة في قطاع غزّة عام 2006، واصفًا إيّاها بإبادةٍ جماعيّة تقع على مراحل... إبادة جماعيّة يتضاعف عنفها وتزداد شدّتها تدريجًا. ومع ذلك، لم يجرؤ أحدٌ داخل الأمم المتحدة على نطق هذه الكلمة المحرّم استخدامها عندما يتعلّق الأمر بإسرائيل. هناك، لم يقل أحدٌ غيري ذلك، ما خلا قِلّةً من مقرّري الأمم المتّحدة الآخرين، وخاصّةً الآتين من دول الجنوب العالمي، حيث لا يزال الكثيرون يعانون من صدمة الاستعمار والإبادة الجماعيّة التي ارتكبها الأوروبيّون على امتداد نصف قرنٍ من الزمن في أميركا اللاتينيّة وأفريقيا وآسيا.

كان تقرير «تشريح عمليّة إبادة جماعيّة» أول تقرير يُقدّم للأمم المتحدة إدانةً مُفصّلةً للعمليّات العسكريّة الإسرائيليّة في القطاع، التي كشفت عن نيّة إبادة غزّة بحدّ ذاتها – أي تدمير كلّ شيء. وفي برلين، حيث كنتُ أحضر سلسلةً من الاجتماعات والمؤتمرات، استُقبلتُ من المجتمع المدني ومراكز الأبحاث الألمانيّة باهتمامٍ كبير.

وبعد أقلّ من عام، أصبح تنظيم جولةٍ جديدة من النشاطات العامّة في ألمانيا مختلفًا تمامًا. تدعم أصواتٌ كثيرة اليوم تفسيري للوقائع وتؤيّد توصيفها القانوني كإبادةٍ جماعيّة، واحتلالٍ غير شرعي، واستعمارٍ استيطاني، وفصلٍ عنصري، من بين جرائم أخرى تُنسب إلى دولة إسرائيل. مع ذلك، ازداد القمع ضدّ الرسالة التي أحملها، وضدّ مهامّي، وضدّي شخصيًّا على نحوٍ غير مسبوق، وساد جوٌّ من التعصّب في النقاش الدائر حول القضيّة الإسرائيليّة - الفلسطينيّة.

فما الذي تغيّر إذن؟

---

* مؤرّخ إسرائيلي وأستاذ في دراسات الإبادة الجماعية بجامعة ستوكتون الأميركيّة، يُعرف بأبحاثه حول العنف الجماعي وانهيار الدول. من أبرز أعماله كتاب Genocide in the Carpathians [الإبادة الجماعيّة في جبال الكاربات]، الذي عمل من خلاله على تفكيك العنف في أوروبا الشرقيّة. اشتهر بتحليله الجريء للأوضاع في غزّة، واعتبرها نموذجًا تعليميًّا عن الإبادة الجماعيّة. أثار هذا الموقف جدلًا واسعًا وتعرّض بسببه لتضييق شديد. يُعدّ من الأصوات الأكاديميّة القليلة التي تربط الماضي بالحاضر في نقد الجرائم الحديثة وتحليلها **(هذا الهامش، وجميع الهوامش في الكتاب، هي من إضافة المترجم).**

قبل وصولي إلى ألمانيا مباشرةً، في شباط/ فبراير 2025، وتحت ضغوطٍ سياسيّة، أُلغيَت فعاليّتان جامعيّتان كان من المقرّر أن أحضرهما هناك. الأولى – التي كانت عبارةً عن محاضرةٍ في جامعة ميونيخ – أُلغيت على الفور. برغم ذلك، بفضل الطلّاب، تمكّنتُ من إلقاء المحاضرة في مركز استقبالٍ للاجئين غير تابعٍ للدولة، ولكنّه مدعومٌ بتمويلٍ خاصّ، ويشرف عليه مديرٌ شجاع لم يخضع للضغوط.

وفي جامعة برلين، كان من المفترض أن أُلقي محاضرةً مع إيال وايزمان Eyal Weizman، الخبير الإسرائيلي في الهندسة المعماريّة الجنائيّة. لكن، عند وصولنا، كانت الجامعة قد ألغت النشاط مسبقًا. عرضوا علينا إقامتها خلف أبوابٍ مغلقة، لكنّنا رفضنا، إذ لم يكن من المنطقي قطع كلّ هذه المسافة لعقد اجتماعٍ لا يمكن متابعته إلّا عبر الإنترنت. تمكّن بعض الأساتذة والطلّاب من نقل النشاط إلى مركزٍ ثقافي يتّسع لستّمئة شخصٍ في الحدّ الأقصى (رغم أنّ ألفًا ومئتي شخص كانوا قد سجّلوا أسماءهم للحضور). ومع ذلك توالت الضغوط... السفير الإسرائيلي، الشرطة، وعدد من السياسيّين، بالإضافة إلى وزير، وشخصيّات من مؤسّسات أخرى. وبعدما ضغطوا على الجامعة لإلغاء المؤتمر، هدّدوا بسحب تمويل المركز الثقافي إذا وافق بالفعل على استضافة الحدث. وفي مواجهة خطر الإغلاق بسبب غياب التمويل، رضخ المركز. صباح اليوم التالي رأيت جدرانًا مشوّهةً بكتابات تقف خلفها الجماعات المؤيّدة لإسرائيل نفسها: ألبانيزي معادية للساميّة، ألبانيزي إرهابيّة؛ وذلك بالإضافة إلى إهاناتٍ أخرى موجهة إليّ وإلى الأمم المتّحدة.

في النهاية أُقيم النشاط برغم الظروف، ولكن في مكاتب صحيفة «يونغه فِلت» Junge Welt، حيث اتّسع المكان لمئة شخصٍ فقط. في الخارج، احتشدت جموعٌ غفيرة، فيما حاصرت الشرطة المبنى. وكان المحاصِرون مدجّجين بعتاد مكافحة الشغب. كانت الهراوات والرشّاشات ظاهرةً للعيان. في هذا المكان بالضبط، تحدّثتُ أنا وإيال وايزمان عن السلام... لشعبٍ يتألم.

في ألمانيا، كما هي الحال في أماكن أخرى من أوروبا، وعلى نحوٍ يتزايد بلا خجلٍ في الولايات المتحدة، اتّخذ القمع منحًى شديدًا وعنيفًا. وخلال الأشهر الأخيرة، سنحت لي الفرصة مرّاتٍ عدّةً للقراءة عن هجمات الشرطة على الطلّاب وعلى المتظاهرين أيضًا. وأحيانًا رأيت هذه المشاهد بأمّ عيني. تبدأ قوّات الأمن

بالضرب، تستخدم الهراوات، ثمّ تحتجز أشخاصًا من مختلف الأعمار والجنسيّات، وفي مقدّمتهم الفلسطينيّون واليهود المناهضون للصهيونيّة.

للمأساة وجهان. فهؤلاء لا يناضلون لوقف الجرائم الفظيعة وحسب، بل إنّ ما يفعلونه يندرج كذلك ضمن ممارسة حقّهم المقدّس في النقد وفي المعارضة. حقٌّ يُمثّل امتدادًا طبيعيًّا لحرّية التعبير كمسألةٍ جوهريّة، والمصنّفة لزامًا كحصنٍ من الحصون في ما يُسمى ديموقراطيّاتنا الليبراليّة.

إن لم يكن هناك مجالٌ للنقاش، فممَّ تتشكّل الديموقراطيّة وما الذي تكونه إذن؟

من بين أعضاء مراكز الأبحاث الذين التقيتهم في برلين العام الماضي، لم يحضر أحدٌ هذه المرّة. أمّا مندوبو المنظّمات غير الحكوميّة الثمانية عشر، فلم يحضر سوى ثلاثة منهم.

إلى ذلك، وفي الليلة التي سبقت الحدث في مقرّ «يونغه فِلت»، تلقّيت تهديدًا بالاعتقال. اتّصلت الشرطة الفيدراليّة الألمانيّة بالمنظمات الراعية ووجّهت إليّ تحذيرًا بعدم الحضور، وإلّا فقد أُعتقل بتهمة انتهاك قوانين معاداة الساميّة الألمانيّة. وبعد ليلةٍ انقضت بلا نومٍ تقريبًا، وفي السادسة صباحًا، اتّصلت بزوجي ماكس وقلت له: «لا أعرف ماذا أفعل يا ماكس... أعلم أنّني أفعل الصواب، لكنّني لا أريد أن أُعتقل. لم أرَ الأطفال منذ عشرين يومًا».

بهدوءٍ وسكينة، أجابني: «كوني مطمئنّةً وافعلي ما يجب عليك فعله. نحن سنكون هناك لأجلك».

وهكذا فعَلْت.

مع ذلك اضطرّت الأمم المتّحدة إلى التدخل، مُذكّرةً الشرطة الألمانيّة بأنّني، بصفتي مقرّرة الأمم المتحدة، أتمتّع بحصانةٍ دبلوماسيّة، وأنّ اعتقالي سيكون بمثابة فضيحةٍ غير مسبوقة. وعندها هدأت الأمور. بيد أنّ نشاطنا انعقد تحت الحصار. وبالإضافة إلى عشرين شاحنةً متوقفة أمام مكاتب الصحيفة، اكتظّت القاعة برجال شرطة يرتدون زيّ مكافحة الشغب. وصلتُ مبتسمةً كما لو أنّ شيئًا لم يحدث. وعندما صعدتُ إلى المنصّة كان قلبي يمتلئ غضبًا. لكنّ ذلك لم يمنعني من التعبير عن نفسي بوضوحٍ ودقة. في نهاية النشاط، قدّم مايكل بارينبويم Michael Barenboim، عازف الكمان والأستاذ في أكاديميّة بارينبويم - سعيد،

عرضًا موسيقيًّا بصحبة عازفي الكمان الفلسطينيّين. كان عرضًا باهرًا. في اليوم التالي، فُصلت ميلاني شفايتزر Melanie Schweizer – وهي مسؤولةٌ حكوميّة ألمانيّة كانت قد حضرت النشاط، بعدما كانت قد أوقِفَت عن العمل سابقًا بالفعل، بسبب موقفها النقدي للسياسات الإسرائيليّة.

هذه هي الدرجة التي وصل إليها القمع في ألمانيا اليوم.

***

تمثّل الأزمة في غزّة الآن أحد أعراض أزمةٍ عالميّة، على حدّ تعبير أطلقته زميلتي إيرين خان Irene Khan خلال العام الفائت، وهي المقرّرة الخاصّة للأمم المتّحدة المعنيّة بتعزيز وحماية الحقّ في حرّية الرأي والتعبير.

يزداد اقتناعي، يومًا بعد يوم، بأنّ كلّ ما يجري – وهو يبعث على الخوف – يجب أن يمنحنا الشجاعة في الوقت ذاته. فالنظام الذي يستبدّ بالفلسطينيّين – وهو تحالفٌ وثيقٌ ومتين بين إسرائيل وسائر الدول التي تحاول النخب فيها أن تكون في وضعيّة الإفلات الدائم من العقاب – هو في الواقع ليس سوى النظام ذاته الذي ننتمي إليه. إنّه النظام الذي يتّخذ القرارات نيابةً عنّا في شؤونٍ مصيريّة تمسّ حياتنا جميعًا، من دون أن يستمع إلينا أو يُمثّلنا بالضرورة. إنّه النظام الذي يجعل العمل أكثر هشاشة، ويحوّل الحقوق إلى امتيازات، والذي فرّق بيننا، وجعلنا جميعًا أكثر عرضةً للانكشاف وانعدام الأمان. النظام الذي ينظر إلى التضامن بوصفه فعلًا تخريبيًّا، وإلى التعاطف كنوعٍ من الاضطراب النفسي والاجتماعي. إنّها آليّاتٌ خبيثة تعمل يومًا بعد يومٍ على تفكيك الروابط في ما بيننا، وتقويض قدرتنا على العمل الجماعي من أجل قضيّةٍ عادلة – سواءٌ تعلّق الأمر بالبيئة أو بفلسطين أو بالعمالة غير المستقرّة أو بقضايا النوع الاجتماعي. لطالما راودتني تأمّلاتٌ وأفكارٌ حول فلسطين. فلسطين التي تبدو أشبه بـ«الحبّة الحمراء» في عالم الماتريكس*:

* في مشهد الحبّة الحمراء من فيلم «The Matrix» يُعرض على البطل خياران: ابتلاع الحبّة الزرقاء التي تعيد إليه وهم الواقع المريح، أو الحبّة الحمراء التي تفتح عينيه على الحقيقة الصعبة والواقعيّة. هذا القرار يرمز إلى مواجهة الحقيقة بكلّ مرارتها، والانعتاق من قيود الوهم الذي يسيطر على الإنسان. إنّها لحظة تحرّر الوعي واختيار الإدراك الكامل مهما كلّف الأمر.

تلك الحبّة التي تزيح الستار عن أعيننا فنبصر الحقيقة المخبّأة في باطن الأشياء. لقد ساعدني عملي، وكلّ ما أجريته من دراسات حول القضيّة الفلسطينيّة على مدى السنوات الماضية، على معاينة هذا النظام وفهم آليّاته بصورةٍ أوضح. وعلى عكس ما قد يتصوّره المرء، ساعدني أيضًا على الاستمرار في حبّ هذا العالم.

أخيرًا، أدركتُ تمامًا قيمة الشجاعة التي قد يحتاج إليها المرء لتحدّي آليّات النظام. أتيحت لي فرصٌ لا تُحصى للمراقبة وطرح الأسئلة، خلال أشهر من السفر المتواصل، التقيتُ بوجوهٍ كثيرة وسمعت من أصحابها قصصًا عديدة: ممثّلون عن السلطات، أعضاءٌ من المجتمع المدني، باحثون ومثقفون، عمّال، نقابيّون، وقبل كلّ شيء: العديد من الطلّاب والناس العاديّين. أناسٌ متميّزون يبحثون عن كلماتٍ تُجدي نفعًا وتترك أصداءً، ويتوقون إلى إيجاد أملٍ يتيح لهم المشاركة في عمليّة «أخذ وعطاء». صادفت هذا الأمر في الولايات المتّحدة، أوستراليا، نيوزلندا، إسبانيا، النرويج، الدنمارك، هولندا، البرتغال، مصر، الأردن، كندا، وفي كثيرٍ من الأحيان... في إيطاليا، وحتّى في بلجيكا، حيث غالبًا ما يُضفي وجود المؤسّسات الأوروبيّة – التي تكون أحيانًا أكثر تقيّدًا بالبيروقراطيّة منها بالنتائج الفعّالة – أجواءً متوتّرة بشدّة. رحلةٌ طويلة سمحت لي بفهم الدافع المتقاطع بين لفيفٍ من المجتمعات الساعية إلى العدالة والحقيقة والكرامة، وإلى مستقبلٍ أفضل، متجاوزةً الاختلافات في ما بينها.

بينما أُجمّع صفحات هذا الكتاب الذي تحملونه بين أيديكم، محاطين جسديًّا وافتراضيًّا بجميع رفاق ورفيقات السفر، اخترتُ أن أُهدي لعشرة أشخاصٍ أعزّاء على قلبي هذا السرد، الذي يدور حول المواضيع التي أعتبرها أساسيّةً في فهم تاريخ فلسطين وحاضرها ومستقبلها. هؤلاء الأشخاص العشرة، بإرشاداتهم وشهاداتهم، وأحيانًا بحضورهم، رافقوا رحلتي المعرفيّة في بلادٍ تعاني منذ زمنٍ بعيد.

هكذا، سيكون جورج، أحد أقرب أصدقائي خلال سنواتنا أنا وزوجي ماكس في القدس، هو الذي سيُعرّفنا إلى شوارع المدينة من الجهتين، وإلى المنازل التراثيّة الباقية من الماضي، والمكتبات التي يصادر منها اليوم كتبَ الأطفال الجيشُ الإسرائيلي، وإلى النوادي، التي حتّى بضع سنوات خَلَت كان الرقص فيها ممكنًا حتى إلى جانب شباب إسرائيليّين، ولكن من دون زيّهم الرسمي في تلك الحالة.

وستكون إنغريد، وهي امرأةٌ أوروبيّة اختارت فلسطين وأعطتها الكثير، هي التي ستبيّن لنا أهمّية التحلّي بقدرٍ من الدقّة والصرامة في بناء الأفكار، وفي استخدام الإطار القانوني في مسألة الفصل العنصري، كما أوضحت لي في 2017. وسيكون إيال، الذي غادر إسرائيل منذ زمنٍ بعيد، ويشعر بأنّه لا يملك الحق في العودة إلّا حين يتمكّن من السفر بجواز سفرٍ فلسطيني، أي بجواز سفر دولةٍ ديمقراطيّة موّحدة، هو مَن سيُلقي الضوء على الطابع المعقّد للظروف المادّية والجسديّة التي تنتج إبادةً جماعيّة. ستكون هند، التي ماتت في السادسة من عمرها، وكان ذنبها الوحيد أنّها فلسطينيّة، هي التي ستفتح أعيننا على معنى أن تكون طفلًا في بلدٍ حُرم فيه القاصرون لأجيالٍ من حقّهم في ملاذٍ آمنٍ، من مكانٍ تُحترم فيه جذورهم. وسيكون غَابوْر، الذي انحَفَرَت في وعيه المبكر آثار الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود، هو الذي سيبُرز لامعقوليّة ما يجري بحقّ الشعب الفلسطيني، ويفنّد الخرافة المسمّاة: «حياة طبيعيّة». وهناك غسّان، الجرّاح الذي جاء من لندن، ليجد نفسه في قلب رعب غزّة الذي لا يُصدَّق خلال الأشهر الأولى من الهجوم الإبادي. ومَلَك، الفنّانة الشابّة التي خاضت الرحلة في الاتّجاه المعاكس، مغادرةً غزّة إلى لندن، لتحكي قصّة شعبها بواسطة الرسم. وهناك أبو حسن، الذي أرشدنا لرؤية الأماكن حيث كان النضال وحيث كان القمع. وهناك آلون، وهو باحثٌ كبيرٌ في الإبادة الجماعيّة وصديقٌ عزيز، وقد ساعدني على بناء فهمٍ أعمق للتناقضات التي يُمكن أن نجدها في قلب يهوديٍّ إسرائيليٍّ «يشاهد» الفلسطينيّين ويشعر بقضيّتهم كما لو أنّها قضيّته هو أيضاً: في تحرير الشعب الفلسطيني من قمع الفصل العنصري يكمن مفتاح تحرير الإسرائيليّين أنفسهم أيضًا. وهكذا حتّى نصل إلى إحدى أكثر الشخصيّات قربًا منّي، في حياتي الشخصيّة كما في رحلة البحث عن وعيٍ يمكننا ترجمته إلى أفعال.

عشرة أشخاص وعشر قصص، تتشابك مع حيواتٍ كثيرة ووجوهٍ مختلفة – بمن فيهم أنا، وأفراد عائلتي، والبائعة في المتجر الإيرلندي، أو الأطفال الذين اعتادوا تناول التوت من أشجارٍ أمام منزلنا في القدس – وتطرح علينا عشرة أسئلة، يبدو العثور على إجاباتٍ لها اليوم أمرًا في غاية الصعوبة. على سبيل المثال: في أيّ ظروف يعيش الشعب الفلسطيني؟ ما عواقب الاحتلال؟ بالنسبة إلى شخصٍ لاجئ،

ما معنى المنزل؟ ماذا يعني أن تكون معاديًا للساميّة وأنت تناضل من أجل حقوق الإنسان؟ إلى أيّ مدًى يمكن أن تصل وحشيّة الإبادة الجماعيّة؟

لم يعد بإمكاننا اليوم التنصّل من هذه الأسئلة.

واستجابةً لما يحدث، تنمو أسئلةٌ جديدة في رأسي. أسئلة من نوع: لماذا نستمرّ في الكتابة عن فلسطين في بلدٍ كإيطاليا، حيث من الضروري والصعب في الوقت نفسه إيصال الأصوات التي تكشف الحقائق وتشرح الجوانب القانونيّة بوضوح؟ رغم دوري المؤسّسي، ورغم أنّني لم أفعل يومًا ما مِن شأنه أن يجعلني شخصيّةً غير مرغوبٍ فيها بالنسبة إلى الإعلام الإيطالي، فقد كنتُ هدفًا لإهانات لا تُحصى. وقد عُزلت – رغم وجود استثناءات نادرة – من المشهد الإعلامي الوطني. لذا، فإنّ الإجابة الوحيدة التي أستطيع تقديمها لنفسي هي كالآتي: بما أنّ الحاجة إلى الحديث عن هذا الأمر لا تزول، بل تُصبح أكثر إلحاحًا، فإنني أختار الاستفادة من كلّ فرصةٍ ممكنة للقيام بذلك... بما في ذلك هذا الكتاب.

في هذه اللحظة العصيبة، طوّرت فكرةً ما انفكّت تدور في رأسي منذ سنوات – وضع كتاب «پولاروید من القدس»* – إذ أريد أيضًا أن أروي قصّة فلسطين كما عشتها، لا كناشطة، بل كشخصٍ تعامل معها في البداية بفضولٍ ثقافي، ثمّ لاحقًا من منظورٍ قانوني. عندما التحقتُ عام 2005 بكليّة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة بجامعة لندن (SOAS)، وهي إحدى المؤسّسات الأكاديميّة الأوروبيّة القليلة التي تُعالج قضايا القانون وحقوق الإنسان وتفكيك الاستعمار من منظورٍ نقديٍّ غير متأثّرٍ بالمركزيّة الأوروبيّة، اكتشفتُ مسألتين أساسيّتين.

الأولى، هي أنّ قضيّة فلسطين يمكن – بل ينبغي – مناقشتها كقضيّةٍ قانونيّة تتعلّق بانعدامٍ مستمرّ للشرعيّة على نحوٍ ممأسسٍ وممنهج، ولا ينبغي تبسيطها إلى قضيّةٍ سياسيّة تُضمِر ادّعاءات متعارضة. لطالما كان هناك الكثير من الأشياء التي لا تُذكَر: وذلك التجاهل راح يُشعرني بعدم الارتياح، لأنّه سمح حتّى للذين لم تطأ أقدامهم فلسطين يومًا بأن يعبّروا عن الآخرين وباسمهم، غالبًا بأسلوبٍ سطحي،

* صور البولارويد هي لقطات فورية تلتقط اللحظة وتطبعها مباشرةً على ورقٍ خاص. ظهرت لأول مرّة في منتصف القرن العشرين، وكانت ثورة في عالم التصوير الفوتوغرافي بسبب سرعتها وسهولة استخدامها، لكنّها اندثرت تدريجًا مع ظهور التصوير الرقمي الذي قدّم جودةً أعلى وسرعة أكبر في المعالجة.

وباستخدام بمعايير مزدوجة في تقييم الأطراف المعنيّة. أمّا المسألة الثانية، فتمثّلت بتعرّفي إلى دراساتٍ قانونيّة متأثّرةً بالنظريّة العرقيّة النقديّة*: وهي منهج لفهم القانون من منظورٍ نقدي وما بعد استعماري، وتأطيره في إطار تطوّرٍ تاريخي لم يضعه المنتصرون بالضرورة، بل يرُصَد من منظور الشعوب التي اضطرّت، حتّى الأزمنة الحديثة، إلى تحمّل القانون الدولي – كما صاغته الدول الغربيّة في المقام الأول – وإلى تحمّل عواقبه.

في عام 2010، انتقلتُ للعيش في فلسطين مع زوجي ماكس كمبعوثةٍ أمميّة، وبقيت هناك حتّى نهاية عام 2012. ثمّ واصلتُ العمل في هذا المجال كأكاديميّة. وبفضل هذا المسار، انتُدبت لأكون مقرّرةً خاصّة للأمم المتّحدة، التي أسعى جاهدةً لاحترامها يوميًّا من خلال إثبات فكرةٍ مفادها أنّ النقاط الرئيسيّة للقانون، في نهاية المطاف، هي، ويجب أن تكون، مفهومةً للجميع. ذلك أنّها تخصّ كلّ واحدةٍ وواحدٍ منّا. يتألّف القانون الدولي الذي أتعامل معه بوصفي مقرّرةً خاصّة، ببساطة، من مجموعة القواعد التي تعتمدها الدول لتنظيم علاقاتها: الحقوق، الواجبات، والالتزامات المتبادلة. إلى ذلك، هناك حقوق الأفراد، وحقوق الإنسان التي تُمثّل حمايتنا: دروعنا، وإن لزم الأمر... سيوفنا.

تسري رغبةٌ في داخلي بأن أكون قادرةً على التعبير، وشرح مدى الظلم الساطع الذي يرافق الحياة اليوميّة للفلسطينيّين.

إنّها رغبةٌ تسري في أعماق هذا الكتاب وبين صفحاته. كتابٌ وُلد في حقبة إبادةٍ تُستَعرض وحشيتها أمام العالم، وقد كُتِب تحت ضغطٍ هائل. بعد كلّ الضغوط العبثيّة التي مارستها جهاتٌ مؤثّرة ضدّي، رسوت على قناعةٍ بأنّ مجلس حقوق الإنسان لن يُجدّد تعييني. مع ذلك لا يزال المجلس يمنحني ثقته. وسيتزامن صدور الكتاب [بطبعته الإيطاليّة الأولى] مع بداية ولايتي الثانية كمقرّرةٍ خاصّةٍ للأراضي الفلسطينيّة المحتلة، ما سيسمح لي بمواصلة معالجة هذه القضايا، التي

* وتُعرف أيضاً بالعربية بالنظريّة النقديّة للعنصريّة. تُقدّم إطارًا تحليليًا منهجيًا يُعنى بفحص وتفكيك الآليّات القانونية والاجتماعية التي تُكرّس التمييز العنصري المؤسسّي وتعزّز استمراريّته. وتسعى هذه النظرية إلى الكشف عن البنى الهيكليّة الكامنة التي تترسّخ من خلالها أشكال العنصريّة المتعدّدة، بهدف نقدها وإعادة تشكيل الفضاء القانوني والاجتماعي بما يضمن العدالة والمساواة.

أمست متشابكة مع حياتي على نحوٍ وثيق، فلا يمكن فصلها عنها، خاصةً أنّ حاضر هذا الشعب ومستقبله، بل حتّى ماضيه، صارت في خطرٍ أكثر من أي وقتٍ مضى.

بعد سبع وخمسين سنةً من الاحتلال العسكري لغزّة والضفّة الغربيّة، بما في ذلك القدس الشرقيّة، وسبع وسبعين سنة منذ انطلاق التطهير العرقي الذي بلغ ذروته التاريخيّة مع النكبة، والنزوح القسري للفلسطينيّين الذي بدأ عام 1948 مع تأسيس إسرائيل – تحدث الإبادة الجماعيّة التي ترتكبها إسرائيل في فلسطين، برعايةٍ ووعيٍ تامّ من القوى المهيمنة، تلك التي أخضعت الجميع – حتى الآن – وأبقتهم على خضوعهم تحت وطأة التهديد بالانتقام.

لطالما لمّحت الولايات المتّحدة، في عهد الرئيس ترامپ، إلى أنّ أيّ شخصٍ يجرؤ على المساس بإسرائيل سيُضطرّ إلى «التعامل معها [الولايات المتّحدة]». ومع أنّ هذه اللغة التهديديّة لا تتّسق مع اللياقات السياسيّة كما اعتدناها، لكنّها تتّفق تمامًا مع جوهر ما صرّح به ترامپ نفسه عندما أعلن: «جميع الذين تحدّثت إليهم أعجبوا بفكرة أن تملك الولايات المتّحدة تلك القطعة من الأرض»، في إشارةٍ إلى قطاع غزّة. تنطوي العبارة على صنو العنف الكامن في القوّة التي لا يمكن كبح جماحها، تلك التي تقوم على اعتقادٍ بالقدرة على تحقيق أيّ شيء، ولأنّها، بوصفها كاليغولا* القرن الحادي والعشرين، تعدّ نفسها فوق القانون. في الواقع، إنّها لا تعترف بالقانون في الأساس.

لقد حان الوقت لمواجهة الولايات المتحدة والذين يقفون في صفّها: ليس نحن «الغربيّين» وحسب، بل نحن الأوروبيّين خاصّةً. الأمر بمثابة فرصةٍ لتفكيك عقد الماضي الاستعماري، والبدء بسداد الديون المترتّبة علينا للتاريخ. حان الوقت لنتّخذ موقفًا من تدمير غزّة وما بقي من فلسطين، ولمحاربة نظامٍ دولي قائمٍ على استخدام القوّة تحت شعار «السلام» المزعوم، بينما يُستدعى دائمًا لمصلحة القِلّة، ويستخدم الكلمات دائمًا لطمس حقيقة ما يجري، تمامًا كما تنبّأ أورويل

---

* وتُعرف أيضاً بالعربية بالنظريّة النقديّة للعنصريّة. تُقدّم إطارًا تحليليًا منهجيًا يُعنى بفحص وتفكيك الآليّات القانونية والاجتماعية التي تُكرّس التمييز العنصري المؤسسّي وتعزّز استمراريّته. وتسعى هذه النظرية إلى الكشف عن البنى الهيكليّة الكامنة التي تترشح من خلالها أشكال العنصريّة المتعدّدة، بهدف نقدها وإعادة تشكيل الفضاء القانوني والاجتماعي بما يضمن العدالة والمساواة.

منذ ما يقرب من قرنٍ من الزمن. اليوم، لم يعد مفهوم «التفكير المزدوج» الذي روّجت له وزارة الحقيقة كما تخيّلها أورويل في رواية «1984» – وهي أداةٌ أساسيّة للسيطرة على العقول يستخدمها النظام الشمولي الموصوف في الرواية – خياليًّا، بل إنّه أمرٌ يدعونا إلى فتح أعيننا على وسعها لنرى ما الذي نواجهه على وجه الدقة.

بالنسبة إلى الخبراء الأكثر تقدّمًا في مسائل ازدواجيّة الخطاب، لم يعد من الممكن إنكار الحقيقة عندما يتعلّق الأمر بفلسطين. في تمّوز/ يوليو 2024، أقرّت محكمة العدل الدوليّة، على نحوٍ لا يترك مجالًا للشك، بأنّ الاحتلال الذي تفرضه إسرائيل على غزّة والضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة منذ عام 1967 هو احتلالٌ غير قانوني، ويجب التخلّي عنه كليًّا ومن دون قيدٍ أو شرط.

الاحتلال غير قانوني. وبمجرّد وجوده لا يمكن للفلسطينيّين الوصول إلى حقّهم في تقرير المصير. حقّ الشعب في الوجود وفي تقرير مصيره، والاختيار لنفسه وبنفسه، من دون أيّ سيطرةٍ أجنبيّة على الأرض، وعلى حياة الفلسطينيّين الذين يسكنونها. مع ذلك، لا يزال هذا الحقّ البسيط في الوجود كشعب، والعيش بحرّية، محلّ نزاعٍ من قِبل البعض. وأحيانًا يُصار إلى الخلط بينه وبين حلّ الدولتين على نحوٍ خطير. لكنّني لا أعتقد أنّك بحاجةٍ إلى أن تكون مختصًّا في القانون لتفهم أنّ أيّ حقٍّ آخر يفقد معناه ويصبح مجرّد هراءٍ فكري، من دون أن يكون هناك شيءٌ اسمه: الحقّ في تقرير المصير.

ما يتبدّى في غزّة، وفي مناطق أخرى من فلسطين الخاضعة للسيطرة الإسرائيليّة غير الشرعيّة، بما في ذلك الضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة، هو استعمارٌ استيطاني يرافقه تدميرٌ شامل ومخطّط. في غزّة، أصبحت هذه العمليّة واقعًا ملموسًا. يؤثّر التدمير الممنهج على جميع مظاهر الحياة المادّية والبيولوجيّة، فيبيد كلّ ما هو موجود، بما في ذلك، بالطبع، البشر الذين يعيشون هناك (أو بالأحرى، عاشوا هناك). وفي الضفة الغربيّة – حيث تتمدّد المستوطنات اليهوديّة حصريًا وتتوسّع باستمرار، وتزداد عزلة المناطق التي يعيش فيها الفلسطينيّون – قد يكون المرء في مأمنٍ من القصف المكثّف الذي سحق مساحاتٍ هائلةً من غزّة، لكنّه لن يكون بمأمنٍ مِن أنياب الجرّافات الهدّامة وأكوام القنابل الناسفة. تلك التي، إلى جانب عنف المستوطنين، تخيّم حول المنازل والمدارس وفوق أحياءٍ بأكملها، وحتّى على

بساتين الزيتون وخلايا النحل. لا سلام في فلسطين، إن كنت فلسطينيًّا. الأمن في تلك الأرض – وليس الأمن وحسب، للأسف – طريقٌ ذو اتّجاهٍ واحد. وإن كنت فلسطينيًّا، يُستخدم الأمن ضدّك وحسب. يُستخدم للقمع... وللعقاب.

***

أثناء وجودنا في برلين، أخبرني إيال وايزمان أنّ أصدقاء له من غزّة أخبروه بدورهم، أنّه بسبب نقص الخبز، نظّمت العائلات في منطقة دير البلح صفوفها لحماية الموارد القليلة المتاحة. قالوا: «يجب أن نضع الحرّاس لمراقبة الخبز والدقيق». وعندها اتّصل جنودٌ إسرائيليّون بصاحب المخبز، مطالبين إيّاه بإيقاف كلّ شيء: «إن لم تزيلوا هؤلاء الحرّاس، فسنقصفكم، أنتم والمخبز، والحرّاس».

ما الذي يعنيه كلّ هذا؟

ليس من النادر اليوم أن تتناهى إلى مسامعنا ذرائع مختلفة من نوع: «حسنًا، إسرائيل لا تريد تدمير الفلسطينيّين. إسرائيل تريد القضاء على حماس وحسب»، أو: «إنّها تريد تحرير الرهائن. ليت حماس تطلق سراحهم...».

لهؤلاء، أودّ أن أشير، أولًا وقبل كلّ شيء، إلى أنّه عندما تقصف مخبزًا، وتقتل عشرات الآلاف من الأطفال، وتشوّه وتيتّم عشرة أضعاف هذا العدد، يتّضح أنّ مسار العمليّات لا يتوافق عمليًّا مع الذرائع المعلنة، سواءٌ لتحرير الرهائن أو لتصفية حماس، بل إنّها ليست إلّا ذرائع يكتنفها قدرٌ بالغ من الغموض المقلق في حدّ ذاته. في نهاية الأمر، فكّروا معي قليلًا: من هي حماس؟ من يقاتلها، أو مَن صوّت لها عام 2006؟ من عمل في المستشفيات الخاضعة لسيطرتها؟ من يقاوم الاحتلال؟ من يعارض الإبادة الجماعيّة؟

قد تكون هذه الدوافع موجودةً فعلًا في أذهان القادة الإسرائيليّين، أو في رؤوس مئات الآلاف من الجنود، غالبًا من صغار السنّ، الذين ينفّذون الأوامر. لكن مِن المهمّ جدًّا أن نفهم أنّ هذه الدوافع لا علاقة لها بما يُسمّى، عند تعريف جريمة الإبادة الجماعيّة «القصد الخاصّ»*، أو ما يُعرَف في المصطلحات القانونيّة

* يُعدّ «القصد الخاص» (Special Intent) أحد الأركان المعنويّة المميّزة لجريمة الإبادة الجماعيّة، ويُفترض أن يكون لدى الجاني نيّة متعمّدة لتدمير جماعةٍ قوميّةٍ أو دينيّة أو عرقيّة أو إثنيّة، كليًّا أو جزئيًّا، بوصفها كذلك. هذا القصد يتجاوز

بـ«النيّة الإجراميّة» (Mens rea). ينبغي فهم القصد من التدمير على أنّه تصميمٌ (Determinazione) على التدمير: فعندما تُصوَّر وتُصاغ فكرةٌ تدميريّة ضدّ جماعةٍ ما، مهما كانت الدوافع التي تقف خلفها – حتى لو قامت على مجموعة مزاعم حول الدفاع عن النفس – فإنّها تقع في خانة الإبادة الجماعيّة.

الإبادة الجماعيّة جريمةٌ بالغة الخطورة. وما كان ينبغي أن تكون ممكنةً في عصرنا الحالي، بالنظر إلى الضمانات والآليّات الوقائيّة المتاحة في مختلف النظم القانونيّة، الوطنيّة والدوليّة. بدلًا من ذلك، كان هذا بالضبط ما ارتكبته إسرائيل، ما دبّره قادتها ونفّذه جنودها، بتواطؤ عددٍ كبير من السياسيّين الغربيّين، وبتواطؤٍ مشابهٍ وبغيضٍ من وسائل الإعلام الرئيسيّة، التي أنكرت الواقع فقللت من شأنه وشوّهته، حتّى لا تُزعج إملاءات السفارات الإسرائيليّة والشبكات القويّة الداعمة لإسرائيل... حتّى «آخر حدود الغرب».

إنّ تدمير جماعةٍ محدّدة بوصفها جماعةً ولا شيء سوى ذلك، عندما لا يكون أمرًا عرضيًّا أو «أثرًا جانبيًّا للحرب» مهما بلغ هذا الأثر من الوحشيّة، بل يكون ناتجًا عن سبق الإصرار والتصميم، يُصنّف إبادةً جماعيّة. لقد خضعت الأجساد لإفناءٍ مقصود، بموازاة الفتك بمظاهر الحياة الجماعيّة وبأرواح الفلسطينيّين. لقد سُلِخت جلودهم. وغزّة كانت مسرحًا. لكن بلا شك كان مسرحًا في غاية الفظاعة.

كان الأكثر هولًا.

ترعبني فكرة العيش في مجتمعٍ تصبح فيه أخبار القتل والتشويه والتعذيب والاغتصاب والجوع والمجاعة مجرّد أخبارٍ عابرة، تبعًا لهويّة الضحيّة ولهويّة الجاني. وقد تساءلتُ عن هذا الأمر مراتٍ عديدة، خلال سنوات عملي مقرّرةً خاصّة، حيث وجدتُ نفسي غالبًا في خضمّ نقاشاتٍ عن معنى «الحياد».

عندما تكون أرواح البشر على المحكّ، يُصبح الحياد واجبًا ولكن بإجبارنا على الوقوف إلى جانب القانون والعدالة والضحايا. أن تكون محايدًا يعني أن تتحلى بالشجاعة للدفاع عن الحق، وأن تُعطي صوتًا لمَن أُسكتوا أو قُمِعت أصواتهم، وأن تُكافح الانتهاكات التي تُعذّب عالمًا نحن فيه.

القصد الجنائي العامّ، إذ لا يكفي ارتكاب الفعل، بل يُشترط وجود نيّة مُحدّدة تستهدف الجماعة كجماعة. لذلك، يشكّل «القصد الخاصّ» العنصر الحاسم الذي يُميّز جريمة الإبادة عن سواها من الجرائم الدوليّة.

لا يعني الحياد التظاهر بعدم وجود رأي ضدّ الوحشيّة. ولا يقوم على افتراضٍ بوجوب الحفاظ على موقفٍ متساوٍ بين طرفين متصارعين، حتى لو كانت مواقعهما غير متكافئةٍ هيكليًّا وتاريخيًّا، فيكون بينهما طَرَفٌ يحتلّ وينهب ويضطهد، بينما يُحتلّ الطَرَف الآخر ويُنهب ويُضطهد، بما يجعل العنف الكارثي سائدًا.

كيف يُمكن أن تصبح الحقيقة كذبةً، وتصير الكذبة حقيقة؟

في مواجهة هذا الشرّ المُستشري، الذي يُريد استعبادنا جميعًا أو ببساطة يريد القضاء علينا، يجب أن نردّ بالأفعال ويستند ردّنا إلى الوعي. المعرفة سلاحٌ أساسي. إنّها تُمثّل أفضل دفاعٍ ضدّ التلاعب والاستغلال والخداع، ويجب أن تنبع الأفعال من تلك المعرفة تلقائيًّا.

لكن كيف يُمكن أن تكون هناك إمكانيّة لإنقاذ الجميع، للفلسطينيّين والإسرائيليّين على حدٍّ سواء؟ أرى الأمر والسؤال والإجابة على هذا النحو. حتى وإن كان ذلك الرأي ليس موجودًا إلّا في خيالي، فإنّني أراه. وأرى أيضًا شكل الطريق الذي يقودنا إلى هناك. إلى ذلك، أعلم أنّ هذه الرؤية مشتركة حقًا: كلّ من رأى فيّ، منذ بداية الإبادة الجماعيّة، أملًا، نورًا، ومرجعًا، كلّ هؤلاء منحوني قوّةً لم أتخيّلها في حياتي. على الرغم من الشكاوى، والتهديدات بالقتل، والخوف من أن ينقلب شيءٌ ما على أغلى ما لديك في العالم، فإنّ النضال من أجل قضيّةٍ عادلة هو أمرٌ لا يملك بعضنا القدرة على عصيانه.

أؤمن إيمانًا راسخًا بإمكان التكاتف كعائلةٍ في الإنسانيّة، وإعادة اكتشاف المعنى الحقيقي والعميق للتضامن. يشير المصطلح اللاتيني Solidum إلى فكرة «الكلّ-الواحد»: شيءٌ متكامل، غير مجزّأ، تامّ وناجز، وغالبًا ما يكون في مواجهة ما هو مقسّم أو مكسور. وهكذا، كجسدٍ واحد، يجب أن نكون قادرين على الاتّحاد والالتقاء والمقاومة. بهذا المعنى، يصير التضامن «تجسيدًا سياسيًّا لمفهوم الحبّ»، كما أشارت الرابّا* الأميركيّة أليسا وايز Alissa Wise بحكمة.

---

* لقب ديني نسائي مشتق من العبريّة، وقد استُحدث في التيّارات اليهوديّة الإصلاحيّة والمحافظة، للإشارة إلى المرأة التي تشغل منصب الحاخام. جاء هذا التطوّر في القرن العشرين استجابةً لمطالب المساواة الجندريّة داخل المؤسّسات الدينيّة اليهوديّة، وأصبح متداولًا في الولايات المتحدة وأوروبا خصوصًا.

في تفرّقنا تفتك بنا هشاشة كتلك التي بأجنحة الفراشة، لكن في اتّحادنا – متماسكين ومتضامنين – يمكننا إحداث عاصفة. ليست هذه مبالغةً خياليّة، بل إنّها ترتكز على مبدأ فيزيائي معروف: «أثر الفراشة». كلّ بادرةٍ صغيرة منّا هي بمثابة رفرفة جناحين وستتبعها سلسلةٌ من العواقب... مثل بادرة ماري، إحدى العاملات في واحدٍ من المتاجر العديدة في مدينةٍ أيرلنديّة. كيف نصدّق أنّ خيارها، سواءٌ بإمرار الليمون الهندي (Grapefruit) الذي اشتراه الزبون عند الدفع، أو عدم القيام بذلك، يمكن أن يكون له أثرٌ طويل الأمد على إسقاط نظام الفصل العنصري في بلدٍ بعيدٍ عنها كجنوب أفريقيا؟ يجب أن نُصدّق. يُعلّمنا التاريخ أنّ هذه ممكنٌ بالفعل.

في ترابط النضالات من أجل التحرّر والحرّية – فرديًّا أو جماعيًّا – يجب أن نعيد اكتشاف قدرتنا على الصمود. معًا، يمكننا مواجهة أيّ تحدٍّ.

فلنُرفرف بأجنحتنا، وليكن صخبًا. أو بالأحرى، كما يقولون من حيث أتيت... فلنُحدِث ضجيجًا.

قراءة ممتعة

فرانشِسكا ألبانيزي

هند

في فلسطين... كيف تكون الطفولة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألّا نخاف بعد الآن. هذا هو الهدف الأسمى للبشريّة.

إيتالو كالڤينو – «الطريق إلى بيوت العناكب»

أواخر كانون الثاني/ يناير 2024. هند رجب تكمل عامها السادس. تجلس منكمشةً في المقعد الخلفي، في سيّارةٍ تخصّ أقاربها. تحتضن أبناءهنّ وبناتهنّ. وبدا الصغار الأربعة كما لو أنّ بعضهم يحتمي ببعض. ما إن وصل أمر الإخلاء الجديد إلى المنطقة الغربيّة من غزّة، حتى كانت والدتها وإخوتها قد هربوا سيرًا على الأقدام. ولكن، لهطل الأمطار وشدّة البرد، اصطحبها الأقارب معهم في السيّارة.

إنّها الظهيرة. تخترق أصوات القذائف السيّارة وتصل إلى حيث يجلسون. وقد بدت السيّارات عالقةً في زحمةٍ تمتدّ إلى الأبد. ثمّة خطبٌ ما. يسمع أقاربها الصوت، فيصابون بالتوتّر. وعندما يتحدّثون، تبدو عليهم مظاهر الانفعال. على مقربةٍ من محطّة وقودٍ قرب تلّ الهوى، تقع السيّارة تحت وابلٍ من نيران المدفعيّة الإسرائيليّة.

غمرتها قشعريرةٌ من عالمٍ آخر.

تنظر هند حولها: لم يتحدّث أحد، وقد تكوّم بعضهم على بعض. بيديها المرتجفتين، تسحب الهاتف من بين أصابع ابنة عمّها لَيان، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، والتي سقطت أثناء التحدّث مع مسعفي الهلال الأحمر. هكذا بدا الآخرون لهند: «أموات، أو ربّما نائمون». راحت تطلب المساعدة: «الدبّابة بجانبي. إنّها تتحرّك. هل ستأتون لأخذي؟ أنا خائفة».

على الطرف الآخر من الخطّ، تُجيبها عاملة الهاتف – بصوتٍ مشحون بآثار الرعب، ذلك أنّها تُدرك الخطر المُحدِق بهند – ولكن بتأثّرٍ بالغ: «حبيبتي» «صغيرتي». تبقي الخط مفتوحًا، حتى لا تتركها وحدها.

بعد ثلاث ساعات من التواصل – وهو الوقت الذي استغرقه زملاؤها في الهلال الأحمر للتنسيق مع السلطات الإسرائيليّة لتحديد موقع السيّارة والحصول على إذن لإنقاذ الطفلة – طمأنتها عاملة الهاتف بأنّ اثنين من المنقذين كانا في الطريق لمساعدتها. سُجّلت تلك المحادثة المُفجِعة، وستبقى في ذاكرة التاريخ، حيث كانت حياة الطفلة معلّقةً بخيطٍ رفيع. وكلّ ما نرجوه هو أن يُحال المسؤولون عن المجزرة التي قُتلت فيها هند على يد الجيش الإسرائيلي، إلى القضاء.

بعد اثني عشر يومًا، سيُعثر على جثّة هند هامدةً في تلك السيّارة التي كان أحدهم يُطلق النار عليها باستمرار. اخترقتها أكثر من ثلاثمئة رصاصة. وعلى مقربةٍ منها، كانت سيّارة الإسعاف، تلك التي كانت تحمل جثّتي المنقذَين من الهلال الأحمر. لم يتسنَّ لهما الوقت للوصول إليها. وقد أظهرت تحقيقات فريق «العمارة الجنائيّة»* البحثي البريطاني، الذي يشرف عليه البروفسور إيال وايزمان، والتي أعادت تقدير المسافات ومحاكاة عمليّة إطلاق النار، أنّه كان «من غير المعقول» ألّا يكون الجنود الإسرائيليّون الذين أطلقوا النار من الدبّابة على درايةٍ كاملة بوجود مدنيّين في الآليّة... وأنّ من بينهم طفلتين صغيرتين.

أصبحت قصّة هند رمزًا لوحشيّة الهجوم الإسرائيلي على سكّان غزّة في أعقاب السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023. لكنّ الفتاة الصغيرة قُتلت بعد أكثر من ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ، حيث كانت إسرائيل قد قتلت أكثر من ستّةٍ وعشرين ألف شخص، من بينهم ما لا يقلّ عن عشرة آلاف طفل، منذ تلك الأحداث. كيف يُمكن التسامح مع كلّ هذا؟ وكيف يُعقل أنّه حتى اليوم – في نهاية آذار/ مارس 2025، وأنا أُكمل مراجعة هذا الكتاب – وقد تجاوز عدد وفيات الأطفال المؤكّد

* مجموعة بحثيّة متعدّدة التخصّصات مقرّها في كلية غولدسمِث التابعة لجامعة لندن. وهي تعتمد على التكنولوجيا والتقنيّات المعماريّة للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان والعنف الحكومي في جميع أرجاء العالم. يقود المجموعة المهندس المعماري أيال وايزمان.

سبعة عشر ألفًا، منهم ألف طفل دون عمر السنة، أن يستمرّ الإفلات من العقاب، وأن تستمرّ آلة الموت التي أطلقتها إسرائيل في جرائمها بلا هوادة؟

يكمن الجواب في عقودٍ من التلاعب بالخطابات، جرى خلالها تشويه مفهوم توازن القوى بين الإسرائيليّين والفلسطينيّين.

خلال ثلاثين عامًا مضت، هيمنت هذه السرديّة، لدرجة أنّ الكثيرين صدّقوا أنّ الفلسطينيّين هم المسؤولون عن وضعهم الحالي، وأنّهم يمثّلون تهديدًا وجوديًا لإسرائيل. حتى الأطفال؟ نعم، حتى هم، وربّما هم تحديدًا، ذلك أنّه في منطق الهجمات الإسرائيليّة التي بدأت بعد أحداث السابع من أكتوبر، صارت حياة كلّ فلسطيني تعدّ خطرًا مستقبليًا محتملًا على بقاء إسرائيل.

كم من الأطفال الفلسطينيّين ماتوا هكذا؟ مع إفلات الجناة من العقاب، بينما يحلّ ألمٌ لا يتوقف بعائلاتٍ ومجتمعات بأكملها؟ عشرات الآلاف. قصّة هند، على فظاعتها، ليست قصّةً جديدة في فلسطين. كان محمّد التميمي في الثانية من عمره عندما أطلقت قوّات الاحتلال الإسرائيلي – التي تُطلق على نفسها اسمًا رسميًّا هو «جيش الدفاع الإسرائيلي» – النار على رأسه، وذلك قبل بضعة أشهر من 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، بينما كان جالسًا في السيّارة مع والده، في الضفّة الغربيّة المحتلة. ولم يُحاسب أحد، كما هي الحال دائمًا.

هذه هي الطفولة في فلسطين.

في القدس، وعلى تخوم حديقة المنزل الذي كنت أسكن فيه أنا وماكس، كان ثمّة تلّ صغير. انتصبت فيه شجرة توتٍ عملاقة، بهيّةٌ وسخيّة. كانت تُثمر لشهورٍ متواصلة. تحتها تمامًا، ومن ثمار التوت المتساقطة، تشكّلت سجّادةٌ أرجوانيّة. لطالما أتى الأطفال لكي يجمعوها. وتحت المنزل مباشرةً، كان هناك جدارٌ حجري منخفض، وقد ثُبّت عليه سياجٌ حديدي. لا بد من أنّه نُصِبَ لكي يكون مؤقّتًا قبل سنوات، لكنّه بقي في مكانه. كان الأطفال القادمون لجمع ثمار التوت قد حفروا طريقًا لأنفسهم عبر السياج. وذات يومٍ من أيّام الصفاء، رأيتهم وأسرعت بالقول: «مرحبًا شباب، متى أردتم التوت، اطرقوا الباب وسأفتح لكم، حتّى لا تضطرّوا إلى النزول من هناك». لم يفهم معظمهم كلامي، لأنّ معظمهم لم يكن يتحدّث

الإنكليزيّة؛ عدا صبيٍّ ذي عينين داكنتين وواسعتين، كنت قد لمحته في الأرجاء من قبل، وكان بصحبة أصدقائه وأخته التوأم.

«مرحبًا»، توجّهت إليه بالحديث مباشرةً. «أعلم أنّكم تقطنون في هذا الحيّ. لقد رأيتكم وأنتم تلعبون مراتٍ عديدة. عندما تريدون التوت، لا تشعروا بالقلق، تحدّثوا معنا حتى تتجنّبوا خطر السياج الحديدي».

أذهلني ردّه، المُحترم والحازم في آن واحد.

«لا، شكرًا»، قال. «لستم بحاجةٍ لترك البوّابة مفتوحة. سنستمرّ في التسلّق، كما كنّا نفعل دائمًا».

في سنٍّ مثل هذه، بدا لي محمّد الصغير جريئًا أكثر من المعتاد. كان في الحادية عشرة من عمره فقط. كانت عائلته، من أوائل العائلات التي عانت في حيّ الشيخ جرّاح مِن اعتداءات المستوطنين الإسرائيليّين على منزلها. وهم مستوطنون، من بين الذين يتمدّدون في الضفة الغربيّة، ويتكوّنون من مدنيّين مسلّحين يحظون بدعمٍ الجيش [الإسرائيلي]. أمّا المنزل، فهو نفسه الذي لجأت إليه جدّة محمّد، واسمها رفقة، مع شقيقتها منى، عام 1948 بعد طردهما من حيفا (بعد احتلالها). وفي نهاية معركة قانونيّة طويلة، عام 2009، احتلّ مستوطنون إسرائيليّون منزلهم، بينما أُجبرت عائلة الكرد على بناء مرفق في الفناء الخلفي، واضطرّ جميع أفراد العائلة إلى الانتقال للعيش فيه.

فاجأني ردّ فعل محمّد، ذلك أنّه ليس أمرًا يمكن اعتباره بديهيًا، أن يكون لطفلٍ في الحادية عشرة من عمره – أو السابعة، أو الثانية عشرة، أو الرابعة عشرة – هذا النوع من الوعي بالحقوق والمساحة والهويّة. لكنّه بديهيٌّ بالنسبة إلى الفلسطينيّين الذين نشأوا تحت الاحتلال، وكذلك بالنسبة إلى الملايين منهم، الذين وُلدوا في مخيّمات اللاجئين في جميع أنحاء فلسطين. جيلًا بعد جيل، نشأوا وهم يشاهدون أرضهم، يومًا بعد يوم، وهي تُقتلع من تحت أقدامهم كالسجّاد. نشأوا وفي نفوسهم نضالٌ ما انفكّ يتأجّج. نضالٌ لا نهاية له من أجل السكن والكرامة، وكلّ ما يجب أن يُؤخذ على محمل الجدّ في تلك السنّ. يجدون أنفسهم في عالمٍ يلازمهم فيه القلق والخوف والمسؤوليّات التي لا ينبغي أن يعرفوها في سنّهم. تُنتزع طفولتهم منهم: في فلسطين يصير الأولاد أكبر من أعمارهم.

لهذا السبب، وبصفتي المقرّرة الخاصّة للأمم المتّحدة المعنيّة بحالة حقوق الإنسان في الأرض الفلسطينيّة المحتلة، قرّرتُ في عام 2023 تخصيص تقريري الثالث للطفولة، وقد استخدمت عبارةً إنكليزيّة تصف الواقع الفلسطيني بوضوحٍ تامّ: «الحرمان من الطفولة». خلف اختيار هذا الموضوع كان ثمّة أمل، بأن يُسهم عرض حقيقة حياة الطفل في فلسطين، إلى جانب الإحصاءات والحقوق، في مساعدة الجمهور على فهم درجة خطورة الوضع على نحوٍ أفضل.

عندما أجريتُ بحثي، كان كلّ شيء مختلفًا عمّا هو اليوم: قُدِّم التقرير بعد أسبوعين من 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، ولكنّي كنت قد أنهيته قبل أسبوعين من ذلك الموعد. كان الوضع سيّئًا بالفعل.

في تلك المرحلة من الخريف، كانت أعداد الأطفال الفلسطينيّين الذين قُتلوا خلال خمسة عشر عامًا (من 2008 إلى أيلول/ سبتمبر 2023) مُرعبة: أكثر من 1400 طفل. كلّ واحد منهم يشكّل عالمًا صغيرًا قائمًا بحدّ ذاته وقد اختفى إلى الأبد. من 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 حتى آذار/ مارس 2025، تضاعفت هذه الأرقام المروّعة عشر مرّات: في سبعة عشر شهرًا، قُتل أكثر من سبعة عشر ألف طفل آخر. وهناك أكثر من ألف طفل من حديثي الولادة، انتُزعت منهم حيواتهم قبل أن يحْبو أحدٌ منهم أو يتعلّم الكلام، وقبل أن يلعبوا.

في غزّة، وفي آب/ أغسطس 2024، كان محمد أبو القمصان يطلب شهادتي ميلاد لتوأميه اللذين وُلدا قبل ثلاثة أيّام. تلقّى اتّصالًا وقيل له: قُصفت شقّتك، أطفالك وزوجتك في المستشفى. لم يكن هناك ما يمكن فعله. ماتوا قبل أن يبصروا الحياة.

هذه هي الطفولة في فلسطين.

***

في عام 2023، وبعد عدم حصولي على التصريح اللازم من الحكومة الإسرائيليّة لإجراء أبحاثي في المنطقة المحتلة، والذي كنت بحاجةٍ إليه لكي أعدّ تقريري الموجّه إلى الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة خريف ذلك العام، آثرت أن أسلك طريقًا آخر. بدعمٍ من المجتمع المدني الفلسطيني وشركاء آخرين، أنشأنا مجموعات تركيز، أتاحت لي إجراء مقابلاتٍ مع الأطفال عبر الإنترنت.

في ذلك الوقت، كنتُ في إجازةٍ مع عائلتي في صقلية، حيث كنتُ في ضيافة أهل زوجي (حميَّ وحماتي). بعد كلّ عصر، وبعد الغداء مع الأطفال، وبعد «غطسةٍ» سريعةٍ في البحر، كنتُ أصعد إلى الفناء العلوي، أوصل اللابتوب بواحدٍ من منافذ الكهرباء القليلة المتاحة، و«أغطس» في الاجتماعات التي كانت تستمرّ لعدّة ساعاتٍ يوميًّا.

سرعان ما أثبت الأطفال والمراهقون الذين أجريتُ المقابلات معهم أنّهم منظمون ومنضبطون. كانوا مُقسّمين حسب الفئة العمريّة والموقع الجغرافي، وبدا الأطفال وأهاليهم والاختصاصيّون التربويّون سعداء للغاية بأن تُتاح لهم فرصة مشاركة التجارب والشهادات. تحلّقوا حول طاولة، أو جلسوا على مقاعد كانت أحيانًا أكبر منهم (مثل أطفال جنين)، وكانوا جميعًا ينظرون إلى الشاشة باهتمامٍ واضح. وكان هناك مترجم، مع أنّ معظم الأطفال في غزّة خاصّةً، كانوا يتحدّثون الإنكليزيّة بطلاقة، ما سمح لنا بالتفاعل مباشرةً ومن دون الحاجة إلى وسيط.

خلال تلك اللقاءات، كنت أشعر بأنّي أمام معجزةٍ حقيقيّة: الحياة والحيويّة والرِقّة، في بيئةٍ تُنتِج الطاقة وتخترع الأمل برغم كلّ الشدائد. في قلب هذا الواقع حيث تتنامى مصاعب الاحتلال الدائم، وفي خضمّ الحروب المتواصلة على غزّة حيث حوّل الحصار الجميع إلى سجناء داخل غيتو، وحيث تذكّر المسافة القريبة من المستوطنات الإسرائيليّة في الضفّة الغربيّة بالتخريب والتدمير، وحيث تحدث الاعتقالات بوتيرةٍ متكرّرة، ويقتحم الجنود المنازل باستمرار، ويهاجم المستوطنون السكّان، أظهر الأطفال الذين التقيتهم ذلك الصيف قدرةً استثنائيّة على الحفاظ على القيم الأساسيّة، وفي مقدّمتها حبّ المدرسة. أتذكّرهم، بقمصانهم الأنيقة التي تحمل آثار الوقت والتعب. كان شعر الصِبية مصفّفًا بعناية. أمّا البنات فكنّ بفساتين زاهية. وكان شعر الواحدة منهنّ مربوطًا في وشاح أو منسدلًا على كتفيها. عبّرت تلك الأصوات عن عطشٍ كبير للمعرفة، وعن رغبةٍ ملحّةٍ في المستقبل.

هذه أيضًا هي الطفولة في فلسطين.

أحد الجوانب التي أثّرت فيّ، خاصّةً في البداية، والتي علّمتني شيئًا عن نفسي وعن الأحكام المسبقة التي نحملها أحيانًا من دون قصد، هو أنّ الأطفال كانوا يتمتّعون بمعرفةٍ واسعة في مواضيع عامّةٍ وغير شخصيّة. سواءٌ كنّا نتحدّث عن

مشاكل تتعلّق بالمياه أو بالتعليم أو حرّية التنقّل، كانوا يخبرونني عن الانتهاكات التي تعرّضوا لها بلغةٍ محمّلة بالمطالب ولا تفتقر إلى الدقّة، إلى درجةٍ تقارب التكلّف أحيانًا. «كما لو أنّهم محامون صغار»، فكّرت. لكنّني سرعان ما فهمت أنّ قدرتهم على السجال والتفاعل ليست مُصطنعة. «إنّهم ليسوا أطفالي، الذين يذهبون إلى المدرسة ويلعبون ويعيشون حياةً آمنة ومريحة»، قلت لنفسي، وقد انتبهت إلى أنّ هؤلاء الأطفال والمراهقين عاشوا تجارب مؤلمة ومخيفة. لذلك، من المفهوم أن يصير حديثهم عن حقوق الإنسان أشبه بصرخة استغاثةٍ من أجل الحياة، ومطالبة جدّية بالحصول على أجوبة.

كيف يمكن أن يحدث كلّ هذا، فيما على الورق تُعدّ تلك الحقوق مضمونةً للجميع؟ إنّه سؤالٌ يتردّد صداه بقوّةٍ بين الأطفال الفلسطينيّين كدعوةٍ إلى عدالةٍ... بالنسبة إليهم تبدو بعيدة المنال. وبينما يقلق ابني ذو الثماني سنوات من حفظ جدول الضرب، يغرق الأطفال الفلسطينيّون في فهم وتوظيف اللغة الحقوقيّة كدليلٍ لتأكيد وجودهم وإنسانيّتهم. هكذا، للمفارقة، كان دفاعهم عن حقّهم في الوجود، وفي أن يكونوا أطفالًا، هو ما جعلهم أحيانًا يُصبحون المدافعين الفعليّين، الذين يحملون على أكتافهم عبئًا ثقيلًا.

عبءٌ قديم، عبءٌ يلازم مجتمعهم لأجيال. ولهذا السبب، كما أعتقد، تنمّ براءتهم عن وعيٍ راسخ بالظلم. عندما يُدرَك معناه... يتطلّب الأمر شجاعةً بالغة من الطفل لكي يواجه القمع: حربٌ دائمة وانفصالٌ عن جميع الفلسطينيّين الآخرين حول العالم، بالإضافة إلى عدم القدرة على السفر، وعدم القدرة على الحلم حتّى بأبسط الأشياء في العالم.

في تلك الأيّام، وعندما كنت أبتعد بضعة أمتار فقط عن العالم من حولي، وجدت نفسي أمام مفارقة. عالمٌ كان أهم الأسئلة فيه: هل تناول الأطفال الطعام؟ ماذا فعلوا؟ مَن يتجادل مع مَن؟ من التهم البوظة مرّتين من خلف ظهري؟ كنت أنتقل إلى عالمٍ آخر، وتلك كانت مفارقة: أن أقضي عصر كلّ يومٍ مع أطفال غزّة

وخان يونس والقدس وبيت لحم ونابلس ورام الله ومسافر يطا*، وأن أغرق في بُعدٍ آخر مختلفٍ تمامًا.

حدث أحيانًا، وإن نادرًا، أن اقترب ابني جُرْدانو، الذي كان في السادسة من عمره آنذاك، بعفويّته المتوقّعة ممّن هم في سنّه. ذات مرّةٍ أتى ليرى مع مَن أتحدّث، مِن دون أن يكترث لكونه في ثياب السباحة. أتذكر أنّ طفلًا سألني عنه: «لماذا لا يرتدي شيئًا؟»، فأجبته: «لأنّنا على الشاطئ». كان من أطفال الضفّة الغربيّة، الذين لم يروا البحر في حياتهم.

عقدنا اجتماعات أكثر بكثير مع الأطفال المقيمين في الضفّة الغربيّة مقارنةً بأطفال قطاع غزّة، لأنّ الترتيبات اللوجستيّة كانت أكثر صعوبة. كان من الصعب، على سبيل المثال، تنظيم حافلات لنقلهم أو لكي يرافقهم آباؤهم، غالبًا بسبب مئات نقاط التفتيش، الثابتة والمتحرّكة، التي أقامها الجيش الإسرائيلي لـ«مراقبة» حركة الفلسطينيّين. كان علينا ترتيب مواعيد مختلفة، يجمعنا كلّ منها بأربعة أو خمسة أطفال فقط. وكثيرًا ما كانوا يتغيّرون من حينٍ إلى آخر. كانوا ينتظرونني وهم يجلسون بهدوء، متحمّسين، ومستعدّين لما يريدون قوله. تركتهم يتحدّثون. كنت قد جمعتُ بالفعل بياناتٍ عن الحروب، والهجمات، وتدمير المنازل، والمستشفيات، والمدارس، وعمليّات الإخلاء، والقتل، والاعتقالات. لذلك، حرصت على أن أستمع إليهم وهم يتحدّثون، قبل كلّ شيء، عن حياتهم؛ عن منازلهم وألعابهم ورحلاتهم وعائلاتهم، حتى يكون التقرير الذي كنتُ أُعدُّه «تقريرهم».

أردته أن يحمل أصواتهم.

لم يكن بين تلك اللقاءات ما استغرق وقتًا يقلّ عن ساعتين. ومع اقترابنا من النهاية، وبعدما تعارفنا قليلًا، شعرتُ بأنّني أصبحت جاهزةً لطرح السؤال: «هل هناك ما يُخيفكم؟». تحدّث الجميع عن الموت، كان أمرًا لا مفرّ منه. أكبر مخاوف هؤلاء

---

* مسافر يطا هي منطقة تدلّ إلى مجمعات سكنيّة فلسطينيّة تتألف من 28 قرية وخربة، تقع جنوبيّ مدينة الخليل، وتشكّل امتدادًا لمدينة يطا من ضمن تضاريس جبليّة وعرة. تنبض هذه المنطقة بالحياة الريفيّة، حيث تقطنها عائلات فلسطينيّة تعتمد على الزراعة والرعي، ويعيش كثير منها في كهوفٍ ومساكن تقليدية. تعاني مسافر يطا من تهديدات متواصلة بالتهجير القسري من قبل الاحتلال الإسرائيلي، الذي يسعى لتحويل أراضيها إلى مناطق تدريب عسكري، في انتهاكٍ متواصل لحقوق سكّانها الأصليّين. أخيرًا، وبالتوازي مع عملية الإبادة في غزّة التي انتهجتها إسرائيل، ضاعف المستوطنون انتهاكاتهم في مسافر يطا على نحوٍ غير مسبوق.

الأطفال كان الموت أو فقدان الوالدين. ثاني المخاوف على القائمة كان الاعتقالات؛ أمّا ثالثها، فـ«سيهدمون منزلي». هذه هي المخاوف الأكثر شيوعًا بين الأطفال الفلسطينيّين. هكذا يكبرون. وهذا وحده، لعمري، يبدو لي أمرًا متوحّشًا بشدّة.

«علينا أن نناضل من أجل حقّنا في التنفس، والبقاء هنا في أرضنا من دون أن نعاني كلّ يوم»، تقول روان التي بلغت عامها الحادي عشر. أمّا علاء الدين، الذي يكبرها بأعوامٍ ثلاثة، فيقول «نهرب دائمًا من خطرٍ ما، إن لم يكن من الجنود، فمِن المستوطنين».

في روايات الأطفال والشباب الذين تحدّثت معهم، سمعت قصصًا لا تنتهي يتجلّى فيها العنف ويتأتّى منها الخوف بألف طريقةٍ وطريقة: عنف نقاط التفتيش. فقدان الوالد لعمله. الصفع والضرب. والتجريد من الملابس في الأماكن العامّة. وقد قيل على مسامع جزءٍ منهم: «سآخذ هذ الأرض، وسأذلّ أهلكم». قصص لا تتوقف. ومنها أيضًا المعاناة الناتجة عن غياب الوالدين في المنزل... ذلك أنّه إن اعتُقلا أو قُتلا، فسيُضطرّ الطفل إلى النشأة مع أحد أنسبائه، قريبًا كان أو بعيدًا، وقد يكون يُحبّه بالتأكيد. لكنّه ليس أمّه ولا أباه.

حتّى قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كانت أمور حياتهم تجري على هذا النحو. قالت لي ياسمين، البالغة من العمر ستة عشر عامًا، والتي كانت قد شهدت، بحلول ذلك الوقت، خمس حروبٍ في غزّة: «كان القصف يأتي من كلّ حدب وصوب. انهمرت علينا القنابل من كلّ مكان. وكنّا خائفين من أن يموت والدانا». وهذه قصّة سامر، البالغ من العمر أحد عشر عامًا: «قرب إحدى المستوطنات، قتل الجنود أبي. زعموا أنّه كان عنيفًا... لم أفقد أهمّ شخص في حياتي وحسب، بل جاؤوا أيضًا ليستولوا على منزلنا. في البداية، أصبحتُ يتيمًا، ثمّ أصبحت بلا مأوى». «في العام الماضي، هاجم الجنود مدرستي ثلاث أو أربع مرّات. ألقوا الغاز المسيل للدموع وأطلقوا الرصاص الحيّ. لم يستطع العديد من المعلّمين والمعلّمات ومن زملائي التنفّس»، أخبرني فارس، البالغ من العمر اثني عشر عامًا.

هذه هي الطفولة في فلسطين.

***

ما هو مؤسفٌ أنّ هذا ليس هو الشيء الوحيد الذي ينتزع من الأطفال الفلسطينيّين طفولتهم. فالعنف الذي يشهدونه ويتعرّضون له ليس مفاجئًا ووحشيًّا وحسب، بل إنّه أيضًا – وعلى القدر ذاته – أمر منهجي. إنّه حدثٌ يندسّ في الحياة اليوميّة لكلّ شخصٍ ويحدّد معالمها. عندما كتبتُ التقرير عن الطفولة، أحصينا أيضًا الأطفال المصابين والمشوّهين إلى الأبد، وأطفالًا مات آباؤهم وأمّهاتهم، أو أصيبوا أو شُوّهوا، وجميع الأشخاص، بالغين وقاصرين، الذين عانوا من الصدمات. هذه الأرقام تئد الأنفاس، لكنّها في الوقت نفسه لا تعني شيئًا. لدرجة أنّ الفلسطينيّين ما انفكّوا يثورون لسنوات ضدّ مخاطر الاستخفاف بالإحصاءات. نتذكّر هنا منظّمة للكتّاب الشباب في غزّة، أسّسها الأكاديمي والشاعر رفعت العرعير، وقد سُمّيت «لسنا أرقامًا»*. أنشئت هذه المنظمة للتصدّي لمحاولات تدمير جميع مظاهر الثقافة الفلسطينيّة في غزّة: الصورة والآمال والحياة، وذلك كنتيجةٍ من نتائج الاحتلال الدائم والصراع المتواصل.

هناك، تبدو حياة الفلسطينيّين بأسرها – وخاصّةً الصغار منهم – على حافة التلاشي. تأمّلوا وحسب، هذا الحيّز الوجودي من العالم الذي يشغلونه.

بالنسبة إلى أيّ طفل، يجب أن يكون المنزل مركزًا للطفولة، وملاذًا آمنًا ينمو فيه، حيث يستكشف العالم وحيث يحلم. بدلًا من ذلك، لا يملك الأطفال في فلسطين أيّ ضمانة، فيبقون في خطرٍ حتى بين جدران البيوت. مصادرة المنازل وهدمها صارت أداةً في يد الاحتلال الإسرائيلي، ومَن ينشأ في هذا الواقع يُجبر على العيش في حالةٍ من «عدم الانتماء» القسريّة والمفروضة من الخارج. كلّ قطعة طوبٍ تُنزع من منزل أو تُسوّى بالأرض

ليست مجرّد بيتٍ سُحق، بل هي قطعةٌ من الحياة. من التاريخ ومن الماضي الذي يجري محوه. إنّها مستقبل مُصادَر. يترك زوالها ندوبًا لا تُمحى في أرواح الصغار

* بدأت الفكرة عندما فقد أحمد الناعوق أخاه أيمن خلال الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزّة عام 2014 فأصابه اليأس والاكتئاب إلى أن نصحته صديقته الأميركيّة بالكتابة عن أخيه فأسّس هو وبام بيلي ورفعت العرعير مشروع الكتابة باللغة الإنكليزيّة لتصل قصص أهل غزّة وحياتهم إلى كلّ العالم. فتبنّى المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان ومقرّه جنيف المشروع، ووفّر لكلّ مشاركٍ برنامجًا تدريبيًّا لمدّة ستة أشهر مع مرشدين وكُتّاب أجانب وعرب.

أكثر من الكبار. كلّ هذا العنف يُخلّف جرحًا عميقًا، وخسارةً تتجاوز الماديّات لتُحطّم الروابط والمجتمعات، وتسبغ براءة المراهقة بظلال الريبة الثقيلة.

في الواقع، لا يقتصر الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، المُصمّم في الأساس على قاعدة القضم التدريجي (وغير القانوني) لما بقي من الأرض الفلسطينيّة، على ذلك وحسب، بل يعمل على خلق عالمٍ من القمع، حيث تعاق إمكانيّات النموّ والتطوّر. يُدفع الأطفال وأسرهم إلى براثن الفقر، ويُحرمون من الموارد الأساسيّة كالماء والكهرباء. ويمنعهم الفصل المكاني والقيود التي يفرضها الاحتلال من الحصول على التعليم والرعاية الطبّية الكافيين، سواء في غزّة (حتى قبل الهجوم الحالي) أو في الضفّة الغربيّة.

انطلاقًا من هنا، يحضر الاحتلال في كلّ جانب من جوانب الحياة الفلسطينيّة. ففي الأرض المحتلة، تُشرّد عمليّات الهدم العقابيّة والإخلاء القسري العديد من العائلات: أشبه بحكمٍ على الأطفال أن يعيشوا طفولةً من القلق وعدم اليقين. وقد أدّى حصار غزّة – الذي كان بمثابة سجن مفتوح لمدّة ستّة عشر عامًا، قبل تدميرها بالكامل – بالإضافة إلى الهجمات العسكريّة المستمرّة منذ سنواتٍ طويلة، إلى تدمير البنية التحتيّة الأساسيّة، وإلى إجبار ملايين الأشخاص على الاعتماد على المساعدات الإنسانيّة. أجيالٌ كاملة من الأطفال شهدت فقدان المنازل والأراضي والعائلات والأصدقاء. ليس ذلك وحسب، بل ما انفكّوا يعانون من الصدمة المتواصلة: رؤية شعبهم يُهان باستمرار ويُحرم من سبل العيش والكرامة.

أطفال فلسطين اليوم، الذين يمثّلون ما يقرب من نصف السكّان، عاشوا حيواتهم بأكملها تحت الاحتلال، مثل آبائهم الذين سبقوهم. أجيال بأسرها حُرِمَت من الحقوق الأساسيّة، كتقرير المصير والحياة والأمن والكرامة والتنمية، من نظامٍ يحوّل طفولتهم كلّ يومٍ إلى نضالٍ من أجل البقاء. يكبر هؤلاء الأطفال وهم محاطون بالعنف، فيبلغون العنف قبل أن تبلغهم أيّامهم. يرون منازلهم تُهدم، ومدارسهم تُدمَّر، وأراضيهم تُصادَر. صور الأطفال وهم يتنقّلون بين أنقاض منازلهم، يلتقطون الألعاب وقطع الكتب التي نجت من الجرّافات، أو يواسون آباءهم الذين أحنوا ظهورهم، محفورةٌ في ذاكرتي.

قبل عامين، وفي ذلك الصيف الذي يبدو الآن بعيدًا جدًّا، قرّرتُ، بالإضافة إلى عقد مجموعات التركيز مع الأطفال، إجراء مقابلات مع بالغين كانوا قاصرين في زمن الانتفاضتين الأولى والثانية، وقد أصبحوا منذ ذلك الحين آباءً أو حتى أجدادًا. أحد الأمور التي برزت بوضوح، يتمثّل بالتزايد المستمرّ لعدوانيّة الاحتلال. قال أحمد: «على الأقلّ، عندما كنّا صغارًا، في زمن الانتفاضة الأولى، كنّا نستطيع الركض نحو التلال. الآن، هناك الجدار. تحاصرنا نقاط التفتيش. لم يعد لدينا حتّى مساحةٌ كافية».

على مرّ السنوات، اتّسعت المستوطنات الإسرائيليّة بلا هوادة. منذ اتفاقيّات أوسلو في التسعينيّات، مرورًا ببناء الجدار في أوائل الألفيّة الثانية، وصولًا إلى العنف المستمرّ في الضفّة الغربيّة، تقلّصت المساحة التي يمكن لهؤلاء الناس العيش فيها تدريجًا، حتّى تفتّتت.

حُرم الأطفال حتّى من مساحة الخيال، محبوسين في قوقعة. وهكذا، أدركتُ أمرًا واضحًا آخر عن الاحتلال: البُعد الجمالي للعيش في السجن. إنّ النشأة في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي تشبه النشأة في سجنٍ بلا سقف. سجنٌ مُكوَّن من نقاط تفتيش وأبراج مراقبة ومستوطنات تُطلّ على ما بقي من الأرض، يحيط به حرّاس مُسلَّحون يُعيدون فرض النظام كما يتخيّلونه، على كلّ تهديدٍ يتخيّلونه. العنف الذي يُعاني منه المرء في هذه المساحة ليس جسديًّا وحسب، بل عنفٌ نفسي أيضًا. أفكّر في الأطفال الذين عرَفتهم. وأتخيّل أنّ الكثير منهم سينتهي المطاف بهم خارج أرضهم، حيث لا أفق يلوح، وحيث تخنق وحشيّة الاحتلال أحلامهم.

في هذا السجن المفتوح تحت السماء، يعيش الكبار والصغار الحياة كما لو أنّها قدرٌ يجب أن يُقضى، إذ تُعدّ أرقام اعتقال القاصرين الفلسطينيّين مُرعبةً أيضًا. منذ عام 2000 حتّى عام 2023، جرى احتجاز واعتقال وسجن أكثر من ثلاثة عشر ألف قاصر؛ ومنذ تشرين الأول/ أكتوبر 2023، تجاوز عدد القاصرين الذين اعتُقلوا وسُجنوا الثلاثمئة. تُنفَّذ الاعتقالات تحت أيّ ذريعة، كما تسرد عبير، البالغة من العمر أربعة عشر عامًا: «كان هناك شابٌّ فلسطيني يسير في الشارع. أوقفه الجنود، فتّشوه وضربوه، ثمّ اعتقلوه في النهاية لأنّه رفض خلع بنطلونه أثناء التفتيش». ولأنّني شهدتُ بنفسي عددًا لا يُحصى من الانتهاكات والمضايقات

المماثلة ضدّ الفلسطينيّين، على يد الجيش أو الشرطة الإسرائيليّين، لم يكن هذا الرعب جديدًا عليّ. لكن، عندما كان هؤلاء الشبّان والشابّات يروون القصص، كان الوقع أشدّ إيلامًا.

خلال الفترة التي أجريتُ فيها اللقاءات مع أطفال فلسطينيّين وفلسطينيّات، كان العنف عند نقاط التفتيش، وخلال عمليّات الدهم المسلّحة التي يشنّها الجيش الإسرائيلي، ليلًا ونهارًا، في القرى الفلسطينيّة، أمرًا شائعًا. لقد أقرّ الجنود الإسرائيليّون أنفسهم، كما فعل أعضاءٌ في منظمة «كسر الصمت» على سبيل المثال – وهي منظمةٌ تضمّ جنودًا إسرائيليّين سابقين يندّدون علنًا بانتهاكات الجيش في الأراضي المحتلة لرفع مستوى الوعي بتأثير الاحتلال لا على الفلسطينيّين وحسب، بل على الجيش أيضًا – بتلقّيهم الأوامر بغزو القرى، ليلةً بعد ليلة، وأحيانًا لأسابيع، إن لم يكن لأشهر. كانت مهمّتهم الأساسيّة استنزاف السكّان لدفعهم إلى المغادرة، تحت ذريعةٍ تُدعى: «الأمن الإسرائيلي».

***

إلى العنف المنهجي واليومي الذي يؤثر على المنازل ويهدّد سلامة وكرامة الأطفال وأسرهم، يجب أن نضيف عنف الحروب التي تندلع، ومجازر المستوطنين المسلّحين (التي تتزايد في الضفّة الغربيّة)، والهجمات العسكريّة.

يُعتقل مئات الأطفال والشباب بتعسفٍ كلّ عام، أو يُشوَّهون أو يُقتلون. يعانون من صدماتٍ جسديّة ونفسيّة عميقة، غالبًا ما تُترك من دون علاجٍ أو متابعة.

وعند التدقيق، نجد أنّ الحماية لجميع الفلسطينيّين، بمن فيهم السكّان الأكثر شبابًا، حلمٌ بعيد المنال: لا مؤسّسات توفّرها ولا أيّ مكانٍ آخر. ينشأ الأطفال وهم يتعرّضون لعنفٍ مستمرّ، يعاني منه المجتمع بأسره. ثمّة «تروما» مرعبةٌ تنتقل عبر الأجيال، وقد عرفتها عن قرب، عندما التقيت بالشباب الذين تعرّضوا للاعتقال. كانوا يرزحون تحت الصدمة. حتى أولئك الذين يُعاد تأهيلهم لاحقًا، ويصبحون في وضعٍ أفضل نسبيًا، يحملون هذه الندوب العميقة إلى الأبد. يعود البعض إلى المدرسة، لكنّ الأمر صعبٌ للغاية. خروجك من السجن مبكرًا يعني أنّك قلت شيئاً هناك لم يكن يجب أن تقوله. ونتيجةً لذلك، ينبذك المجتمع. أمّا إن قاومتَ لستّة

أشهر، أو لسنة، أو سنتين، فستُعدّ بطلًا حينها. أمّا إذا خرجت، فهذا يعني أنّ والديك تكبّدا ثمن إطلاق سراحك.

لن يمكنك النموّ في نظامٍ كهذا. عندما يسأل الناس: «من أين يأتي العنف؟»، لكي تفهم، عليك أن تضع الأحكام المسبقة جانبًا، وأن ترى الأمور بعدسةٍ أوضح، ومن منظورٍ أوسع.

مَسّتني القصص التي سمعتها خلال الاجتماعات عبر الإنترنت. أمّا عام 2023 فكان عامًا عنيفًا للغاية، وقد شهد ما لا يقلّ عن سبعة عشر اعتداءً من المستوطنين على القرى الفلسطينيّة، انتهت بحرق سيّارات ومنازل، ومقتل فلسطينيّين. أتذكّر صبيًّا في الثانية عشرة من عمره فقد شقيقته إثر هجوم عسكري على جنين في صيف عام 2023. كانت المدينة تحت الحصار لأيّام، وقد قتل الجيش الإسرائيلي شقيقته في فناء المنزل.

كان الجميع يتحدّثون عنها، وعن الفراغ الذي تركته في مخيّم اللاجئين حيث نشأت، وفي «مسرح الحرّية» بجنين. انتمت إلى ذلك المسرح، الذي اتّخذ اسم الحرّية، ولم يكن سوى مؤسّسةٍ تتيح للأطفال استكشاف إبداعهم، والتعبير عمّا في داخلهم، في منطقةٍ تشهد توتّرًا مستمرًّا.

«كم من الألم يمكن أن تحتمل أجسادٌ صغيرةٌ كهذه...» فكّرتُ بينما كان ذلك الصبيّ يروي بوضوحٍ وهدوء، قصّة شقيقته التي قُتلت، تقريبًا أمام عينيه.

كانت العائلة جالسةً إلى طاولة العشاء في المنزل، عندما أطلق جنديٌّ إسرائيلي النار على الطفلة في مؤخّرة رأسها... كانت ليلى محمّد أيمن الخطيب في الثانية من عمرها. حدث ذلك في كانون الثاني/ يناير 2025.

كم صحيفةً غطّت الحدث؟ لماذا لا تجد حياة (أو موت) الفلسطينيّين مساحةً أو صوتًا؟

بدلًا من ذلك، تزرع إسرائيل بذور الكراهية ضدّ الفلسطينيّين، ويبدو لي من غير المعقول أنّ الأمر لا يزال غير واضح.

ومن الأمور الأخرى التي أثرت فيّ بشدّة خلال تلك الأمسيات الصيفيّة عام 2023، كان الانضباط والمرونة والاحترام المتبادل الذي ساد اللقاءات مع مجموعات التركيز في غزّة. كانت هناك مجالس أطفال، ومنظّماتٌ غير حكوميّة،

أنشأت مساحات اجتماعات حيث يمكن للأطفال مناقشة الأوضاع التي يمرّون بها، والحرمان الذي يعانون منه. أتذكّر حوارًا بين فتاتين صغيرتين كانتا تتناقشان بحساسيّة. قال إحداهما: «صحيح أنّ الإغلاق والحصار مروّعان للجميع، ولكن على الأقل، أنتِ، المصابة بسرطان الدم، تمكّنت من الذهاب إلى الضفّة الغربيّة ورؤية الجبال! أنا لم أرَ الجبال في حياتي».

موضوعٌ آخر ظهر كثيرًا في حواراتي مع الأطفال: المرض. ففي غزّة، على سبيل المثال، حتى قبل الإبادة الجماعيّة، كانت الأرض ملوّثة، ومكتظّةً بالسكّان، ومليئةً ببقايا الذخائر غير المنفجرة، والمياه فيها لا تصلح للشرب. كان التلوّث منتشرًا في كلّ مكان. وكان عدد المصابين باللوكيميا والسرطان، حتى بين القاصرين، مرتفعًا للغاية. وثّقت عدّة تقارير من الأمم المتّحدة ومنظمات إنسانيّة أخرى حالات مأساويّة لأطفالٍ في غزّة، كانوا لا يزالون في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم، ممّن أُجبروا على السفر بمفردهم لتلقّي الرعاية الطبّية في الضفّة الغربيّة. ولم يُسمح لآبائهم بمرافقتهم. تُعدّ هذه القيود غيضًا من فيض التدابير الأمنيّة الأوسع التي تتّخذها إسرائيل ضدّ سكّان غزّة منذ عام 2007، والتي تخلّف أثرًا مدمّرًا على جميع مظاهر الحركة بين الفلسطينيّين. افتقرت غزّة إلى مرافق رعايةٍ صحّية كافية، ما أجبر العديد من العائلات على البحث عن الرعاية الطبّية خارج القطاع. لم تُعرّض هذه الممارسات سلامة الأطفال للخطر وحسب، بل تسبّبت كذلك بضغوطٍ نفسيّة هائلة على المرضى الصغار وعائلاتهم، الذين أُجبروا على الانفصال بعضهم عن بعض في لحظات الضعف الشديد. لكنّ الفلسطينيّين عادةً ما يعرفون أشدّ درجات التضامن في ما بينهم: وجدوا دائمًا من يرحّب بهم: صديق، قريب، أو أحد المنتمين إلى منظّمةٍ إنسانيّة.

هذه هي الطفولة في فلسطين.

بالأحرى، كان الأمر كذلك عندما كان الأطفال الذين تحدّثت إليهم جميعهم على قيد الحياة، وعندما كانت غزّة تنبض بالحياة. لم يبقَ شيءٌ لم تُمزّقه الحرب: من المنازل إلى العائلات، وصولًا إلى حيوات الأفراد العاديّة. غزّة، التي تحدّث عنها هؤلاء الأطفال عام 2023، لم تعد موجودة. وبينما أنا أكتب هذه الصفحات، جزءٌ كبير من الضفّة الغربيّة التي عرفتها يتعرّض للتدمير. ومع أنّ الناجين من

المجزرة يريدون إعادة الإعمار، فإنّ ما بقي هو الأنقاض. لم ينقشع الغبار عن ركام غزّة بعد. وبعد أكثر من خمسمئة يومٍ من القصف شبه المتواصل، لا تزال القنابل تنهمر كالمطر.

في خضمّ الإبادة الجماعيّة الفلسطينيّة التي بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر 2023، وخلال مؤتمرٍ عقدناه معًا في لندن، سمعتُ الدكتور غسّان أبو ستة يقول: «يصل الأطفال أمواتًا، ممزّقين إربًا، مصابين بجروحٍ بالغة. سألتُ عن تاريخهم الطبّي، ولم يكن أحدٌ يعلم شيئًا، إذ لم يكن أهلهم هم الذين أسعفوهم. فقد قُتل آباؤهم وأمّهاتهم».

هذه أيضًا هي الطفولة في فلسطين.

***

النشأة في فلسطين تعني أن تكون طفلًا يعيش في مناخٍ من الخوف الدائم وانعدام الأمن، وأن تكون محاطًا بعنف المستوطنين والجنود. وضعٌ يُجبر المرء على طرح أسئلةٍ مؤرّقة.

لماذا يحدث كلّ هذا؟ هل نحن بشرٌ أقلّ من الآخرين؟

انطلاقًا من هنا، لم يكن مُستغربًا أن يتصرّف الأطفال في مجموعات التركيز كبالغين، وأن يُطالبوا بحقوقهم بقوّة، حتّى عندما كانوا يتحدثون إليّ. قلتُ لهم: «انظروا، أنا هنا لأستمع إليكم، هذه هي وظيفتي. أريد حقًا أن يحمل هذا التقرير صوتكم، وأن يقول ما تريدون أنتم قوله. لا أعرف إن كان هذا سيُغيّر أيّ شيء...».

في النهاية، ازداد الأمر سوءًا. أسوأ بكثير ممّا كنّا نخشاه أو حتى نتخيّله. «... لكن هذا وعدٌ بيني وبينكم».

أتذكر أنّه في ذلك الصيف أيضًا، كانت المرّة الأولى التي شعرتُ فيها بمعنى أن يسألني ابني وابنتي: «لماذا تقضين كلّ هذا الوقت مع الأطفال عبر اللابتوب، لا معنا؟». كنت أعرف كم أنّ الأمر بدا غريبًا لهم. حاولتُ الإجابة، وكنت على يقينٍ تقريبًا من أنّهما لن يفهما. ولكن على الأقلّ، لعلّها ذكرى يمكن العودة إليها من المستقبل: «لأنّني لو كنتُ أمًّا لطفلٍ يعيش في وضعٍ كوضع هؤلاء الأطفال الذين أتحدّث معهم عبر اللابتوب، لتمنّيتُ لو كان هناك من يُساعدني. ولو كنتُ مكانها،

لظننتُ أنّ لأطفالي، الذين يعيشون في فلسطين، الحقّ في نفس الأشياء التي يتمتّع بها أطفال الأمم الأخرى. أولئك الذين يقضون اليوم على الشاطئ، وهم يجولون تحت الشمس شبه عراة، وأكثر ما يخشونه هو أن يغرز قنفذ البحر شوكةً في قَدمهم، أو أن يتشاجر الواحد منهم مع صديقٍ له حول من يصل إلى العوّامة أولًا».

كان الأمر، كما لو أنّ الحياة على ذلك اللابتوب تنقسم إلى جانبين – من جهة كان أولئك الأطفال الأذكياء المُستعدّون جيّدًا، ومن جهةٍ أخرى كان أولئك الذين يستمتعون بعطلاتهم المريحة – وتسنّى لي أن أسمع الأصوات في الداخل والخارج. وفي بعض الأيّام، كان التمييز بين الجانبين صعبًا.

بعد أكثر من عامٍ بقليل، كنت في منزلي بتونس. كان الوقت عصرًا. وخلف النافذة، على بُعد أمتارٍ قليلة، كان جوردانو يقفز بالحبل وهو يضحك. في الوقت ذاته، كنت أشاهد صورًا على اللابتوب لأمٍّ من غزّة. كانت تركض وتصرخ يائسة. وكانت نظرها مصوّبًا نحو منزلها. هناك، حيث كان ابنها يحترق حيًّا.

هذه هي الطفولة في فلسطين.

يجب أن تكون حماية الطفولة محور أي نقاش يدور حول ما يُسمّى «القضيّة الفلسطينيّة»، وذلك لضمان حقّ كلّ طفلٍ في النموّ والحماية، في إطارٍ يوفّر الأمان والكرامة والحرّية.

بدلًا من ذلك، وفي ظلّ هذه الظروف، ليس الأطفال الفلسطينيّون وحدهم هم الذي ينشؤون في كنف نظامٍ ظالمٍ تمامًا، يُعرّضهم للعنف، بل الأطفال الإسرائيليّون أيضًا. في نهاية المطاف، هم أيضًا ضحايا. ذلك أنّهم – كما تُجادل عالمة اللغويّات التاريخيّة الإسرائيليّة نوريت بِلِد-إلهانان Nurit Peled-Elhanan – يُربَّون منذ الصغر على الخوف من الآخرين والشكّ فيهم، وعلى التطبّع مع العنف، وتبنّي رؤيةٍ للعالم تقوم على الهيمنة العنصريّة وعلى القمع، مدفوعةً بأيديولوجيّة قادتهم السياسيّين، بل وحتّى آبائهم في كثيرٍ من الأحيان، وهذه التربية لم تكن خيارهم.

لكنّ الأطفال يكبرون، وأطفال اليوم هم الكبار غدًا. وإن كان هناك شيءٌ واحد تعلّمنا إيّاه أجيالٌ من الفلسطينيّين، فهو أنّ شعبهم لا يرضخ للاحتلال، بل يقاوم بكلّ ما أوتي من قوّة. لقد فعلوا ذلك ضدّ البريطانيّين الذين كانوا يبيعون أراضيهم، بين عامي 1936 و1939. وفعلوا ذلك في أواخر الثمانينيّات، مع اندلاع ثورتهم

الأولى ضدّ الاحتلال (الانتفاضة الأولى)، عندما أشعل مقتل أربعة فلسطينيّين عقب حادث تصادمٍ مع شاحنةٍ عسكريّة إسرائيليّة في مخيّم جباليا للّاجئين، في قطاع غزّة، شرارة تظاهرات عمّت جميع أنحاء الأرض المحتلة. وفعلوا ذلك خلال الانتفاضة الثانية التي اندلعت عام 2000، والتي، على عكس الأولى، شابها عنفٌ مميت، بما في ذلك من جانب الفلسطينيّين. استمرّت المقاومة سلميّةً عمومًا، ولكن ليس دائمًا. وللأسف، كلّما كان القمع عنيفًا ومكروهًا، ازدادت المحاولات التي تهدف إلى التخلّص منه قوّةً.

لطالما أراد الفلسطينيّون سلوك طريق التحرّر من الاحتلال ومن الفصل العنصري. وقد اتّخذ هذا التصميم الجماعي شكلًا ملموسًا وحاسمًا، وعلى نحوٍ متزايد مع مرور الوقت: على سبيل المثال، خلال حركة الاحتجاج الكبرى عام 2021 التي اندلعت ردًّا على موجةٍ أخرى من المضايقات والانتهاكات التي استهدفت سكّان القدس الفلسطينيّين جماعيًا. قاد هذا الاحتجاج العديد من شباب الشيخ جرّاح – وهو الحيّ الذي كنت أعيش فيه أيضًا – ومن بينهم شقيقان توأمان؛ محمّد ومنى. بعد سنوات، عندما أتيحت لي الفرصة للقراءة عنهما، بدا الوجهان مألوفين، لكنّني حينها لم أستطع أن أربط بينهما وبين أيّ شيءٍ محدّد. لاحقًا، عندما رأيت صور محمّد الكرد في طفولته تذكّرته فورًا: كان ذلك الصبيّ الصغير الذي جاء ليلعب، ويقطف أشجار التوت أمام منزلنا. إنّه هو نفسه، الذي كان، حتى في صغره، وبلغته الإنكليزيّة المتقنة، قادرًا على مواجهة أجنبيّةٍ في الثلاثين من عمرها.

محمّد الكرد اليوم صحافي وكاتب، وأحد أقوى الأصوات الفلسطينيّة المدافعة عن شعبها. يحضرني الآن قولٌ له: «لم أكن ضحيّةً، حتّى أخبرني العالم».

في فلسطين، الطفولة قصّة ضحايا. قصّة خوف، قصّة قاصرين جُرِّدوا من حقّهم في النموّ بأمان وأن يحظوا بالحماية، ذلك رغم أنّ العديد من الآباء يبذلون قصارى جهدهم لضمان حياةٍ هادئة قدر الإمكان لأطفالهم، وتوفير الظروف المناسبة لما يمكن عدّه حياةً طبيعيّة، كما في فيلم «الحياة جميلة»*، حتى في واقعٍ لا يمتّ إلى الجمال بصلة. واقعٌ، أصبح خلاله العديد من الأطفال والشباب الذين قابلتهم خلال

* فيلم إيطالي(1997) La vita è bella من إخراج وبطولة روبرتو بنيني، فاز بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي نسخة عام 1999. يروي قصّة أب يهودي إيطالي، يستخدم روح الدعابة لحماية ابنه من فظائع معسكرات الاعتقال النازيّة.

تجربتي الشخصيّة والمهنيّة في فلسطين... في عداد الأموات. واقعٌ يُمكن أن تُطفأ فيه حياة إنسان بينما لا يزال في السادسة من عمره، داخل سيّارةٍ ثقبتها مئات الرصاصات، كما حدث مع هند.

اليوم، سُمّيت منظمةٌ باسمها، تلتزم اتّخاذ إجراءاتٍ قانونيّةً ضدّ المسؤولين عن جرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانيّة في فلسطين، مع المتواطئين فيها والمحرّضين عليها. إنّها مؤسّسة هند رجب.

هذا حدثٌ شديد الأهمّية، ولكنّه لا يمحو الموت والمعاناة. ولا يمحو الخوف.

فكما قالت لي عوادية، ذات الأربعة عشر ربيعًا: «الخوف من الموت لا يمنعك من الموت، بل يمنعك من الحياة».

هذه هي الطفولة، في فلسطين.

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

أبو حسن

عواقب الاحتلال... ما هي وكيف تكون؟

منازلنا لآخرين، والنساء أرامل.
حجارةٌ متناثرة على مداخل الطرقات.
فرقة CCCP الإيطاليّة – من أغنية «فلسطين»

في القدس، يُعدّ أبو حسن شخصيّةً معروفة ومحترمة. كان أول فلسطيني التقينا به أنا وزوجي ماكس عند وصولنا إلى المدينة المقدّسة، خلال مقابلتي الثانية مع القسم القانوني في الأونروا (وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيّين) من أجل الوظيفة الجديدة... التي ستغيّر حياتي إلى الأبد. بعد انتقالنا إلى هناك، صرنا نلتقيه بانتظام. كان مرجعًا أساسيًا خلال العديد من التجارب وفي كثيرٍ من الخيارات. مع ذلك، لا أتذكّر اسمه الحقيقي. كان الجميع ينادونه أبو حسن.

في المشرق العربي، تُعدّ إضافة كلمة «أبو» أو «أمّ» قبل اسم الشخص طريقةً للدلالة على الانتقال من المراهقة إلى النضج، الذي عادةً ما يُميَّز بوجود الأطفال (واكتساب اسم الابن أو الابنة الأول)، لأنّ «أبو» تعني «أب» و«أم» وتحمل المعنى الذي تشير إليه. على سبيل المثال، يمازح أصدقاؤنا العرب ماكس بمناداته «أبو ليلى»، ويسمّونني بدوري «أم ليلى».

زرنا القدس لأول مرّة في 2010. وقد انتهزنا أنا وماكس – وكلانا مسافران فضوليّان – فرصة زيارة المدينة. كانت لدينا فكرةٌ قطعًا، لكنّنا لم نعرف ما الذي كان ينتظرنا، لدرجة أنّ أول ما فعلناه كان الذهاب في جولةٍ تقليديّة في القدس

القديمة، برفقة مرشدين سياحيّين إسرائيليّين أخذونا لرؤية الحائط الغربي، والقدس تحت الأرض، وسلوان*...

أذكر أنّنا، هناك في سلوان، زرنا جزءًا من المدينة تحت الأرض. وفي لحظةٍ ما قال لنا أحد المرشدين: «أترون؟ لا تزال آثار الخروج** ماثلةً على الأحجار». كنّا متشكّكين للغاية؛ فقبل مغادرتنا، كان ماكس قد قرأ كتاب «اختراع الشعب اليهودي» لشلومو ساند***. وفي ذلك اليوم، على الغداء، قضينا الوقت كلّه ونحن نفكرّ إلى أيّ درجةٍ يستخدم الإسرائيليّون هذه السرديّة الأركيولوجيّة كجزءٍ من «العمل الاستعماري»، في محاولةٍ لإثبات وجودهم هناك بالفعل قبل ألفي عام (وآنذاك كان ما يحيل إليه مصطلح «العمل الاستعماري» مجرّد مفهومٍ غامض إلى حدٍّ ما). يُعدّ وجود اليهود في أرض إسرائيل التوراتيّة، أي قبل ألفي عام، إحدى الحجج الرئيسيّة المُستخدمة للدفاع عن حقّ إسرائيل كدولةٍ لليهود وحدهم، الذين عادوا عام 1948 إلى الأرض التي طُردوا منها قبل نحو تسعة عشر قرنًا. بطريقةٍ ما، وبالنسبة إلى الكثيرين، هذا يمكن أن يبرّر الاحتلال المستمر، وجميع الفظائع الأخرى التي تُرتكب يوميًا منذ عقود ضدّ الشعب الفلسطيني، استنادًا إلى فكرةٍ مزعومة: «لقد عدنا للتوّ، والآن اذهبوا جميعًا أيّها المغتصِبون».

---

* حيّ فلسطيني يقع جنوبيّ المسجد الأقصى في القدس الشرقيّة، يُعدّ من أقدم أحياء المدينة وأكثرها أهمّيةً من الناحية التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة. بعد نكبة عام 1948، استقبل مئات العائلات الفلسطينيّة التي هجّرتها قوات الاحتلال من غرب القدس ومناطق فلسطينيّة أخرى. وفي عام 1967، احتلّت إسرائيل القدس الشرقيّة وفرضت سيطرتها على سلوان، ومنذ ذلك الحين بدأ الحيّ يواجه محاولات ممنهجة لتهويده، عبر مشاريع استيطانيّة، وحفريّات أثريّة تحت منازله، ما تسبّب بتصدّع بيوت الكثيرين. خلال الانتفاضتين الأولى والثانية، كان لسلوان دورٌ بارز في المقاومة الشعبيّة، سواءً عبر التظاهرات أو المواجهات مع قوّات الاحتلال، ومنذ بداية الألفيّة الجديدة، تصاعدت محاولات طرد العائلات الفلسطينيّة من بيوتها، تحت ذرائع ملفّقة. وقد برزت قضايا حيّ البستان ووادي حلوة داخل سلوان، حيث تقاوم عشرات العائلات أوامر الإخلاء، وسط دعمٍ شعبي وحقوقي واسع. يُعدّ سلوان اليوم رمزًا لصمود المقدسيّين في وجه التهجير القسري، وواجهةً بارزة للمقاومة المدنيّة في القدس إذ يجسّد معاناة المدينة وتشبّث أهلها بالأرض والهويّة.

** يُقصد بالخروج هنا، أو «الإكسودُس» (Exodus) حسب المعنى التوراتي، أي خروج بني إسرائيل من مصر كما ورد في سِفر الخروج في الكتاب المقدّس.

*** شلومو ساند هو مؤرّخ إسرائيلي وأستاذ في جامعة تل أبيب، اشتهر بموقفه النقدي من السرديّات الصهيونية. في كتابه «اختراع الشعب اليهودي»، يجادل ساند بأنّ فكرة «الشعب اليهودي» كوحدة إثنيّة متجانسة تعود إلى بناءٍ حديث استُخدم لتبرير المشروع الصهيوني، ويُشير إلى أنّ اليهود لم يُنفوا جماعيًا من فلسطين، بل إنّ أصولهم التاريخيّة متنوّعة. هذا الكتاب هو الجزء الأول من ثلاثيّة تضمّ «اختراع أرض إسرائيل» و«لماذا لم أعد يهوديًا»، حيث يواصل المؤرّخ نقد الروايات القوميّة الصهيونيّة، ويدعو لفصل الهويّة اليهوديّة عن المشروع السياسي الصهيوني، ولبناء دولة لجميع مواطنيها بدلًا من الدولة العِرقيّة.

كنّا نتناول الغداء في فندق القدس (وهو فندق آخر، يقع مقابل البلدة القديمة)، حيث بدأنا بالدردشة مع أحد العاملين هناك، وأخبرناه بمدى دهشتنا إثر الجولة التي قمنا بها للتوّ، وكيف بدت كأنّها نوعٌ من الدعاية السياسيّة التي تستند إلى الآثار. تلخّص ردّه علينا بإعطائنا بدائل، شارحًا أنّ الجولات مع مرشدين إسرائيليّين ليست الوحيدة المتاحة في القدس: نصحنا بالبحث عن أبو حسن، ومرافقته في إحدى الجولات البديلة التي ينظّمها.

كان أبو حسن على مقربةٍ منّا. فهو عندما لا يقوم بإحدى تلك الجولات، يقضي معظم وقته في مقهى «المهباش»، وهو مقهًى يحتلّ الطابق الأول في مبنًى تاريخي يستكين على بُعد خطوات من الفندق. بمجرّد دخولنا استقبلتنا رائحة المقالي والدخان. كان المكان مكرّرًا ومتوقعًا بالفعل، ومع ذلك شعرنا فورًا كأنّنا في منزلنا. وبعد فترة، في الواقع، سيصبح مكاننا المفضّل في القدس. سألنا عن أبو حسن، وعرّفنا عن أنفسنا. سألناه إن كان هناك متسعٌ لنا في جولةٍ خلال الأيّام المقبلة. في اليوم التالي، انطلقنا بصحبته.

في البداية، اصطحبنا إلى أماكن في القدس فرّق الجدار بين عائلاتها. هناك حيث يُضطرّ الأطفال إلى عبور أنابيب الصرف الصحّي للوصول إلى مدارسهم، بسبب الحواجز التي وضعها الإسرائيليّون. وكما في الجولة التي قمنا بها في اليوم السابق، أخبرنا بدوره عن كواليس الآثار. بفضله، التقينا بكاهنٍ على دراية بالأركيولوجيا، فشرح لنا بالتفصيل مدى التلاعب السياسي والأيديولوجي الكامن خلف تقديم الإسرائيليّين لسرديّتهم عن التاريخ. ثمّ أخذنا أبو حسن لرؤية المنازل التي كان المستوطنون قد صادروها لتوّهم من الفلسطينيّين، في حيّ الشيخ جرّاح، وطردوا سكّانها (بما في ذلك عائلة محمّد الكرد)، مع معظم الأثاث وكلّ ما كان بداخلها: ثلّاجات، بطانيّات، ملابس، دفاتر أطفال... وعندما وصلنا، خرج المستوطنون الذين كانوا يسكنون أحد المنازل المصادرة، وبدأوا بإلقاء الأشياء علينا، وهم يصرخون: «ابتعدوا! ابتعدوا!».

في نهاية الجولة، اصطحبنا أبو حسن جميعًا لتناول الغداء. إلى المهباش، بطبيعة الحال. وبينما كنّا نتناول الطعام، لاحظ صدمتي ممّا رأيناه، فسألني: «لكن

لماذا أنتم هنا؟ هل أنتم سيّاح؟». «جئت لإجراء مقابلة»، أجبته... «أتمنّى أن أنتقل إلى القدس للعمل مع الأونروا»، تابعت.

انفجر غاضبًا: «هؤلاء النسور من الأمم المتحدة! كان من الأفضل لو لم تكونوا هنا، لأنّكم لا تفعلون شيئًا. وجودكم لا يُحدث فرقًا، الشيء الوحيد الواضح منذ وجودكم هنا هو أنّ كلفة الحياة أصبحت أعلى على الجميع».

تأثّرتُ بما قاله لي، فرددتُ بعنف: «هذا ليس صحيحًا! لأنّه إن تمّ قبولي لهذه الوظيفة، أنا التي أعمل في مجال حقوق الإنسان، فهذا يعني أنّ المنظمة تريد منح هذا الأمر مساحةً أكبر».

لن أنسى أبدًا أنّه لم ينزعج كثيرًا من كلماتي؛ بل نظر إليّ مباشرةً، وسأل ببساطة: «لكن ما الذي تريدين فعله؟».

سؤال، ربّما، ما زلتُ، بعد كلّ هذه السنوات، أحاول أن أجد الإجابة عنه.

في غضون أسابيع قليلة، عُرِض عليّ المنصب الذي أجريتُ المقابلة للحصول عليه، وهكذا عدنا أنا وماكس إلى القدس، هذه المرّة لنستقرّ فيها. توجّهنا فورًا إلى المهباش، بحثًا عن أبو حسن، وقد كان موجودًا هناك كعادته. سواءٌ صيفًا أو شتاءً، وإن لم يكن الجوّ ماطرًا أو ثلجيًا، فإنّ أول ما تطالعه عند وصولك إلى المقهى هو قامته المرتسمة أمام ظلّه، بينما يدخّن النرجيلة ويلقي بصره نحو المدينة القديمة.

منذ ذلك اليوم، قمنا بالعديد من الجولات الأخرى بصحبته. بدأنا نتعرّف إلى التاريخ كما يرويه. ومن خلاله فهمنا الكثير عن الثقافة الفلسطينيّة. امتاز أبو حسن بكونه مقدسيًا، إذ كان يستطيع التنقّل بحرّيةٍ داخل فلسطين، وحتّى داخل إسرائيل. في الواقع، يُقسّم الفلسطينيّون وفقًا لأربعة أنظمةٍ مختلفة لتحديد الهويّة: الذين يحملون الجنسيّة الإسرائيليّة ويعيشون في إسرائيل (يُعرفون أيضًا باسم «فلسطينيّو 48» أو «عرب إسرائيل» وهو مصطلح يكرهه الفلسطينيّون)؛ سكّان القدس الشرقيّة الذين هم مقيمون دائمون لكن من دون جنسيّة إسرائيليّة؛ وإلى ذلك، يحمل الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة عمومًا بطاقات هويّة تصدرها السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة رسميًا، لكنّها تخضع فعليًا لسيطرة إسرائيل، التي تُنظّم إصدارها وتجديدها وإلغائها، وهذا يحدّ قدرتهم على التنقّل والعمل والحصول على الخدمات. لكلّ فئةٍ حقوقٌ مختلفة، ولا سيّما في ما يتعلّق بالسفر والحصول على

الخدمات والوضع القانوني؛ ولذلك، يختلف وضع سكّان القدس عن وضع سكّان غزّة أو الضفّة الغربيّة أو إسرائيل: «وفقًا للقانون الإسرائيلي، لا يُعدّ السكّان الفلسطينيّون في القدس الشرقيّة مواطنين إسرائيليّين ولا مقيمين في الضفّة الغربيّة. بدلًا من ذلك يحصلون على وضع إقامة دائمة، ولكنّه غير مستقرّ، يسمح لهم بالعيش والعمل في المدينة، والاستفادة من الخدمات الاجتماعيّة التي يقدّمها معهد التأمين الوطني الإسرائيلي والتأمين الصحّي الوطني، والتصويت في الانتخابات البلديّة، ولكن ليس في «الانتخابات الوطنيّة»، كما تشير منظمة العفو الدوليّة.

كنّا مع أبو حسن عندما – بعد عبور حاجزٍ إسرائيلي آخر – قمنا بأول جولةٍ في الخليل. في ذلك اليوم، شرح لنا كيف كانت المدينة مقسومة إلى قسمين: قسم يُسمّى H1، يخضع رسميًا للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، بينما يخضع القسم الآخر H2، للسيطرة العسكريّة الإسرائيليّة، مع إغلاق بعض أجزاء البلدة القديمة أمام الفلسطينيّين. يعيش أكثر من ثلاثين ألف فلسطيني في H2، مقابل سبعمئة مستوطن يهودي يتمتعون بمنطقةٍ خاصّةٍ في وسط المدينة. كانت رحلة الخليل جزءًا من جولة «توعية». وكانت المحطة الأولى خلالها الحرم الإبراهيمي، وهو مبنًى دينيٌّ مقسوم إلى قسمين، يُسمح فيه للمصلّين المسلمين واليهود بالصلاة على نحوٍ منفصل، ولكن للرمز نفسه: إبراهيم للمسلمين، وأبرام لليهود.

في عام 1994، دخل المستوطن الإسرائيلي الأميركي، باروخ غولدشتاين، إلى المكان المقدّس، مرتديًا زيًّا عسكريًا، ومسلّحًا برشاش. قتل تسعة وعشرين فلسطينيًا كانوا يؤدّون الصلاة، وأدّى الهجوم في المحصلة إلى إصابة نحو مئةٍ شخص. في النهاية، تمكّن أحدهم من إيقافه، وانتهى الأمر بمقتله. ولكن بالإضافة إلى المذبحة التي سبّبها اعتداؤه، أشعل هذا الحدث ثورةً في المدينة. فعقب اشتباكات مع الجيش الإسرائيلي، قُتل أكثر من عشرين فلسطينيًا وأربعة إسرائيليّين. ومع ذلك، لا يعتبر الإسرائيليّون ما حدث مجزرة، أو ببساطة، لا يتذكّرونها.

أقيمت جنازةٌ مهيبة لباروخ غولدشتاين، ولا يزال ضريحه في الضفّة الغربيّة المحتلة مزارًا دينيًا. على مدى عقود، ومنذ أيّام الاحتلال الأولى، شهدت فلسطين أهوالًا مشابهة لتلك الحادثة، لكنّ الكثيرين يرفضون المشاهدة، كما لو أنّهم يرفضون الفهم في الأساس.

إلى ذلك، تحتضن الخليل واحدًا من آخر مصانع الكوفيّات التي لا تزال تعمل. بعضها مدهشٌ وقد نُسِجَ يدويًا. تاريخيًا، كانت مدينة التجّار، وقد عُرِفَت أيضًا بصناعة السيراميك والزجاج المنفوخ. أمّا اليوم، فقد ترهّلت وأمست بلا روح.

شارع الشهداء، الشارع الرئيسي في الخليل، الذي كان يومًا ما مزدحمًا ونابضًا بالحياة، مغلقٌ منذ زمن طويل. يستطيع الفلسطينيّون العيش فيه لكن لا يمكنهم المشي بداخله. أغلق الجيش أبواب المنازل والمحالّ التجاريّة، فبنى الكثيرون جسورًا صغيرة للانتقال من منزلٍ إلى آخر. هناك، يقع النظر على مشاهد عبثيّةٍ إلى درجةٍ لا تصدّق: أطفال تأخّروا عن صفوف مدارسهم وهم يتسلّقون البوابات، بينما يتعرّضون للمطاردة والتوبيخ أو الضرب... من قبل الجنود.

***

نابلس. كانت تلك رحلةً أخرى قمنا بها مع أبو حسن في شمال الضفّة الغربيّة. في قلب كلّ مدينةٍ فلسطينيّة توجد «البلدة القديمة»، أي الجزء التاريخي المحاط بالأسوار. بيد أنّ نابلس فريدةٌ من نوعها لوقوعها في منطقة جبليّة. إنّها محاطةٌ بالجبال وشديدة الخضرة. تشتهر بزيت الزيتون الذي يُستخدم (إلى كونه زينًا) أيضًا في صناعة الصابون. كما تُعرَف بالكنافة، وهي حلوى فلسطينيّة تقليديّة شهيّة. «في نابلس، الطعام آسر»، هذا ما أخبرني به العديد من الأصدقاء في القدس. وكانوا على حقّ. تُصنع الكنافة من جبن الماعز الطريّ والحلو، وتُغطى بعجينة الكنافة الرفيعة، وهي نوع من عجينة الجلاش، على شكل خيوط طويلة جدًا، وتُرش بالعسل الساخن أو القَطر المُحلّي، أو ماء الورد، أو ماء الزهر. تُخبز في صوانٍ دائريّة ضخمة، ثمّ تُقطّع إلى ماسات أو مثلثات، وتُؤكل مع الشاي في غضون ساعةٍ من إعدادها. مجرّد مشاهدة تحضيرها كان تجربةً لا تُنسى.

في نابلس، أتيحت لنا أيضًا فرصة لقاء أشخاصٍ مختلفين والتحدّث معهم لفهم واقع ذلك المكان على نحوٍ أفضل، وبصورةٍ أكثر حميميّة. على سبيل المثال، التقينا ببعض السجناء السياسيّين السابقين الذين كانوا قد اعتُقلوا لمجرّد الاحتجاج على الجنود، أو لمطالبتهم بحرّية شعبهم، أو لمشاركتهم في ما يُسمّى الأنشطة السياسيّة.

أخبرونا أنّ رئيس بلديّة نابلس آنذاك، وهو عدلي يعيش، كان ينتمي إلى حركة حماس: حركة قوميّة إسلاميّة وُلدت في ثمانينيّات القرن الماضي، من الرحم السياسي لجماعة الإخوان المسلمين، وخلال الانتفاضة الأولى. على مرّ السنين، مثّلت حماس شكلًا من أشكال المقاومة المسلّحة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي ونظام الفصل العنصري، من خلال كتائب عزّ الدين القسّام – المسؤولة عن العديد من الهجمات المأساويّة ضد المدنيّين والجنود الإسرائيليّين، والتي بلغت ذروتها في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023 – ومن خلال حزب سياسي أيضًا. في 2006، فازت حماس في الانتخابات التشريعيّة الفلسطينيّة، متغلبةً على حركة «فتح»، الحزب المنافس الذي تأسّس أواخر خمسينيّات القرن الماضي بمبادرة من ياسر عرفات وعدد من المنفيّين الفلسطينيّين. وبعد رفض المجتمع الدولي لنتيجة الانتخابات، اندلعت اشتباكات عنيفة بين حماس وفتح، بلغت ذروتها في 2007، حين سيطرت حماس على قطاع غزّة، الذي لا تزال تسيطر عليه حتى اليوم برغم الدمار الواسع، بينما تحكم فتح الضفّة الغربيّة.

مع أبو حسن أيضًا، زرت لأول مرّة مخيّمي بلاطة وجنين للّاجئين، شمال الضفّة الغربيّة، حتى قبل أن أذهب إلى هناك برفقة الوكالة التي كنت أعمل بها. بعدما طُرد الفلسطينيّون من ديارهم عام 1948، على أيدي العصابات اليهوديّة التي اندمجت لاحقًا في جيش دولة إسرائيل الناشئة، أصبح هذان المخيّمان أكبر مخيّمَين للّاجئين في الأرض الفلسطينيّة المحتلة. انتقل جزء من النازحين الذين تدفقوا من منطقة الجليل أو ساحل حيفا إلى لبنان، لكنّ الكثيرين استقرّوا في بلاطة وجنين، منتظرين يوم عودتهم إلى ديارهم. عاش الجيل الأول غالبًا على هذا النحو، في الخيام، في انتظار العودة الحاسمة. أمّا الجيل الثاني، فهو جيل المقاومين والمقاتلين... الذين أدركوا أنّ أحدًا لن يساعدهم. لن يحرّرهم العرب ولا الأمم المتحدة من المخيّمات، فضلًا عن تحرّرهم من قبضة الاحتلال. وهكذا، أصبح هذا الجيل مهد المقاومة المسلحة في الضفّة الغربيّة.

تعود المقاومة الفلسطينيّة إلى الحقبة البريطانيّة. بدأت المقاومة ضدّ إسرائيل في أواخر خمسينيّات القرن الماضي، مع ظهور حركات مقاومة مختلفة، مثل فتح، والجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطيّة لتحرير فلسطين. ارتبطت

هذه الحركات لاحقًا بمنظمة التحرير الفلسطينيّة، أو اتّحدت معها، التي أصبحت نواة المقاومة المسلحة. كانت جميع هذه الجماعات متأصّلةً بقوّة في مخيّمات اللاجئين، ولهذا السبب تُعدّ بلاطة وجنين من بين أكثر المناطق استهدافًا من قِبل الجيش الإسرائيلي. لقد تمكنّا من مشاهدة كلّ هذا من الداخل، لأنّ مخيّم جنين للّاجئين لا يزال قائمًا، على الرغم من أنّ الجيش الإسرائيلي دمّر جزءًا كبيرًا منه خلال الانتفاضة الثانية، قبل أن يعيد الفلسطينيّون بناءه بتضحياتٍ جسيمة. منذ كانون الثاني/ يناير 2025، ما انفكّ المخيّم يتعرّض لقصفٍ إسرائيلي مكثّف. وفي غضون أسابيع قليلة، أصبح ما يقرب من عشرين ألف شخص... بلا منازل.

تحدّثنا طويلًا عن فلسطين بين الأمس واليوم مع أبو حسن، وقد أصبحنا مع مرور الوقت مقرّبين. كانت صداقتنا بمثابة عمليّة تطوّرٍ متبادل: دخل حياتنا ودخلنا حياته، محترمين بعضنا بعضًا، ولكن مع تقبّلنا أيضًا وجود أمورٍ لم نفهمها غريزيًّا في البداية. في الواقع، لم يصحبني أبو حسن لزيارة مستوطنات الضفّة الغربيّة وحسب؛ بل رافقني في جولةٍ حول المدينة وساعدني على فهم أيّ من المنتجات تأتي من المستوطنات، وأيّ منها لا يأتي من هناك، وما الذي يُستحسن شراؤه من المتاجر الكبرى لدعم الفلسطينيّين وما يُستَحسَن تجنّبه. بعد عام، أصبحت لديّ فكرةٌ واضحة عمّن هم التجّار العاديّون، ومن هم المتعاملون، أي أولئك الذين يتعاملون تجاريًّا مع الاحتلال الإسرائيلي، الذي يفرض بيع منتجات المستوطنات، ويمنع دخول البضائع الفلسطينيّة المُنتَجة في الضفّة الغربيّة إلى القدس (إلى غزّة؟ ولا في الأحلام!).

كان أبو حسن أحد الأصدقاء الذين استشرناهم عندما انتقلنا إلى القدس لنعرف إن كان من بين المنازل التي عُرِضت علينا للإيجار بيوتٌ من تلك التي سُلِبت من الفلسطينيّين عام 1948، حتى نتمكّن من تجنّبها.

بالإضافة إلى الجولات التي كان يصحبنا فيها في الأيّام الأولى خلال إقامتنا في فلسطين، كنّا دائمًا نجده في «المهباش»، ونتساءل إن كان المكان ملكًا له. سنكتشف لاحقًا، بمرور الوقت، أنّه ليس ملكًا له، وأنّه كان بمثابة منزله الثاني.

استمتعنا بالذهاب إلى هناك، وأحضرنا جميع أصدقائنا، على الرغم من أنّ الطعام لم يكن من أبرز ما يميّز المكان، وأنّ الشبّان الذين يتولّون خدمة الطاولات

لم يبدوا مناسبين تمامًا لهذه الوظيفة. استغرق الأمر منّي بعض الوقت لأفهم أنّه عندما يتصرّفون أحيانًا بطريقةٍ غير مرحبة، فثمّة سبب يكون خلف ذلك؛ أكثر من سبب في الواقع. ينحدر هؤلاء الشبّان من خلفيّاتٍ ثقافيّة تقليديّة، ويجدون أنفسهم مضطرّين لتقديم الكحول أو الابتسام في وجوه الذين يأتون إلى وطنهم من دون أن يفهموا الوضع الذي يعانون منهم، أو يظهرون احترامًا حقيقيًا لهم. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنّهم، جميعهم، يجيئون من ظروفٍ مروّعة، عانوا خلالها من صدمات نفسيّة كبيرة لا تزال ترافقهم. في الواقع، وعمومًا، لم يكن الأشخاص الذين عملوا طهاةً أو ندلًا في «المهباش» محترفين. كانوا شبابًا واجهوا تجارب صعبةً في حيواتهم، وقد أتاح لهم المكان فرصة.

يتعرّف العديد من الفلسطينيّين إلى الاعتقال في السجون الإسرائيليّة غالبًا منذ الطفولة وبدايات المراهقة. بين 1967 و2006، اعتقلت إسرائيل واحتجزت أكثر من ثمانمئة ألف فلسطيني، بما في ذلك القاصرون. وكما هو معلوم، تكون فرص العمل للمفرج عنهم من السجون الإسرائيليّة محدودة. لذلك، ومن باب المساعدة، لطالما تولّى أبو حسن رعاية شبّان منهم، فعملوا هناك، في المكان الذي أصبح مقرّه الرئيسي. وهذا ما يفسّر بقاء بعض عمّال المهباش في الظلّ.

بالنسبة إليّ وإلى ماكس وأصدقائنا وزملائنا المقرّبين، كان ذلك المكان ملاذًا آمنًا. وكنّا سعداء بكونه مكانًا نلتقي فيه، وقد رأينا في وجودنا هناك وسيلةً عمليّة لتقديم مساهمة متواضعة لمساعدة الفلسطينيّين في القدس الشرقيّة، في حياتهم الصعبة. لم يهتمّ أحدٌ إن كانت الخدمة حائزةً نجمة «ميشلان»*، أو إن كانت رائحة الطعام المقليّ ممزوجةً بالدخان المنبعث من النراجيل، وهي الذريعة التي كان بعض أصدقائنا يستخدمونها أحيانًا للاحتجاج، في محاولةٍ لنقلنا إلى مكان آخر: «لماذا نضطرّ دائمًا للذهاب إلى ذلك المكان الذي يلطّخ رائحة ملابسنا عند مغادرتنا؟»... ولكن، بطريقةٍ أو بأخرى، نجح ماكس دائمًا في إقناعهم بالبقاء.

* نظام تقييم «ميشلان» هو معيار دولي معتمد لتصنيف جودة الطعام في المطاعم، صادر عن «دليل ميشلان» الفرنسي منذ عام 1900. يعتمد النظام على منح نجمة إلى ثلاث نجمات للمطاعم المتميزة، استنادًا إلى معايير تشمل جودة المكوّنات، تناغم النكهات، تقنيّة الطهو، شخصيّة الشيف، والثبات في الأداء.

***

من بين المواضيع المتنوّعة التي دارت حولها محادثاتنا التي لا تنتهي، كان الاحتجاز بلا شك الموضوع الأكثر تكررًا. لاحقًا، وعند كتابة تقريري الثاني للأمم المتحدة – «الحرمان التعسّفي من الحرّية في الأرض الفلسطينيّة المحتلة: التجربة الفلسطينيّة خلف القضبان وما وراء ذلك» – أتيحت لي الفرصة لإجراء بحث أكثر تعمّقًا حول هذا الموضوع، ما أدّى إلى الكشف عن معلومات مروّعة. في هذا التقرير، الذي قُدّم إلى مجلس حقوق الإنسان في تمّوز/ يوليو 2023، عرّفتُ «الاحتجاز» بأنّه الحرمان التعسّفي والمنهجي من الحرّية: نظامٌ واسع النطاق للسجن، يخنق كلّ جانب من جوانب الحياة الفلسطينيّة. على الرغم من أنّ إسرائيل رفضت السماح لي بالدخول إلى فلسطين مرّةً أخرى، أجريتُ، لإعداد التقرير، تحقيقًا استمرّ أكثر من ستة أشهر، كشف كيف يحدث هذا التحكّم عبر مستويات ثلاثة. المستوى الأول هو المادّي (من خلال نقاط التفتيش والجدران وحصار غزّة، ما حوّل تلك المنطقة بأكملها إلى سجنٍ مفتوح). المستوى الثاني عبر البيروقراطيّة (وبنظام قيود يُنظّم ويحدّ من كلّ حركة). أمّا المستوى الثالث فهو رقمي (بفضل تقنيّات المراقبة التي تسجّل تحرّكات الناس).

تحدث الاعتقالات غالبًا من دون توجيه تهم أو إجراء محاكمات عادلة. وبينما يضمن النظام القضائي الإسرائيلي حقوقًا مدنيّة للمستوطنين، يُطبّق على الفلسطينيّين قانون عسكري. فضلًا عن الطريقة العبثيّة والمهينة التي يعامَل بها الأطفال والشباب، وعن أشكال العنف والابتزاز التي تُعاني منها النساء وأفراد مجتمع الميم، وتفشّي التعذيب في السجون. هذا هو السيناريو. هذه الممارسات تنتهك بوضوح احترام حقوق الإنسان، وتاليًا يجب التعامل معها قضائيًا كجرائم حرب وجرائم ضدّ الإنسانيّة. ما هي الشرعيّة التي يمكن أن يتمتّع بها نظامٌ قانوني يُعامل شعبًا بأكمله بوصفه تهديدًا جماعيًا؟

إلى جانب أعداد الفلسطينيّين المُعتقلين – وما تشير إليه البيانات يبعث على الرعب، لأنّ الاعتقال والسجن، في جميع الظروف، يتركان أثرًا دائمًا – فقد استكشفتُ، على وجه الخصوص، الواقع المُروّع لاحتجاز إسرائيل للقاصرين. يُعدّ اعتقال الأطفال أداةً للقمع. إنّه أحد الأسلحة التي تستخدمها إسرائيل لاضطهاد

الفلسطينيّين وحرمانهم من حقوقهم الأساسيّة. ويُعدّ الاضطهاد، أي الحرمان «المتعمّد والجسيم» من الحقوق الأساسيّة بناءً على هويّة الفرد الجماعيّة، جريمةً دوليّةً مُعترفًا بها في نظام روما الأساسي (الذي أنشأ المحكمة الجنائيّة الدوليّة، صاحبة الاختصاص القضائي في الجرائم ضدّ الإنسانيّة، وجرائم الحرب، وجرائم العدوان، والإبادة الجماعيّة).

إنّ اعتقال طفلٍ أو شابّ – لمراتٍ ومرّات في عتمة الليل – لتهمٍ مثل إلقاء الحجارة على جنودٍ إسرائيليّين، أو مركبات عسكريّة أو مستوطنين، ثمّ مضايقتهم وإجبارهم على تقديم معلوماتٍ عن أشخاصٍ في مدينتهم أو حيّهم، يشكّل تجربةً تترك ندوبًا لا تُمحى، وستُؤدّي إلى سلسلةٍ من العواقب في حياة الذين يعيشونها. بالدرجة الأولى، إنّ التعرّض لهذا العنف، وحتّى من دون مساعدة أحد الوالدين أو وجود ممثّلٍ قانوني، يترك القاصرين وحيدين وضعفاء. يتعرّضون للإساءة والتهديد والصفع والضرب، ويُحرمون من القدرة على الدفاع عن أنفسهم. وغالبًا ما يُربطون بالسلاسل من أيديهم وأرجلهم إلى الكراسي، حيث يُحتجزون لفتراتٍ طويلة. يعانون من الألم، ويُمنعون من استخدام الحمّام. ولا يتوقف الأمر على ذلك... بل يتعرّضون للسخرية والتنمّر.

في مناسباتٍ عديدة، وُضع بعض الأطفال في الحبس الانفرادي لأكثر من أسبوعين. ذلك رغم أنّ معايير الأمم المتحدة بشأن معاملة السجناء تُشير إلى أنّ الحبس الانفرادي لأكثر من خمسة عشر يومًا يُعدّ شكلًا من أشكال التعذيب، وتحظره صراحةً ضدّ البالغين، فكيف يكون الأمر مع القُصّر... لا ينبغي سجن الأطفال: السجون ليست مكانًا لهم، وخاصّةً السجون العسكريّة، حيث ينتهي المطاف بالفلسطينيّين عمومًا. على مرّ السنين، قدّمت العديد من المنظمات الدوليّة توصيات بضرورة إلزام نظام الاحتجاز العسكري الإسرائيلي باحترام حقوق الطفل. اليوم، وبالنظر إلى الماضي، يتّضح أنّ هذا كان خطأً. كان ينبغي، ببساطة، الإصرار على عدم اعتقال الجنود للأطفال، حيث يصار إلى اتّهامهم بجرائم مبهمةٍ تُصاغ وفقًا لأوامر عسكريّة متعسّفة، وعلى عدم جواز خضوعهم للمحاكمة في محاكم عسكريّة. بدلًا من ذلك، انتهى الأمر بالحكومة إلى محاولة جعل الاحتلال أكثر «مقبوليّةً». ولكن كيف يُمكن اعتبار الاحتلال مقبولًا؟ احتلالٌ لا وظيفة له إلّا القمع.

على مرّ السنين، حضرتُ عدّة محاكمات لقاصرين. شهدتُ بأمّ عيني الوحشيّة التي لا تستند إلّا إلى التفاهة. كان الأطفال يُقتادون إلى المحكمة مكبّلين بالسلاسل. شعرتُ كأنّني أشاهد، عن قرب، وفي زمنٍ آخر، التعسّف الرهيب في معسكرات العمل القسري. صغار، نحيفون، منهكون. مُبتهجون بفكرة أنّهم، لأول مرّة منذ اعتقالهم، سيرون والديهم مجدّدًا، في تلك الجلسات التي لا تستغرق في النهاية... سوى بضع دقائق.

غالبًا ما كان القاضي لا ينظر إليهم، بل يسمع التهمة – «رمي الحجارة» – ويصدر حكمه. سنتان في السجن. ثلاث سنوات في السجن. وعلى هذا المنوال. يا له من قاضٍ كريم، بالنظر إلى أنّ عقوبة رمي الحجارة للفلسطينيّين قد تصل إلى عشر سنوات (وعشرين سنة إن كان ذلك بقصد إيذاء شخصٍ ما).

بعد كابوسٍ كهذا، كيف لنا أن نُفاجأ بأنّ الأطفال الفلسطينيّين يعانون من الصدمة عند عودتهم إلى ديارهم. يكونون غير راغبين في الخروج، خائفين، ويبولون في فراشهم. كيف لنا أن نُفاجأ عندما تبدو عليهم ملامح الاضطراب أو عندما يصدر منهم سلوكٌ عنيف؟ نحن نتحدّث عن أطفالٍ لا تتجاوز أعمارهم اثنتي عشرة سنةً أو ثلاث عشرة أو أربع عشرة، وأحيانًا أصغر. أطفالٌ لا تتجاوز أعمارهم خمس سنواتٍ أو ستًّا تقتادهم شاحناتٌ إسرائيليّة؛ وقد يُعتقلون وقد لا يُعتقلون، لكنّهم قطعًا سيخضعون للاستجواب قبل أن يُعادوا إلى منازلهم (هناك حالاتٌ موثقة من هذا النوع ومتاحة للجميع عبر الإنترنت). العواقب وخيمة، والرسالة واضحة: «أنتم تحت سيطرتنا. لستم أحرارًا».

في وضعٍ كهذا، كيف يمكننا أن نسمّي ما يحدث حربًا؟

الصراع يتطلب جانبين متكافئين إلى حدٍّ ما. إسرائيل وفلسطين ليسا كذلك: أحدهما مُحتَلّ والثاني تحت الاحتلال، أحدهما مُستعمِر والآخر مُستعمَر، وقد وُضِع المُستعمَر في حالةٍ من التبعيّة المنظّمة، وصار ضحيّةً متواصلة لنظام تحكّمٍ وفصلٍ عنصري. لا، هذا ليس صراعًا. في أفضل الأحوال، يمكن اعتباره صراعًا ضدّ الإنسانيّة.

إلى ذلك، يتضاعف وقع القمع الذي يرزح تحته الشعب الفلسطيني، إذ تُضاف – للمفارقة – إلى ممارسات الاحتلال الإسرائيلي، ممارسات السلطة الفلسطينيّة نفسها، علمًا بأنّها هيئةٌ سياسيّة أنشئت في 1993، عقب اتّفاق أوسلو.

من المؤسف أنّ الاتفاقيّات، الموقّعة بين إسرائيل ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة، التي كان من المفترض نظريًا أن تُمثّل أول اعترافٍ متبادل بين الطرفين، وأن تُمهّد الطريق نحو إنشاء دولةٍ فلسطينيّة؛ لم تُسفر عن أيّ نتائج ملموسةٍ للفلسطينيّين. لم تؤدِّ إلّا إلى تعزيز منظومة السيطرة التي زادت الاحتلال جشعًا في التهام الأراضي وقمع الوجود الفلسطيني. لقد تأسّست الدولة الموعودة وهي موجودة رسميًا (حتى إنّها معترفٌ بها من قبل 135 دولة في الأمم المتحدة)*، ولكن في الممارسة العمليّة لم تتحقّق الدولة أبدًا. فقد استمرّ الاحتلال الإسرائيلي احتلالًا، وقد توسّع جغرافيًا، واستمرّ نموّ المستوطنات في الأراضي المحتلة، وكلّ ذلك أدّى إلى تفاقم الإجراءات القمعيّة.

حتى إن احتُرمت اتّفاقيّات أوسلو، فإنّها كانت ستبقى قائمة على تفاوتٍ كبير في القوّة بين الطرفين. وكان الأمر سيسمح لإسرائيل بالحفاظ على سيطرةٍ عمليّة على الأراضي، تاركًا للفلسطينيّين حكمًا ذاتيًا منقوصًا، ومن دون سيادة حقيقيّة. وقد أكد ذلك العديد من الباحثين الفلسطينيّين والإسرائيليّين، مثل إدوارد سعيد، وتانيا راينهارت، وإيلان پاپيه، وحتّى التقارير الصادرة عن منظمات مثل منظمة بتسيلم** الإسرائيليّة. فرغم أنّها شكّلت نقطة تحوّل مهمّة رمزيًا، لم تضع مفاوضات أوسلو بُنية السيطرة الإسرائيليّة موضع النقاش. ولهذا السبب، يعتقد الكثيرون أنّ تلك الاتّفاقيّات تحديدًا، هي التي شرّعت الاحتلال، وحوّلت السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة إلى هيئةٍ إداريّة تحكم السكّان في بعض المناطق، ولكن تحت سلطة المراقبة والسيطرة العسكريّة الإسرائيليّة فعليًا. في الواقع، وبعيدًا عن النيّة الصريحة لممارسة سيطرة مدنيّة وأمنيّة كاملة على المدن الفلسطينيّة الرئيسيّة (ما يُسمّى المنطقة «أ») والاكتفاء بالسيطرة المدنيّة في المناطق المحيطة بالمناطق الحضريّة من الأراضي المحتلة (المنطقة «ب»)، فإنّ الدور الأساسي للسلطة الفلسطينيّة،

---

* بعد الاعترافات الأوروبية الأخيرة، ارتفع عدد الدول التي تعترف بفلسطين إلى 159 من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة البالغ عددها 193، وقد وقعت هذه الاعترافات في الفترة الفاصلة خلال الأشهر القليلة بين صدور الكتاب بالنسخة الإيطالية، وبين ترجمته العربية الحالية.

** ويعني اسمها الكامل بالعربيّة: المركز الإسرائيلي للمعلومات عن حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة.

وفقًا لاتّفاقيّات أوسلو، هو الحفاظ على التنسيق الأمني مع إسرائيل. ولكن أمن مَن؟ الجواب واضح.

يرى العديد من الفلسطينيّين أنّ السلطة الفلسطينيّة تُشكّل عقبةً أمام تحقيق تقرير المصير. وهذا، للأسف، يُفاقم التشرذم الاجتماعي والسياسي للفلسطينيّين.

اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، لا بدائل لمستقبل الفلسطيني. في ممارسة الحياة ووظائفها الأساسيّة، يُعدّ الصدام مع الإسرائيليّين أمرًا لا مفرّ منه. وليس من النادر أن ينتهي الأمر بالسجن أو القتل. حتى النشاط السياسي يُفضي إلى النتيجة نفسها.

ليس صعبًا العثور على شخصيّات مثل خالدة جرّار، النائبة المنتخبة رسميًا عام 2006 عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني، والتي تجد نفسها معتقلةً باستمرار لأسبابٍ أمنيّة. في عام 2021، وبينما كانت مسجونةً من دون تهمة أو محاكمة، لم تسمح لها إسرائيل حتى بالمغادرة لحضور جنازة ابنتها سهى، التي تُوفيت في ريعان شبابها من جرّاء نوبةٍ قلبيّة.

يعتقل الجيش الإسرائيلي الفلسطينيّين ويحوّلهم إلى سجناء سياسيّين. لا يُتّهمون بجرائم جنائيّة، وغالبًا ما تكون التهمة عند توجيهها مرتبطةً بالوضع السياسي. ولطالما كان هناك تضامنٌ طبيعي بين المجتمع والسجناء: يُنظر إليهم كمقاومين.

كان شدّ أزر السجناء والتضامن معهم، بالإضافة إلى دعم عائلاتهم، أولويّةً لمنظمة التحرير الفلسطينيّة بدايةً، ثمّ للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة لاحقًا. على الأقلّ حتى شباط/ فبراير 2025، عندما علّقت السلطة الفلسطينيّة، تحت ضغطٍ من الولايات المتحدة، دعمها للسجناء الفلسطينيّين وعائلاتهم. حرم هذا الكثيرين من مساعدةٍ أساسيّة. وغالبًا ما كان المعتقلون هم معيلو الأسر، ما يجعل الأسرة بأكملها بلا مورد رزق. ولهذا السبب، حرص أبو حسن بشدّة على إيجاد عملٍ لهؤلاء الشباب في المهباش.

يمكن للمقاومة أن تكون عنيفة، وهذا صحيح. ويجب حماية المدنيّين من العنف في جميع الأوقات. لست هنا لتبرير أيّ جريمة قد يكون الفلسطينيّون ارتكبوها ضدّ المدنيّين الإسرائيليّين خلال فترة الاضطهاد الطويلة. يحضرني قولٌ للمسرحي الألماني بِرتولت بريخت Bertolt Brecht أجده مناسبًا للغاية في هذه الحالة، كما في حالات أخرى من الاضطهاد المنهجي والممتدّ: «النهر الذي يجرف

كلّ شيءٍ يوصف بالعنف، لكن لا أحد يُطلق على ما يوقفه من ضفافٍ اسم العنف».
لقد حان الوقت لحلّ مشكلة العنف، ولكن من جذوره، أي بإزالة الأسباب التي تُشعل فتيله من الأساس. وفي فلسطين، هذه الأسباب ليست سوى الاضطهاد والفصل العنصري.

جورج

أن تعيش في القدس

في نهاية الأمر، لم يكن سوى حجرٍ آخر في الجدار.
في نهاية الأمر، كنتم جميعكم أحجارًا في الجدار.
پينك فلويد – حجرٌ آخر في الجدار

بالنسبة إليّ، القدس مدينةٌ تكثر فيها مظاهر التديّن ولكن ليس الروحانيّة. في الواقع، لطالما راودني انطباعٌ بأنّها المكانُ الذي يتنفّس المرء فيه نوعًا من التديّن يثقل الروح، على الرغم من أنّ الكثيرين – يهودًا ومسلمين ومسيحيّين – يتّخذون منها نقطة ارتكاز فيدور إيمانهم حولها.

جغرافيًّا، القدس مدينةٌ كغيرها من المدن، أمّا سياسيًّا فتنقسم إلى شطرين. وإن تعمّقت في معرفتها، فستفهم أنّها مدينةٌ مشرذمة، بدءًا من الطريق رقم واحد، وهو طريقٌ يعبرها من الشمال إلى الجنوب، ويشكّل خطًّا فاصلًا بين المناطق ذات الأغلبيّة العربيّة شرقًا وتلك اليهوديّة غربًا. وقد أصبحت اليوم مدينةً حضريّة، إذ تغلغلت الحياة المدينيّة فيها (إلى الشرق بمحاذاة باب العامود، والشيخ جرّاح، وحيّ المصرارة...)، بعدما كانت في الماضي خطًّا فاصلًا أساسيًّا من الناحية الجغرافيّة وقد رُسِمَ إثر حرب عام 1948، وامتدّ ليشكّل حدودًا ثقافيّةً وسياسيّةً داخل المدينة، التي لا تزال تحتفظ بقيمةٍ رمزيّةٍ وتاريخيّةٍ كبيرة.

في عام 1947، وافقت الجمعيّة العامة للأمم المتحدة على ما يُسمّى خطّة التقسيم، التي قضت بتقسيم فلسطين إلى دولتين، مُخصّصةً ما يقرب من 55٪ من الأراضي للدولة اليهوديّة المُستقبليّة (على الرغم من أنّ اليهود كانوا يُشكّلون أقلّ من 35٪ من السكّان، ويملكون بحكم الأمر الواقع 6٪ فقط من الأرض)، و45٪

الباقية للفلسطينيّين، الذين كانوا يمتلكون، فرديًا أو جماعيًا، في ذلك الوقت، ٪94 من الأرض.

رفض القادة الفلسطينيّون والدول العربيّة الخطّة، معتبرين إيّاها ظالمة، ما أدّى إلى حرب أهليّة، تحوّلت إلى صراعٍ عام في 1948 بعد إعلان دولة إسرائيل.

ركّزت المعارك بين الميليشيات الصهيونيّة والقوّات الفلسطينيّة والعربيّة على نقاطٍ استراتيجيّة، بما في ذلك الطريق الذي يربط تل أبيب* (التي كانت آنذاك مستوطنة لليهود الوافدين من أوروبا الشرقيّة هربًا من الاضطهاد) بالقدس: الطريق الذي يصير في المستقبل... «الطريق رقم واحد».

خلال الصراع الذي اندلع في أيّار/ مايو 1948، وفي المكان الذي صنّفته الأمم المتحدة أرضًا تابعة للدولة اليهوديّة، كانت المنطقة المحيطة بمدينة اللطرون** إحدى النقاط الحاسمة التي شهدت اشتباكاتٍ عنيفةً بين القوّات الإسرائيليّة والفيلق العربي، الذي تدخّل عند تلك النقطة من جهة الأردن.

بعد هدنة عام 1949، رُسّم خطّ وقف إطلاق النار على طول الخط الأخضر في تلك المنطقة تحديدًا، ولا يزال الطريق رقم واحد يتبعه حتى اليوم في بعض المواضع، مواصلًا فصل الأحياء الفلسطينيّة، مثل حيّ الشيخ جرّاح والحيّ اليهودي الأرثوذكسي الذي يقابله على الضفّة الأخرى من الطريق رقم واحد في المنطقة الإسرائيليّة من القدس الغربيّة.

---

* تُعدّ اليوم من كبرى مدن الاحتلال الإسرائيلي، وقد قامت في الأصل على أراضٍ فلسطينيّة سكنها الفلسطينيّون لقرون، وشملت عدّة قرًى وتجمّعات سكّانية، أبرزها قرية الشيخ مؤنس، التي كانت من أكبر قرى المنطقة شمال يافا، وتم تهجير سكّانها قسرًا في 1948، لتُقام على أنقاضها أحياءٌ حديثة وجزءٌ من جامعة تل أبيب. وشملت الأراضي التي بُنيت عليها المدينة قرًى فلسطينيّة أخرى مثل الجمّاسين الشرقي والغربي، وسوميل، وسكنة درويش، وجميعها هُجّرت خلال النكبة. تجدر الإشارة إلى أن تل أبيب لم تكن مدينة فلسطينيّة قائمة بذاتها، بل تأسّست كمستوطنة يهودية عام 1909 شمال يافا، وامتدّت تدريجًا على حساب القرى الفلسطينيّة المجاورة، ثمّ توسّعت بعد عام 1948، إثر تهجير السكّان الأصليّين. تمثّل هذه القرى اليوم جزءًا مطموسًا من الذاكرة التاريخيّة للمدينة، رغم أنّ آثارها ما زالت حاضرة في بعض الأسماء الجغرافية ومواقع الأبنية، وبالطبع في ذاكرة السكّان الأصليّين والمختصّين بتاريخ المكان، من منظورٍ غير متأثّرٍ بالاستعمار.

** منطقة تقع جغرافيًا بين القدس وتل أبيب، وتشتهر بموقعها الاستراتيجي المهمّ في الصراع العربي-الإسرائيلي، خاصة خلال حربي 1948 و1967. رغم عدم تصنيفها كمدينة كبيرة، أدّت دورًا محوريًا في المعارك العسكرية والسياسية، حيث سيطر عليها جيش الإنقاذ الفلسطيني ثمّ القوات الإسرائيلية لاحقًا. المنطقة تحوي دير اللطرون التاريخي، الذي يُعدّ مركزًا روحيًا وثقافيًا مسيحيًا ذا أهمّية كبيرة.

وفقًا لخطّة التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة، جرى تصوّر القدس ككيانٍ منفصل [Corpus Separatum]*، أي مدينة تخضع للإدارة الدوليّة؛ لكنّ هذا لم يحدث إطلاقًا. خُصِّص ٪55 من فلسطين التاريخيّة لإسرائيل، لكنّها بدلًا من ذلك استولت على ٪78، تاركةً لـ«الدولة العربيّة» كما تصوّرتها الأمم المتحدة، والتي عارضها العرب أنفسهم، ٪22 فقط، في انتهاكٍ جسيم لبنود التقسيم. اندلعت اشتباكات بين الميليشيات الصهيونيّة والمقاومة الفلسطينيّة المسلحة، وهجماتٌ علنيّة على القرى، وخاصّةً على الفلسطينيّين، فطُرِد أو هُجّر ما يقرب من 750 ألف فلسطيني: هذا ما يُسمّى النكبة.

قُسِمت القدس آنـذاك إلى قسمين: الغربيّة، تحت السيطرة الإسرائيليّة، والشرقيّة، تحت السيطرة الأردنيّة. وكانت البلدة القديمة تقع خلف الخطّ الأخضر السابق مباشرةً (وهو الاسم الآخر للطريق رقم واحد، نسبةً إلى اللون المستخدم لرسم خطّ الهدنة مع الأردن). المدينة القديمة تأسر الأنفاس. تستكين بين الأسوار العتيقة، وتتكوّن من أربعة أحياء: الأرمني، اليهودي، المسيحي، والمسلم.

خارج أسوار البلدة القديمة مباشرةً، من جهة الحيّ الإسلامي، يقع شارع صلاح الدين، حيث توجد المكتبة التعليميّة، أشهر مكتبة في القدس الشرقيّة: نقطةٌ مرجعيّة للأجانب مثلنا، وأيضًا للفلسطينيّين الذين يمكنهم الوصول إلى القدس.

تقع المكتبة الفعليّة في الطابق الأرضي من المكتبة التعليميّة، التي تضمّ (أو بالأحرى، إذا سمحوا بذلك) مجموعة كبيرة من الكتب الحديثة والتاريخيّة عن فلسطين. وفي الطابق السفلي، قاعةٌ تُعقد فيها المؤتمرات بالإضافة إلى مقهًى صغير، حيث تُقدّم الحلويات المنزليّة عندما لا تكون هناك فعاليّات أو أنشطة؛ بينما شكّل الطابق العلوي مساحةً للدراسة والعمل. كان ماكس – الذي كان آنذاك يعمل عن بُعد مع منظمة إنكليزيّة – يرتاد ذلك المكان دائمًا. لقد أصبح مكتبه عندما انتقلنا إلى هناك قادمين من جنيف. وذات يوم، لاحظ ماكس أنّ شاشة

* مصطلح لاتيني في الأصل، يُترجم إلى «كيان منفصل» في الأدبيّات العربيّة عادةً، ويُستعمل للإشارة إلى وحدةٍ جغرافية تُمنح وضعًا قانونيًا خاصًا خارج نطاق السيادة الوطنيّة التقليديّة، حفاظًا على خصوصيّتها الدينيّة أو السياسيّة أو الدوليّة. وقد ورد هذا المصطلح في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 الصادر عام 1947، حين اقترح أن تُفصل مدينة القدس عن الكيانين العربي واليهودي الناشئين، وتُخضع لنظام دولي خاصّ تحت إشراف الأمم المتحدة، نظرًا إلى مكانتها الرمزيّة.

حاسوب الشخص الذي كان يجلس إلى جانبه ليعمل هو الآخر، تُظهِر عددًا لا يُحصى من النوافذ المفتوحة في الوقت نفسه، فسأله: «لكن كيف تستطيع العمل بهذه الطريقة؟». هكذا التقى بجورج. وهكذا نشأت صداقتهما (وصداقتنا). وكان ذلك على حساب روّاد المقهى الآخرين: تشاركا صوتًا جهوريًّا، وسرعان ما لُقّبا بالثنائي «الملوّث للهدوء» بامتياز.

جورج مهندس فلسطيني من القدس. شخص حادّ الذكاء، بارعٌ جدًا، ومفعمٌ بالودّ. درس في الولايات المتّحدة، وعمل لسنوات في وادي السيليكون*. وفي أوائل الألفيّة الثانية، بعدما عاش هناك عشرين عامًا، قرّر ترك كلّ شيء والعودة إلى وطنه للمساهمة في بناء دولة فلسطين الحرّة، كما كان يأمل.

في فلسطين، واجه جورج صعوبة في الحصول على وظيفة تناسب التعليم الذي حصل عليه، وخاصّةً بسبب النزعة الاستقلاليّة التي اتّسمت بها أفكاره. واجه صعوبةً في العمل مع المنظمات الدوليّة، حيث كان يُنتَظَر من الفلسطينيّين ألّا يتحدّثوا عن الاحتلال وعن الفصل العنصري. كانت الفكرة تقريبًا: «إن أردت العمل معنا [أي مع الغربيّين المموّلين]، فعليك الالتزام بقواعد السلوك التي نشترطها». لكنّ جورج كان متمرّدًا. وفوق كلّ شيء كان صاحب مبدأ يصعب إخضاعه لمطلب المانحين الغربيّين بعدم تبنّي مواقف سياسيّة. وبطبيعة الحال، كان العمل مع الإسرائيليّين أكثر تعقيدًا، لأنّ الإحساس بالتفوّق تجاه الفلسطينيّين لطالما لازمهم، حتى في صفوف الذين يمكن عدّهم الأكثر تقدّميّةً بينهم، ولم يكن جورج يتقبّل فكرة الشعور بأنّه يقبل منّةً من أحد.

بالنسبة إلى الفلسطيني، العيش في القدس يعني مواجهةً يوميّة لتداعيات التبعيّة البنيويّة التي تفرضها إسرائيل. وهذا يبدأ بالمصطلحات التي نميل إلى اعتبارها أمرًا مسلّمًا به ولكنّها ليست كذلك.

---

* يُعدُّ وادي السيليكون [Silicon Valley] منطقةً جغرافيّة بارزة تقع في جنوب خليج سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأميركية، وهو بمثابة الحاضنة الرئيسيّة للابتكار التكنولوجي العالمي. تجمع هذه المنطقة الكثير من الشركات الناشئة والعملاقة في مجالات البرمجيّات والأجهزة والبحث العلمي، ما جعلها القلب النابض للتطوّر التقني والديناميكيّة الاقتصاديّة المعاصرة. يقوم النظام الاقتصادي في وادي السيليكون على رأس المال الاستثماري الذي يدعم الشركات الناشئة، ويعتمد على التنافسيّة العالية وتحقيق الأرباح كأهداف أساسيّة. ويعكس هذا النموذج التأثير العميق للرأسماليّة السوقيّة على تطوير التكنولوجيا.

على سبيل المثال، يُمكن اعتبار التعارض بين «العرب» و«اليهود» انعكاسًا للفكر الصهيوني، الذي يميل إلى تبسيط هذا الوضع المُروّع الناتج عن الفصل العنصري بمصطلحاتٍ عرقيّة –دينيّة، طامسًا أبعاده السياسيّة والاستعماريّة والقوميّة. إنّ إدراج الفلسطينيّين عمومًا تحت مُسمّى «العرب» – كما يحدث غالبًا في الكتب المدرسيّة الإسرائيليّة أو في وسائل الإعلام الرئيسيّة حول العالم – يُسهم في إنكار هويّتهم الوطنيّة. إنّ الإشارة إلى الفلسطينيّين على أنّهم «عرب» ببساطة، قد يُفضي إلى ترسيخ فكرةٍ مفادها أنّ فلسطين غير موجودة، وأنّهم ضيوفٌ مؤقتون، أو الأسوأ من ذلك، أنّهم مجرّد وهم.

ماذا يعني أن يعيش الفلسطيني في القدس طوال اليوم، وفي كلّ يوم، غارقًا في هذا التوتّر الذي يمسّ كلّ شيء، بما في ذلك أكثر الكلمات التي تبدو تافهة من الناحية الظاهريّة، ولكن عند التدقيق فيها، يتّضح أنّها ليست كذلك على الإطلاق؟

إلى جانب أبو حسن، كان جورج وإبراهيم من أعز الأصدقاء الذين شكّلوا جزءًا من حياتنا، وساعدونا على سبر أغوار المدينة خلال السنوات الأولى. كانا بمثابة روحين تكمل الواحدة منهما الأخرى. أحدهما مسيحي والآخر مسلم؛ جورج مفعمٌ بالحيويّة، مثل زجاجة شمبانيا فُتحت للتوّ، بينما كان إبراهيم جادًّا، مثابرًا، وفي كثيرٍ من الأحيان كان صامتًا. ينحدر إبراهيم من عائلة الحسيني، إحدى أهمّ العائلات في فلسطين، وهو من نسل النبيّ محمّد، ويعود إليها على وجه الخصوص نسل مفتي القدس، وهو شخصيّةٌ تشوّهت سمعتها بشدّةٍ بسبب روايةٍ هدفت إلى نزع الشرعيّة عن دوره السياسي خلال سنوات قيام دولة إسرائيل في فلسطين، ما أدّى إلى اختزال شخصيّته في علاقاته الإشكاليّة مع ألمانيا النازيّة، فطُمس دوره في المقاومة الفلسطينيّة للانتداب البريطاني والصهيونيّة*. في تلك الفترة، كان

* بالنسبة إلى كثير من المفكرين العرب النقديّين، والمعادين للاستعمار، لا يُعدّ دور أمين الحسيني إشكاليًا، بل هناك موقف سلبي منه. فقد أدّى دورًا محوريًا في إجهاض الإضراب العام في سنة 1936، بما أثار سخط القوى الوطنية الفلسطينيّة، قبل أن تنحطّ علاقته بالبريطانيّين على خلفية تجدّد الانتفاضة الشعبية ضدّهم في عام 1937، بعد نشر تقرير أعدّته لجنة تحقيق موفدة من لندن، دعا إلى تقسيم فلسطين، فحلّت سلطات الانتداب «اللجنة العربية العليا»، واعتقلت جملة من أعضائها، أما الحسيني فتمكّن من المغادرة من فلسطين إلى لبنان ومن ثم العراق، حتى بلغ أوروبا. وهناك عمل من أجل الدعايتين، الفاشية والنازية، مخاطبًا العرب والمسلمين على موجات إذاعتي روما وبرلين، وسعى جهده ليساعد الألمان على تجنيد عربٍ ومسلمين للقتال تحت إمرتهم. بيد أن مجهوده ومجهود النازيّين لم يفلحا سوى في تجنيد مسلمين من غير العرب. أما العرب بوجه عامّ، والفلسطينيون بوجه خاصّ، فيكاد لا يُذكر من لبّى منهم دعوة

إبراهيم يعيش في منزلٍ كبير وجميل يقع في وسط القدس الشرقيّة. كان يعمل مراسلًا لمحطّةٍ إذاعيّة غربيّة، وكان عليه أن يُكافح يوميًّا لقياس كلّ كلمة يقولها: فقول الحقيقة عن إسرائيل يعني المخاطرة بعدم النشر، أو الأسوأ من ذلك، فقدان وظيفته أو إجباره على تركها، كما يحدث للكثيرين.

لا أعرف كيف كنت سأعيش من دونهم، ومن دون أصدقائي الآخرين خلال تلك السنوات العصيبة في القدس، عندما كنت أشعر بالإحباط في كثيرٍ من الأحيان. بعد ستّة أشهر، راودتني رغبة في الرحيل. لم أستطع تحمّل الثقل، والطاقة المُرهقة، وذلك الانفصال القسري والمستمرّ عن الحدود السائلة التي لا يمكن عبورها والتي تُعرف بنظام الفصل العنصري. ذلك رغم أنّني آنذاك لم أكن أفهم المعنى الفعلي للكلمة.

كلّ يوم، كان مجرّد عبور المدينة والقيام برحلات قصيرة أمرًا كافيًا ليجعلني عاجزةً عن التعبير.

أتذكّر أنّه بعد أيّامٍ قليلة من تعارفنا أنا وإبراهيم، ذهبنا معه إلى الحائط الغربي*: أحد أهمّ الأماكن المقدّسة في الديانة اليهوديّة، الذي يُبجَّل بوصفه الجزء الوحيد الباقي من الجدار الذي كان يحيط سابقًا بالهيكل الثاني في القدس، والذي يقول البعض إنّه دُمّر على أيدي الرومان في القرن الأول الميلادي، بينما يقول آخرون إنّه

الحسيني، بينما حارب عددٌ منهم أكبر بما لا يُقاس في صفوف الحلفاء في حربهم ضدّ النازيّين ومن معهم. وقد تبنّى الحسيني بالكامل الخطاب العنصري النازي المعادي لليهود، إلى حدّ أنّه، في رسالة نشرها هو نفسه في مذكّراته، دعا الحكومة المجريّة حليفة النازيّين لا إلى منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين وحسب بل إلى إرسالهم عوضًا عن ذلك إلى بولندا حيث كانت معسكرات الاعتقال النازيّة. بعد نهاية الحرب، غادر الحسيني أوروبا، ولجأ إلى مصر، إلى أن اضطرّ إلى مغادرتها في عام 1959 بعد دخوله في نزاع مع حكم جمال عبد الناصر، فأنهى حياته في لبنان حيث تُوفي عام 1974. وقد استمرّ في رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينيّة بوصفها ممثّلة الشعب الفلسطيني، حتى بعدما استولت منظمات الكفاح المسلّح على مقاليدها إثر حرب 1967. ويُنقل أنّ أحد أقرب أعوانه دخل الحكومة الأردنية وبقي عضوًا فيها حتى عندما شنّت المملكة الهاشميّة هجومها الدامي على المقاومة الفلسطينيّة في عام 1970، المعروف بأحداث «أيلول الأسود». يعتبر الكثير من المفكّرين العرب أنّ سياساته الخاطئة أساءت للنضال الفلسطيني، بما في ذلك عمله مع النازيّين والفاشيّين، ما وفّر للدعاية الصهيونيّة ذريعةً استخدمتها بكثافة، وما زالت تستخدمها في وصمها – من دون حق، وبطريقةٍ مضللة – الفلسطينيّين بأنّهم كانوا من أنصار النازيّة. وفي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 2015، وفي بيانٍ صحافي خصّصته للموضوع، ردّت المستشارة الألمانيّة السابقة آنجيلا ميركل على تصريحات بنيامين نتنياهو، الذي اتّهم الفلسطينيّين بالضلوع في المحرقة، مؤكدةً أن تلك المسؤوليّة تقع على عاتق ألمانيا وحدها، وذلك إثر موجةٍ من السخط والسخرية في العالم جاءت كردّ فعل على تصريحات نتنياهو.

للمزيد عن الموضوع: يُنصح بقراءة كتاب جلبير الأشقر «العرب والمحرقة النازية: حرب المرويّات العربية-الإسرائيلية» - ترجمة بشير السباعي، دار الساقي، بيروت. والمركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.

* يسمّيه المسلمون حائط البراق، ويطلق عليه اليهود لقب حائط المبكى.

لم يكن موجودًا أبدًا، أو لم يكن موجودًا هناك في الأساس. بجوار الحائط الغربي، تقع المنطقة التي يقع فيها الحرم الشريف، أحد أقدس المواقع الإسلاميّة*.

مثل العديد من المواقع في القدس، يحمل هذا المكان في طيّاته تاريخًا من العنف والتهجير. في حزيران/ يونيو 1967، ومع احتلال القوات الإسرائيليّة للقدس الشرقيّة عسكريًا، وقع حيّ المغاربة، الذي كان يقع مقابل الحائط الغربي مباشرةً، تحت سيطرة الاحتلال. في ليلةٍ واحدة، سُوّيت المنطقة التي تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر مربّع بالأرض. شُرّد ما يقرب من ستمئة وخمسين ساكنًا، حُرموا من منازلهم وصارت المساحة ملكًا للحجّاج اليهود. وهذه قصّة لا تُروى لآلاف السيّاح والمؤمنين الذين يزورون هذا المكان المقدّس كلّ عام.

كنتُ أنا وماكس وإبراهيم نسير في البلدة القديمة ذلك اليوم، ونتشارك هذه القصص، محاولين أن نتخيّل كيف كان المكان عندما كانت المنازل القديمة لا تزال قائمة. وفجأةً لاحظنا رجلًا يتحدّث بحماسة، كبائع الأواني** الذي يحاول جذب انتباه الحشد. وكان يقف أمام مجموعةٍ صغيرة من الناس، بدوا كأنّهم سيّاح. أثار المشهد فضولي، لأنّه قلّما تجد أحدًا في القدس مبتهجًا إلى هذه الدرجة. على الأقلّ، لا أحد ممّن كنتُ أراهم كلّ يوم: لا الفلسطينيّون، الذين دائمًا ما يخفضون رؤوسهم لكي لا يجذبوا الأنظار، ولا اليهود المتشدّدون الذين قد تصادفهم غالبًا وهم يهرعون إلى الحيّ العربي للذهاب للصلاة عند الحائط الغربي، ولا الجنود المتمركزون في كلّ مكانٍ لمراقبة حياة الفلسطينيّين. عندما لاحظني أحدّق به، نظر إليّ بابتسامةٍ عريضة وذراعين ممدودتين، كما لو أنّه كايت وينسلِت على مقدّمة سفينة التايتانِك، ثمّ قال بلكنةٍ أوستراليّة واضحة: «أهلًا بكِ في إسرائيل!».

«فلسطين المحتلّة. هذه فلسطين المحتلّة، هنا في هذا الجزء»، قلتُ من خلف ابتسامةٍ باهتة.

ردّ بحدّة: «فلسطين غير موجودة، هذه إسرائيل».

---

* ثالث أقدس المواقع في الإسلام بعد الكعبة في مكّة والمسجد النبوي في المدينة. ويضمّ الموقع ثلاثة مبانٍ رئيسيّة تعود إلى العهد الأموي، المسجد الأقصى، قبّة الصخرة، وقبّة السلسلة.

** «Venditore di pentole» هو تعبير إيطالي يُستخدم مجازًا لوصف شخص كثير الكلام يُحاول الإقناع بأسلوب دعائي مبالغ فيه، كما يفعل البائع الجوّال. يُقال غالبًا في السياسيّين أو المروّجين الذين يَعدون بالكثير ولا يقدّمون شيئًا حقيقيًا.

عندها، وبلهفةٍ شديدة، سأله إبراهيم، الذي كان يسير بجانبي: «وإن لم تكن فلسطين موجودة، فماذا أكون؟».

«أنت لست موجودًا»، أجاب الرجل من دون أن يرفّ له جفن: وهذا شخصٌ سنكتشف بعد سنوات أنّه يرأس إحدى أكثر المنظمات الاستيطانيّة عدوانيّة. من دون أن ندري، صادفنا رجلًا لو كنّا نعيش في عالمٍ عادل، لكان في السجن منذ زمنٍ بعيد.

***

لم يكن جورج وإبراهيم مرشدين سياحيّين، لكنّ الخروج معهما كان يعني استكشاف المدينة القديمة بعينٍ جديدة. كنّا نقضي ساعات ونحن ندردش في حديقة البيت النمساوي* الجميلة، وهي منشأةٌ مخصّصة للحجّاج ويعمل بها العديد من الشباب النمساويّين. أو كنّا نذهب معًا إلى المهباش، حيث أقام أبو حسن دائمًا، وقد أصبح في مرحلةٍ ما مشاركًا نشطًا في إدارة المقهى. في القدس الشرقيّة، لم يكن هناك الكثير من الأماكن المفتوحة مساءً. ولكن خلال النهار كانت هناك أماكن كثيرة لتناول الفطور. في صباحات السبت، كان ماكس يستغرق وقتًا أطول في النوم، لذلك كنت، لكوني من الذين يستيقظون باكرًا جدًا، أذهب غالبًا مع جورج إلى شارع صلاح الدين، بالتحديد إلى مكانٍ صغير يمكن الوصول إليه عبر درجٍ ضيّق. في القبو، كانت هناك غرفةٌ بسيطة جدًا، رُصفت جدرانها ببلاط المطبخ، وفيها طاولاتٌ بلاستيكيّة بيضاء بالإضافة إلى كراسيّ سوداء وبيضاء، وثلّاجة قديمة للمشروبات، وركن للمقالي حيث كنّا نحصل على طعامٍ ساخن. هناك، كنّا نتناول الفطور الفلسطيني التقليدي: الحمّص، والحمّص بالطحينة (يُقدَّم ساخنًا مع اللحم) لجورج، طماطم، زيتون، خيار، أنواع مختلفة من الجبن مع زيت الزيتون، وكميّات

* دار الضيافة النمساوية للعائلة المقدسة (Austrian Hospice of the Holy Family): هي مؤسسة تاريخية كاثوليكية أُسّست عام 1863 في قلب البلدة القديمة بالقدس، على طريق الآلام (Via Dolorosa)، بتمويل من الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية. شُيّد هذا النُزل كمكان ضيافة للحجاج الكاثوليك الأوروبيّين، ولا يزال يُؤدّي هذه الوظيفة حتى اليوم، جامعًا بين الطابعين الديني والثقافي. يضم المجمع كنيسة صغيرة يُقام فيها القداس يوميًا، وحديقة داخلية تُعدّ من أبرز فضاءات التأمل والسكينة في المدينة القديمة. يُعد هذا المكان نقطة التقاء بين البعد الروحي المسيحي والحضور الأوروبي في القدس العثمانية وما بعدها، ويشكّل شاهدًا حيًا على تاريخ الحضور النمساوي في الأرض المقدسة.

كبيرة من الخبز لتغميسه في الزيت، بالإضافة إلى الصعتر. أتذكّر أنّه في الأيّام الأخيرة التي قضيتها في القدس، كنت في خضمّ حملي الأول. وكنت أشتهي الأطعمة الحارّة بشدّة، لذلك كنت أتناول حساء الحمّص الساخن مع الفلفل الأخضر الحارّ بدلًا من الخبز (الذي أكسبني لقب «غزّاويّة» بين أصدقائي، لأنّ الفلفل شائع جدًا هناك). كان أصحاب المكان يخشون أن أشعر بالمرض هناك: فقد خشوا هجومًا إسرائيليًّا تسبّبه امرأة إيطاليّة حامل معرّضة لخطر التسمّم في مطعمهم.

أحيانًا – دائمًا مع جورج وإبراهيم وأبو حسن – كنّا نخرج مساءً إلى القدس الغربيّة. كنّا نذهب إلى مكان يُدعى «توي بار»، وهو إحدى نقاط الالتقاء النادرة بين الشباب الإسرائيليّين والفلسطينيّين في المدينة، حيث تتحوّل أمسيات الرقص أحيانًا إلى حفلات يرقص فيها الناس على الطاولات حتى الصباح. كلّ شيءٍ كان يحدث في رحاب بضعة شوارع. وعلى مقربةٍ منه كان «الديوان»، الذي يعني اسمه «الأريكة الواسعة». وكان عبارةً عن «ديسكو» مع «دي جاي DJ» ومساحة واسعة للاسترخاء. بعد كلّ التوتّر الذي تراكم، كان الرقص يبعث على شعورٍ بالتحرّر. لكنّني ما كنت لأذهب أبدًا إلى مكانٍ لا يستطيع أصدقائي الفلسطينيّون دخوله، أو ذلك المكان الذي قد يُعدّ سوقًا حرّة. إلى ذلك، كان أمير، الشابّ الإسرائيلي الذي يقف عند المدخل، يعرف أبو حسن. وكان ذلك كافيًا لجعلنا أشخاصًا مرحّبًا بهم، كما لو كنّا حاشية الباشا.

بطبيعة الحال، كان هناك جنود إسرائيليّون في كثيرٍ من الأحيان. ولكن يجب ألّا يغيب عن البال أنّ جميع المواطنين الإسرائيليّين اليهود تقريبًا سيصبحون جنودًا عاجلًا أو آجلًا. بالنسبة إلى اليهود، لا الفلسطينيّين المقيمين في إسرائيل، فإنّ الخدمة العسكريّة إجباريّة. تستمرّ ثلاث سنوات للذكور وسنتين للإناث. وبعد التجنيد، يُمكن استدعاؤهم للخدمة حتّى سنّ الأربعين، مع استثناءات قليلة. أمّا الإسرائيليّون الذين يرفضون الخدمة في الجيش، وفقًا لاعتبارات أخلاقيّة، فيمكن أن يتعرّضوا للسجن، ويمكن أن يستمرّ ذلك لأشهر.

بعد ذلك كانت أوغندا، وهو مكانٌ افتتحه الفلسطينيّون عام 1948، أيضًا في القدس الغربيّة – لكنّه أغلق أبوابه بعد مغادرتنا القدس بفترة وجيزة – وكان اسمه متحدّيًا، فقد كانت أوغندا من الأماكن التي اقتُرحت في بداية القرن العشرين لكي

يستوطنها اليهود الصهاينة ولإنشاء دولةٍ يهوديّة، قبل أن يتحقّق إمكان إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، خلال الانتداب البريطاني على فلسطين (1920-1948).

من بين الأماكن العديدة التي جلنا فيها مع جورج، لا يزال حيّ الطالبيّة وحيّ البقعة محفورَين في ذاكرتي: منطقتان متجاورتان في قلب القدس الغربيّة. هناك حيث تستكين في شوارع مُظللة بالأشجار وبين المقاهي منازل ساحرة، تبدو اليوم كأنّها تنتمي إلى أيّ مدينةٍ تنبض بالتراث. منازل أنيقة ومتفرّدة، تقوم على مزيجٍ فريد يجمع الطراز العربي بالتأثيرات العثمانيّة والأوروبيّة، وتعود إلى العائلات البورجوازيّة الفلسطينيّة التي كان لها دورٌ في بنائها بين عشرينيّات وثلاثينيّات القرن الماضي. لطالما شكّل ذلك الجزء الغنيّ من المدينة المساحة التي عاش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيّون معًا، قبل أن تفرّقهم الحرب، وقبل وصول الصهيونيّة الأوروبيّة.

معظم تلك المباني شُيّد بالحجر الكلسي ذي اللون الفاتح – حجر القدس الذي يتوهّج بالذهب عند غروب الشمس، وهذا ما يمنحها لقب «المدينة الذهبيّة» – وبنوافذٍ مقوّسة وكبيرة غالبًا ما تكون مؤطرة بواسطة أباجورات خشبيّة وتتصدّرها أسقفٌ عالية. يطلّ العديد منها على حدائق داخليّة صغيرة مؤثثة بمقاعد حجريّة، ومفروشة بأرضيّات من البلاط الملوّن. لكنّها تختبئ اليوم خلف بوابات حديثة، تتهدّل فوقها أغصانٌ نابضة بالحياة من أزهار الجهنّميّة وأشجار التين والليمون. بعضها لا يزال يحتفظ بالأبواب الأصليّة: متينة ومنحوتة يدويًا، وتتدلى منها مقابض نحاسيّة. وفي الداخل، لا تزال ثمّة أرضيّات على حالها. وقد نُسِجت من السيراميك المزخرف بأشكالٍ هندسيّة أو زخارف نباتيّة، بالإضافة إلى وجود كوّات في الجدران وأقبيةٍ ومدافئ صُمّمت حسب ذائقة بنّائيها. لكن بعد عام 1948، دهمت الميليشيات الصهيونيّة معظم هذه المنازل. أفرغتها من سكّانها، وأُجبر أصحابها على الهرب، على أمل العودة قريبًا. لكنّ ذلك لم يحدث. وبعد سبعةٍ وسبعين عامًا، لا تزال المنازل تنتظر. أمّا العودة، فلا أحد يأتي على ذكرها.

في أحد الأيّام، وبينما كنّا نتمشّى، أشار جورج إلى المنزل الذي صودرت ملكيته من جدّته. رأيناه من الخارج. سألته: «هل تريدنا أن نحاول قرع الجرس وفتح الباب، حتى تتمكّن على الأقلّ من رؤيته من الداخل؟».

لكنّه رفض رفضًا قاطعًا: «فلننسَ الأمر. لقد حاولت بالفعل، ولن أخبرك كيف عاملونا». الآن هم يسكنون هناك، أو من يدفع الإيجار عنهم، لأنّ هؤلاء «الملّاك الجدد» غالبًا لا يعيشون في منازلنا.

سمعتُ القصّة نفسها مرّاتٍ عديدة. فلسطينيّون يتمكنون من العودة إلى أماكن طفولتهم، التي توارثوها عبر ذكريات آبائهم أو أجدادهم النازحين – الناجين من النكبة – وعندما يصلون، غالبًا لا يجدون شيئًا. أحيانًا يكون المبنى قد هُدم تمامًا، وأحيانًا أخرى تُقام مبانٍ جديدةٌ مكانه. ولكن ربّما ما حدث لجورج يؤلمني أكثر: أن تعود وترى منزل عائلتك في مكانه، تحاول الدخول ولو لمرّة واحدة فقط لكي ترى، فيطردك بوقاحةٍ سكّانه، الذين ربّما ليسوا حتى الملّاك الجدد، بل مستأجرون، كما أوضح لي. في الواقع، غالبًا ما تكون العديد من هذه المنازل غير مأهولة، لأنّ العديد من اليهود الإسرائيليّين يحملون جنسيّةً مزدوجة ويعيشون في الخارج. حتى إنّني عرفتُ أشخاصًا عملوا في منظمات دوليّة واستأجروا منازل كانت تنتمي إلى فلسطينيّين أصبحوا لاجئين في عام 1948. بالنسبة إليّ كان أمرًا مُقزّزًا، لكن للأسف، لا يُفاجئني كثيرًا، لأنّ المغتربين، الذين كنتُ أنا وماكس جزءًا منهم، ليسوا حاملي سلام لا يمكن التعبير عنه بالكلام وحسب، بل غالبًا ما يكونون منفصلين عن الواقع لدرجة أنّهم لا يشعرون برائحة الأرض التي يمشون فوقها. عاشوا من دون أيّ معرفة حقيقيّة بالأماكن حيث وجدوا، وقد لاحظتُ أنّ فكرة الوجود هناك متخفّيًا في هيئة المُنقذ الأبيض قد لازمت ومنعت العديد من زملائي وأصدقائي، وخاصّةً أولئك الذين عملوا في الأمم المتحدة، من مساءلة أنفسهم. بدأتُ أرى في عملهم وفي حقيقة عيشهم على تلك الأرض جزءًا من المشكلة التي جاؤوا لحلّها.

في الواقع، على الرغم من أنّ منطقتَي الطالبيّة والبقعة جميلتان نظريًّا، ومليئتان بالحانات والمطاعم الساحرة، لطالما مثّلتا بالنسبة إليّ فضاءً للصراع من الداخل. فهناك، يتجلّى الاستحواذ الثقافي بقوّة، بدءًا من المزج العجيب بين المطبخ الفلسطيني مع التأثيرات الشرق أوروبيّة. ستجد في قوائم الطعام الحمّص دائمًا، وبابا غنوج، والفلافل، وزيت الزيتون، والصعتر، إلى جانب حساء اللفت والملفوف... بالطبع، كان يمكن لفكرة الاندماج في فنّ الطهو بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين أن تكون مثيرةً للاهتمام، لو لم تحمل معها نكهة الفصل العنصري،

ولو لم تكن إسرائيل هي الدولة التي تسعى أكثر من أيّ دولة أخرى إلى طمس الهويّة الفلسطينيّة وشيطنتها من خلال هذه العمليّة. لذا، فإنّ مطبخ الطالبيّة، لم يبدُ لي تلاقيًا ثقافيًا. إنّه يرمز إلى التطبّع مع التطهير العرقي للفلسطينيّين، والذي يتجلّى أيضًا من خلال اختلاس ما كان ولا يزال ثقافةً فلسطينيّة. إن لم تحدث معجزة، أخشى أن يستغرق الأمر عقودًا قبل أن نقضي على مناخ التمييز والإساءة الذي يتخلل كلّ شيء اليوم، بما في ذلك قوائم المأكولات في المطاعم.

لهذا السبب، أعتقد أنّ القدس الشرقيّة أي الجانب الآخر من المدينة – وهي جزءٌ لا يتجزأ من الضفّة الغربيّة الخاضعة للاحتلال العسكري الإسرائيلي – تُمثّل نوعًا من الحدود الاستعماريّة: واقع يتميّز بالصراع المستمرّ بين السكّان الفلسطينيّين المحليّين (الأرمن والمسيحيّين والمسلمين) وبين عمليّات التهويد، أي الفرض التدريجي للوجود والسيطرة والثقافة اليهوديّة الإسرائيليّة، التي تمسّ جميع مجالات الحياة اليوميّة. هذا لا يعني إنكار التراث اليهودي القويّ للقدس، بالنظر إلى اليهود العرب الذين عاشوا في القدس قبل قيام دولة إسرائيل. لكن، كما كتب العديد من المؤرّخين، بمن فيهم المؤرّخون الإسرائيليّون، مثل مناحيم كلاين Menachem Klein، فإنّ الحياة الجماعيّة لليهود العرب من جهة، والمسلمين والمسيحيّين منهم من جهة أخرى، قد تأثّرت سلبًا بانتشار الصهيونيّة منذ النصف الأول من القرن العشرين فصاعدًا. لم تلتئم تلك الجروح أبدًا؛ أو بالأحرى، لم تلتئم بعد.

هنا يبرز أحد أكثر الأسئلة تعقيدًا وحساسيّةً بالنسبة إلى معظم الذين لا يملكون معرفةً عميقة بتاريخ فلسطين. سؤالٌ لطالما طرحناه، في أحاديثنا وجولاتنا مع أصدقائنا الفلسطينيّين، وفي مراحل لاحقة من حياتنا، مع أصدقائنا الإسرائيليّين: من هم السكّان الأصليّون الحقيقيّون لتلك الأماكن؟ القول بأنّ الفلسطينيّين (الذين يُعرّفون بأنّهم غير اليهود الذين يعيشون، أو الذين ينحدر تاريخهم، من ذلك الجزء من الأرض التي نسمّيها مقدّسة) هم سكّان أصليّون، لا يعني في الواقع أنّ اليهود ليسوا كذلك.

في نهاية القرن التاسع عشر، ومع بداية تراجع الإمبراطوريّة العثمانيّة، تزامنًا مع ظهور الصهيونيّة الأوروبيّة التي حدّدت خططًا لإنشاء دولةٍ يهوديّة، تركّزت على الهجرة اليهوديّة والسيطرة السياسيّة والثقافيّة على السكّان المحليّين، كانت

فلسطين التاريخيّة موطنًا لسكّانٍ أغلبيّتهم مسلمة، بالإضافة إلى أقليّات مسيحيّة ويهوديّة: كانوا جميعًا «عرب فلسطين». في أعقاب الاضطهاد في أوروبا الشرقيّة والتمييز القائم على معاداة الساميّة والمتفشّي في جميع أنحاء أوروبا، والذي أدّى إلى فظائع المحرقة، هاجر آلاف اليهود تدريجًا إلى ما كان في البداية أراضي عثمانيّة ثمّ أصبح لاحقًا تحت الانتداب البريطاني. مثّل هذا خطوةً مهمّة على طريق المشروع الاستعماري الصهيوني، الذي كان من بين مؤسّسيه النمساوي ثيودور هرتزل، والروسيّان حاييم وايزمان وڤلاديمير زئيف جابوتنسكي، والبولندي دايڤد بن غوريون الذي أصبح عام 1948 أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل.

أصبح «العلياه»*، وهو مصطلح عبري يعني «الصعود» حرفيًّا بالعربيّة، يُستخدم لوصف الهجرة اليهوديّة إلى أرض إسرائيل، وصار محوريًّا للحركة الصهيونيّة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

لذا، يصحّ القول إنّ جاليةً يهوديّة كانت موجودة في فلسطين قبل الصهيونيّة (ما يعادل أو يقلّ عن 10% من السكّان آنذاك). ويصحّ القول إنّ معظم اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل وبعده مباشرة، وخاصّة الناجين من المحرقة، لم تكن أمامهم خياراتٌ كثيرة، لأنّ العديد من الدول الغربيّة كانت متردّدةً في استقبالهم؛ فوجد الآلاف أنفسهم بلا مأوى، بعدما دُمّرت مجتمعاتهم وتشرّدت عائلاتهم. ويصحّ القول أيضًا إنّ العديد من الإسرائيليّين الذين يعيشون اليوم في مستوطنات الضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة، ويحتلّون منازل وأراضي فلسطينيّة، يحملون أسماءً ولهجاتٍ أميركيّةً وبلجيكيّة وفرنسيّة وأوستراليّة وكنديّة. وفي كثيرٍ من الأحيان، لا هم ولا آباؤهم وُلدوا في إسرائيل، بل يأتون طواعيةً من مدنٍ أخرى يقيمون فيها. رغم إقامتهم في الخارج، يحتفظون بملكيّة

---

* يُقدَم مصطلح «العلياه» في الخطاب الصهيوني كعمليّة صعود روحي ووطني يربط اليهود بأرض إسرائيل التاريخية، لكنّه من منظور نقدي يمثل إعادة صياغة لسردية وطنية تختزل تاريخ اليهود في الشتات إلى مجرد انتظار للعودة. ينتقد المؤرخ شلومو ساند هذه الرؤية، معتبرًا أن فكرة «العلياه» كعودة أصلية لليهود إلى وطنهم التاريخي ليست إلا بناءً سياسيًا حديثًا، ويفنّد الأساطير التي تحاول ربط الهوية اليهودية حصريًا بأرض فلسطين. بهذا، تُظهر العلياه أبعادًا أيديولوجية تعيد تعريف الانتماء والهوية بما يخدم مشروع تأسيس دولة قومية، متجاوزة التنوّع التاريخي والجغرافي للجاليات اليهودية حول العالم. لذا، فإن فهم المصطلح يتطلب تجاوز الخطاب الرسمي الإسرائيلي، والتعامل معها كظاهرة معقدة تجمع بين الدين، السياسة، والذاكرة الجماعية.

أو سيطرة على ممتلكات في الأراضي المحتلة، بما يُسهم في المصادرة المنهجيّة لكلّ ما يملكه الفلسطينيّون.

العيش في القدس يعني أيضًا السير في الشارع ورؤية ممتلكات عائلة وقد تراكمت على الرصيف، بينما ينتقل أحدهم إلى منزلها، وكأنّ شيئًا لم يكن.

يتبع الإسرائيليّون طرقًا مختلفة للاستيلاء على منازل فلسطينيّة. لا عيب أصيلًا بالرغبة في شراء عقار، لكنّ النقطة المهمّة، هي أنّه في القدس، كما في أماكن أخرى، ليس الأفراد هم الذين يقعون في غرام منزلٍ ويقرّرون شراءه، بل منظمات تعمل لتحقيق مشروع سياسي محدّد لتهويد ما بقي من فلسطين. أحد رموز هذا النظام، وأكثرهم عدوانيّةً، هو دانيال لوريا: الشخص نفسه الذي تشاجرنا معه أنا وصديقي إبراهيم عند الحائط الغربي. بعد سنوات، عرفته عندما شاهدته في فيلمٍ وثائقي عن المستوطنين، حيث كان يشرح بفخرٍ التزامه «بتسهيل» بيع وشراء المنازل والأراضي الفلسطينيّة للمساعدة في عودة اليهود. في فيلمٍ وثائقي لوصف عمل منظّمة عطيرت كوهانيم، التي يقودها لوريا، يُصوَّر مستوطنٌ آخر في مشهدٍ انتشر على نطاقٍ واسع، حيث تقول له منى الكرد، شقيقة محمد التوأم: «أنت تسرق منزلي!»، فيردّ عليها بلا أيّ خجل: «إن لم أسرقه أنا، فسيسرقه أحد غيري». ومع وجود أشخاصٍ مثل لوريا، فمن يستطيع إيقافه؟

تُخلي منظمة عطيرت كوهانيم الفلسطينيّين – غالبًا بسندات ملكيّة مشكوكٍ فيها – أو تُقنعهم ببيع منازلهم. يوافق البعض على ذلك بدافع اليأس وينبذهم المجتمع على ذلك، أو يبيعون منازلهم سرًا ويهربون إلى الخارج. وبكلّ بساطة، هناك من يُطردون من منازلهم.

حتى عندما تكون عمليّات الاستحواذ قانونيّة، فإنّها تظلّ جزءًا من الاحتلال، لأنّها تستخدم وسائل قمعيّة. فوق منزلنا في القدس مباشرةً، كان المستوطنون موجودين. وكان وجودهم دائمًا ظاهرًا ويشير إليه وجود حرّاس أمنيّين وأعلام إسرائيليّة، ونسخ من شمعدانات عملاقة مُثبتة على الأسطح... حتى آرييل شارون نفسه اشترى منزلًا في القدس الشرقيّة. منزل لم يكن في شارعٍ جانبي، بل في مكانٍ ظاهر للعيان، في فسحة تقع قرب باب العامود، وقد مررتُ بها في طريقي إلى البيت النمساوي. وقد شاهدتُ هناك مرارًا عمليّات تفتيش وحشيّة وضرب لشبّانٍ

فلسطينيّين على أيدي جنودٍ إسرائيليّين. كان من الضروري أن يقع هذا المنزل في منطقة عبور تحديدًا، فقد أريد له أن يكون مبنى رمزيًا. فهذا يُسهم أيضًا في إبقاء التوتر دائمًا في القدس. عندما تعبر الحيّ العربي في البلدة القديمة للذهاب إلى الحائط الغربي أو إلى الحرم القدسي الشريف، تقع في مرمى بصرك أعلامٌ إسرائيليّة ضخمة ورموز يهوديّة على منازل كانت حتى وقت قريب مأهولةً بالفلسطينيّين. بالنسبة إلى الفلسطينيّين، فإنّ إمكانيّة العودة إلى ديارهم والعثور على مستوطنين في داخلها، كما حدث لكثيرين منهم، هي مصدرٌ لعذابٍ لا ينتهي.

***

خلف ذلك الجمال العظيم – حيث تزدحم الحياة في أزقّتها الصاخبة التي تمتلئ بالمتاجر وبالذاهبين إلى الصلاة، وحيث يغمرك سحرها عندما تنظر إليها من أعالي جدرانها الشامخة، من سطحٍ أو شرفة، وربّما عندما تحين ساعة الصلاة عند العرب في اللحظة التي تخرج فيها الترانيم المعبّرة من جميع المآذن – خلف ذلك الجمال العظيم لطالما غرست القدس بداخلي شعورًا بالكآبة. سواءٌ عندما عشت فيها أو في كلّ مرّة كنت أعود إليها، كنت سعيدةً بوجودي هناك، ولكن في الوقت نفسه كنت أشعر بفراغ، ببردٍ في داخلي. مرّةً تلو المرّة، وكلما وطئت قدماي أرضها، كانت خطوتي أشدّ وطأةً من سابقتها. على الرغم من كونها مدينةً نابضة بالحياة، تبدو كما لو أن شيئًا ما انتُزع منها، ولم يعد إلى مكانه أبدًا. ومن يعاني بالتحديد، هم السكّان الفلسطينيّون.

لطالما كانت القدس مركزًا أساسيًّا لحياة الشعب الفلسطيني؛ ليس فقط لأسباب دينيّة، بل أيضًا لأنّها – على الأقلّ حتى بناء الجدار العازل الذي أقامته إسرائيل في الضفّة الغربيّة – تقع على مفترق طرقٍ تجاري شكّل جسرًا بين شمال هذه المنطقة وجنوبها. أمّا النقاط الرئيسيّة الأخرى فهي نابلس والخليل. لكنّ القدس كانت المحور المركزي الذي يتقاطر الجميع إليه قبل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. أمّا اليوم، فقد أصبحت معزولة، ومغلقةً بالجدار (الذي اعتبرته محكمة العدل الدوليّة عام 2004 غير قانوني ويجب تفكيكه، من دون أن يكون لهذا القرار أيّ تأثيرٍ ملموس). هكذا، يستطيع الفلسطينيّون في القدس اليوم

السفر إلى الضفّة الغربيّة، بينما لا يستطيع سكّان الضفّة الغربيّة دخول المدينة إلّا بتصاريح صادرة عن إسرائيل، غالبًا ما يكون الحصول عليها صعبًا، إن لم يكن مستحيلًا. كان أثر هذه العمليّة كارثيًّا على الاقتصاد المحلّي، لأنّ الرعاة والبدو والعديد من الفلسطينيّين المنخرطين في الأنشطة الريفيّة والحرفيّة كانوا مرتبطين بتجارة المدينة. على سبيل المثال، كانت القدس مركزًا لبيع منتجات الألبان، ومن هناك تُوزَّع إلى جميع أنحاء المنطقة. الآن انتهى كلّ شيء. وكما أبرزت منظمة العفو الدوليّة أيضًا في تقريرها لعام 2022 الذي حمل عنوان «الفصل العنصري الإسرائيلي ضدّ الفلسطينيّين»، فإنّ الفلسطينيّين يعيشون تحت سلطات قضائيّة متمايزة، ويخضعون لأنظمة صارمة قائمة على التصاريح الأمنيّة التي تفصلهم بعضهم عن بعض، وتعزلهم عن أراضيهم وعائلاتهم.

أصبح إدخال المنتجات الفلسطينيّة إلى المدينة معقدًا بشدّة، لدرجة أنّ الأمر ينتهي بالتجّار إلى بيع منتجات المستوطنات. هذا الأمر فاجأني كثيرًا في الأيّام الأولى. ولكنّه مجرّد جانبٍ آخر من هذا الواقع السكيزوفريني، الذي يصعب التعامل معه. ابتداءً من تشرين الأول/أكتوبر 2023، ومع تزايد القيود، والهجمات، والانتهاكات، وغياب الزوّار، أغلقت جميع المتاجر الفلسطينيّة التي أعرفها تقريبًا. وتراجعت السياحة كثيرًا. قد تكون بعض أكشاك عصير البرتقال والرمّان لا تزال مفتوحةً للحجّاج القلائل الذين ما زالوا يزورون المدينة... ولكن ماذا عن البقيّة؟ في القدس، تعتمد العديد من العائلات الفلسطينيّة العاملة في قطاعي الضيافة والمطاعم على السياحة الدوليّة على نحوٍ تامّ تقريبًا. أتذكّر أنّه، حتى قبل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، كان من النادر جدًّا رؤية إسرائيليّين يغامرون بدخول المناطق العربيّة من المدينة. في الواقع، إن أخذت سيّارة أجرة في القدس الغربيّة، فليس هناك ما يضمن أن يوافق السائق على الذهاب إلى القدس الشرقيّة، خوفًا من هجماتٍ محتملة. سواءٌ أكانت هذه المخاوف مبرّرة أم لا، فإنّها تجعل القدس مدينةً «منقسمة طبيعيًّا»: مثل بحيراتٍ تتدفّق فيها تيّاراتٌ من المياه بألوانٍ مختلفة بعضها قرب بعض من دون أن تختلط. لكن هنا، لا شيء طبيعيًّا سوى المظهر. جوهر الأمر هو نظامٌ يقوم على الفَصل، فصل عنصري، أو بالأحرى، فصل عرقي ديني. أپارتهايد.

غادرتُ القدس أواخر عام 2012، حاملةً ابنتي ليلى في رحمي. وكان ماكس قد غادر بعد انتهاء الصيف بقليل، منتقلًا إلى واشنطن. وبينما كنتُ أنتظر اللحاق به، بقيتُ هناك وفقًا للشروط الصحّية التي يسمح بها الحمل. انتظرتُ حتى فرغ المنزل من الأثاث. وفي صباحٍ من أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، دفع ضوءُ الشمس ظلالَ أغصان شجرة الرمّان من الشرفة إلى أرض غرفة النوم. لم يكن بقي شيءٌ سوى الفراش. كان ذلك هو الوداع.

وجدني جورج على هذا النحو وأنا جالسةٌ على الأرض حافية القدمين، فيما تغمرني الظلال. مدّ يده ليساعدني على النهوض، وذهبنا لتناول فطورنا الأخير في صلاح الدين. لم يسايرني صاحب المطعم كما يساير الزبائن عادةً، فقد سئم منّي ومن هوسي بالفلفل الأخضر على الفطور. ثمّ توقفنا لنلقي التحيّة على الأخوين منى، مالكي المكتبة التعليميّة، حيث اشتريتُ رزمةً أخرى من الكتب قبل أن أغادر. رافقني جورج خلال سلسلة الوداع محافظًا على ابتسامته اللطيفة والماكرة. كلّما تفوّهتُ بكلمةٍ حمقاء كان يناديني «حبيبتي»*. وعندما كان يريد أن يكون جادًّا، كان يناديني «فرنشي» أو «كْبِيري»** ومن القدس فصاعدًا، كنتُ «فرنشي كبيري» (طويلة القامة) لأُميّز نفسي عن صديقتنا العزيزة الأخرى، فرانشِسكا بومبي. بالنسبة إلينا جميعًا، كانت ولا تزال «فرنشي زغيري» [الصغيرة].

بعد مغادرة القدس، التقينا أنا وماكس وجورج مجدّدًا بعد فترةٍ قليلة نسبيًّا. في آذار/ مارس، كان أول شخصٍ عزيز، بعد ماكس وأمّي، يعانق ليلى، في يومها الثاني من الحياة، داخل عيادةٍ بمدينة واشنطن. ومع مرور الوقت، لم يغب عنّا «العمّ جورج»، الذي استمرّ في زيارتنا في الولايات المتحدة وإيطاليا، كما كنت أجد دائمًا طريقة لألقي التحيّة عليه كلما عدت إلى فلسطين، خلال سنوات البحث ووضع كتابٍ عن اللاجئين الفلسطينيّين.

---

* في العامّية الفلسطينيّة، تُستخدم كلمات «حبيبي» و«حبيبتي»، على نطاقٍ واسع كألقاب تعبيريّة تُظهر المودّة والاحترام، فتُقال بين الأصدقاء، أفراد العائلة، وحتى بين الغرباء، كشكلٍ من أشكال التودّد واللطف في الحديث اليومي، وتُعبّر عن القرب والتقدير بغضّ النظر عن نوع العلاقة.

** والقصد كبيرة، لكن بالعاميّة الفلسطينيّة.

ثمّ انهالت علينا الإبادة الجماعيّة كالصاعقة. لم نعد نتحدّث كثيرًا. بعد عام، عاودنا الكتابة أنا وجورج. أخبرني أنّه أصيب بانهيارٍ عصبي، وأنّه لم يكن على ما يُرام، وربّما عانى من بعض الاكتئاب. وفي النهاية، مَن مِن الفلسطينيّين اليوم لا يشعر بالاكتئاب؟

أنا أيضًا مررتُ بلحظات انهيار. أتذكّر الأسابيع الأولى من الإبادة الجماعيّة، بين تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2023. كنتُ أبكي كثيرًا لأنّني لم أستطع استيعاب كلّ ذلك الموت في رأسي. مئتان، مئتان وخمسون شخصًا يوميًّا، والأطفال، والقصص المروّعة التي سمعتها... حاولتُ المقاومة، لكن في تلك الفترة كنت منعزلة تمامًا، وأحيانًا حتّى عن طفليَّ أو عن أمّي، التي كان عقلها يتلاشى في تلك الأثناء. كلّ صباح كان عليّ أن أستيقظ، وأن أحصي أعداد القتلى، وأن أحاول فهم ما حدث. أتحقّق من المعلومات، أتحدّث إلى خبراء آخرين، أردّ على المكالمات من غزّة أو من الضفّة الغربيّة، أجيب على أكبر عددٍ ممكن من طلبات الصحافيّين، أتذكّر أن أتنفّس. لديّ ذكرى حيّةٌ تعود إلى صباحٍ من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، عندما كنتُ في إيطاليا، وأجريتُ مقابلةً مع هيئة الإذاعة البريطانيّة (بي بي سي)، بعينين بدتا كعيون الضفادع، وذلك لشدّة بكائي منذ الساعات الأولى ذلك اليوم، وأنا أشاهد صور دمار غزّة، عاجزةً عن كبح جماح الضيق الذي أثارته بداخلي هجمات الانتقام الخالية من مظاهر الإنسانيّة، والتي استمرّت بالتصاعد بجحافل الجنود المدجّجين بالزيّ العسكري والجاهزيّة المتواصلة للهجوم.

تلت ذلك أشهرٌ تخللها اختناقٌ تامّ.

ثمّ، شيئًا فشيئًا، فهمت أنّه يجب عليّ تعلّم بناء جدارٍ بيني كشخصٍ وبين كلّ شيءٍ آخر، لأتمكّن من العودة إلى حياتي. ولكن في منتصف الطريق، لطالما تعثّرت، وتقبّلت فكرة أنّ ثمّة ما تغيّر إلى الأبد. أنّني أنا أيضًا فقدتُ شيئًا لن يعود.

في غضون ذلك، تصدّرت المكتبة التعليميّة عناوين الصحف في الأشهر الأولى من عام 2025. دهم الجيش الإسرائيلي المكتبة مرّتين، واعتقل أصحابها ونهب رفوفها. صادر جميع الكتب التي تحمل علم فلسطين على غلافها، أو أيّ شيءٍ لم يعجب الجيش، بما في ذلك نسخةٌ من مجلّة إسرائيليّة، وكتاب تلوين للأطفال

صودر كدليل على التحريض على الإرهاب، وبحث قصير عن الوضع القانوني للاجئين الفلسطينيّين في القانون الدولي بعنوان «اللاجئون الفلسطينيّون في القانون الدولي»، كنت قد كتبته مع ليكس تاكِنبرغ Lex Takkenberg ونشرته مطبعة جامعة أوكسفورد عام 2020. في الواقع، يبذل الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي جهدًا كبيرًا لقمع أيّ محاولة لخلق وعي جماعي، فلسطيني ودولي، يُبرز حقيقة الاحتلال. وإلّا فلماذا يُدمّرون أماكن الثقافة، التي هي في الواقع ليست سوى مساحات للمقاومة السلميّة للاحتلال؟

العيش في القدس يعني كلّ هذا أيضًا.

***

آلون

كيف يمكن التعرّف إلى الشخص المعادي للساميّة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت كلمة «الأبارتهايد» مصطلحًا جديدًا، لكنّ الفكرة قديمة. وتعني حرفيًا: «الانفصال» أو «التفرقة». ما كان قائمًا بشكلٍ أو بآخر بحكم الواقع (de facto) كان لا بدّ مِن أن يُفرض بحكم القانون (de jure) وبلا رحمة. كان لا بدّ من ترسيخ نظام الفصل في منظومةٍ موحّدة، شيطانيّةٍ في تفاصيلها وجارفةٍ في قوّتها، على نحوٍ يجعل الإفلات من نطاقها مستحيلًا.

نِلسُن مانديلا

اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وفي ظلّ اتّهام الفلسطينيّين – وهم كشعبٍ ضحيّةٌ لإبادةٍ جماعيّة اليوم – بمعاداة الساميّة، بينما هم أشخاصٌ يُناضلون من أجل العدالة، من الضروري فهم المعنى المقصود بـ«معاداة الساميّة»، والمخاطر التي قد تنشأ عن الاستخدام الخاطئ لهذا المصطلح.

عندما أصبحتُ مقرّرةً خاصّة للأمم المتحدة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلة، في أيّار/ مايو 2022، كنتُ قد تعرّضتُ لعددٍ هائل من الإهانات، بل وُضعت عدّة تقارير ضدّي. حمل معظمها توقيع منظّمة بائسة روحًا وفهمًا لحقوق الإنسان، لكنّها كانت فعّالةً في التشهير المنهجي بكلّ من يجرؤ على انتقاد دولة إسرائيل. هذه هي وظيفة منظمة «مراقبة الأمم المتحدة»: نظريًّا، هي عبارةٌ عن هيئة أُنشئت لمراقبة الامتثال لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة، تعزيز حقوق الإنسان، ومساءلة الحكومات داخل منظومة الأمم المتحدة. أمّا عمليًا، فهي أداةٌ حقيقيّةٌ للدعاية الإسرائيليّة داخل الأمم المتحدة. لكن من يعرِف إسرائيل لا يُفاجأ.

خلال الصيف الأول من ولايتي، دُعيتُ لتقديم إفادتي في جلسة استماع عقدتها اللجنة الدائمة للشؤون الخارجيّة والمجتمعيّة في مجلس النواب الإيطالي. وخلال العرض، تدخّل الرئيس آنذاك، پييرو فاسّينو Piero Fassino، معتبرًا تفسيري للقضيّة الإسرائيليّة الفلسطينيّة تفسيرًا «أحادي الجانب»، وحثّني على أن أكون «طرفًا ثالثًا». باختصار، اعتبرني متحيّزة.

بسذاجة المبتدئين، أصبتُ بدهشةٍ تامّة. بأيّ معنًى أكون متحيّزة؟ كيف لشخصيّةٍ سياسيّة أن تطالب موظفًا دوليًا بالحياد قبِل الدعوة بلطف، لتقديم تقريرٍ عن وضعٍ على درجةٍ عالية من الخطورة؟ أكثر من ذلك: لم أستطع أن أفهم ببساطة... لماذا دعوني ثمّ هاجموني؟ أثارت القضيّة فوضى داخل اللجنة آنذاك، إذ دافعت لاورا بولدريني Laura Boldrini وآخرون عنّي. وفي نهاية الأمر، أصبح الأمر قضيّة رأي عامّ.

تبعت ذلك سلسلةٌ من الرسائل المفتوحة بيني وبين فاسينو، على مراحل متعدّدة، وبوساطة من رئيس مجلس النواب آنذاك، روبرتو فيكو Roberto Fico. وفي خضمّ تلك المراسلات تحديدًا، التقيتُ بآلون كونفينو Alon Confino، وهو أستاذ جامعي إيطالي إسرائيلي، كان يُدرّس التاريخ والدراسات اليهوديّة في الشرق الأدنى بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وكان مديرًا لمعهد دراسات المحرقة والإبادة الجماعيّة والذاكرة في الولايات المتحدة.

كان آلون يتابع القصّة في الصحف الإيطاليّة، فكتب إليّ قائلًا: «أتابع ما يحدث. إنّه لأمرٌ مُخزٍ، وأودُّ مساعدتك. أخبريني إن كان بإمكاني كتابة شيءٍ ما».

وبالفعل، كتب رسالةً مفتوحة باللغة الإنكليزيّة، بلغةٍ جميلة، وساعدته في ترجمتها، لأنّه لم يكن واثقًا من قدرته على القيام بذلك بمفرده، على الرغم من أنّه كان يتحدّث الإيطاليّة بطلاقة. أرسلها إلى صحيفة «لا ريپوبليكا» التي لم تنشرها؛ مثلها مثل الصحف الأخرى التي أرسلها إليها. في النهاية، لم تُنشر رسالته المفتوحة إطلاقًا. ولكن منذ تلك الحادثة، نشأ بيننا تعاونٌ وثيق، وصداقةٌ جميلة استمرّت حتى آخر أيّام آلون، في حزيران/ يونيو 2024.

في بداية تعارفنا، لفت آلون كونفينو انتباهي إلى قضيّةٍ بالغة الأهمّية، إذ عرّفني إلى السجال الداخلي بين العلماء اليهود حول العالم، بشأن تعريف معاداة الساميّة الذي اقترحه «التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة» (IHRA).

في الحقيقة، ينبغي أن يكون معنى معاداة الساميّة واضحًا بحدّ ذاته: إنّها تتكوّن من الكراهية والتمييز والتحامل والعنف ضدّ اليهود لأنّهم يهود، كما أنّ الإسلاموفوبيا هي كراهية وتمييز وتحامل وعنف ضدّ المسلمين لأنّهم مسلمون، وعلى هذا المنوال.

بدلًا من ذلك، اقترحت هذه المنظمة في عام 2016 تعريفًا طويلًا، شديد التعقيد، ومفرطًا في التملّق: «معاداة الساميّة هي تصوّر مُعيّن لليهود يُمكن التعبير عنه بكراهية اليهود. تتوجّه مظاهر الإساءة البالغة لفظيًّا وجسديًّا لمعاداة الساميّة نحو اليهود أو غير اليهود، أو نحو ممتلكاتهم، ونحو المؤسّسات المجتمعيّة اليهوديّة، والمباني المُستخدمة للعبادة». يُصاحب هذا التعريف، الذي يبدو غير مؤذٍ، أحد عشر مثالًا عمليًّا يربط معاداة الساميّة بانتقاد دولة إسرائيل وسياساتها.

يكمن خطر هذا التعريف في أنّه يُجيز اعتبار أيّ انتقاد لدولة إسرائيل عملًا معاديًا للساميّة. بإيجاز شديد، بما أنّ إسرائيل تُعرّف نفسها على أنّها «دولة يهوديّة»، فإنّ انتقادها قد يُعدّ معاداةً للساميّة، سواءٌ وُجدت انتهاكاتٌ مُوثّقة تُنسب إلى إسرائيل أم لا. هذه المعادلة مؤذية، ولم أكن الأولى ولا الوحيدة التي أيّدت وصفها على هذا النحو. كما أخبرني آلون مرارًا، فإنّ الخلط بين انتقاد دولة إسرائيل ومعاداة الساميّة أمرٌ بالغ الخطورة، سواءٌ للفلسطينيّين أو لليهود أنفسهم: لأنّه، من جرّاء التفكير بهذه الطريقة، يربط المرء فورًا جميع اليهود بدولة إسرائيل. لكن هذا ليس صحيحًا. كان آلون إسرائيليًا، وأحبّ إسرائيل حبًّا عميقًا، ومثله، هناك العديد من اليهود الأميركيّين أو الأوروبيّين الذين لا يريدون أن تربطهم أيّ علاقة بجرائم دولة إسرائيل. كثيرٌ من هؤلاء اليهود معادون للصهيونيّة، وآخرون ليسوا معادين لها علنًا، وهناك آخرون ليسوا كذلك على الإطلاق.

بالإضافة إلى ذلك، بالمساواة الخاطئة بين معاداة الصهيونيّة وانتقاد دولة إسرائيل، فإنّنا نفشل في معالجة معاداة الساميّة الفعليّة. إنّها معاداةٌ بغيضة وكريهة ولكنّها لا تزال موجودة: تلك الصادرة عن اليمين، والتي ترى اليهود – مثل

العرب أو المثليّين – كشيءٍ نجس يجب إزالته من النظام الغربي لكي يحافظ الأخير على نقائه. يبدو أنّ فكرة تفوّق العِرق، التي حوّلتها ألمانيا النازيّة إلى أيديولوجيّة سياسيّة للإبادة قبل قرنٍ من الزمن، لم تختفِ مع هتلر، كما يقول الباحث الإسرائيلي راز سِيغال Raz Segal، أستاذ دراسات المحرقة والإبادة الجماعيّة في جامعة ستوكتون في نيوجيرسي. لقد اختفت هذه الأيديولوجيّة وتحوّلت، لكنّها لا تزال تنبض في عروق مجتمعاتنا، حتّى في المجتمعات الغربيّة التي تدّعي أنّها ترتكز في وجودها على حقوق الإنسان والحرّيات الأساسيّة.

سلط راز سِغال الضوء على كيفيّة عودة مفاهيم التفوّق العرقي إلى الظهور في السياقات المعاصرة، ملقيًا الضوء على استخدام خطاب يجرّد الفلسطينيّين من إنسانيّتهم ويستحضر أيديولوجيّات التفوّق العرقي.

وعند التدقيق، يتبيّن أن أسطورة العرق لم يخترعها هتلر أصلًا، بل إنّه جعل منها شعارًا سياسيًا للتدمير والإبادة. إنّه ذئب في ثوب الحمل، يتجول بيننا على مدى خمسمئة عام من الاستعمار، بدءًا من عام 1492... وما تعلّمت في طفولتي أن أسمّيه «اكتشاف أميركا» ليس في الواقع سوى الحدث الذي يُمثّل بداية النهاية للآلاف من شعوب القارة الأميركيّة. من خلال تلك السفن الثلاث، أصبح كريستوفر كولومبوس أداةً تخدم هوس السلطة لدى إيزابيلا، ملكة إسبانيا، التي سعت إلى الاستيلاء على الذهب والموارد. وبوصوله إلى «العالم الجديد» (أرض شعوب أصليّة ذات تقاليد عمرها آلاف السنين، مثل إيروكوا، أپاتشي، نافاجو، سيوكس، شيروكي، إنويت، إنكا، ماپوتشي، موسكا، وغواراني، وغيرهم الكثيرين)، دشّن كولومبوس بداية الاستغلال في أميركا اللاتينيّة، الذي أعقبه غزو أميركا الشماليّة، حيث استولى الآباء الحجّاج، الفارّون من المجاعة في أوروبا، على الأراضي التي كانت تسكنها مئات الشعوب الأصليّة، والمهدّدة اليوم بالزوال من التاريخ. من الأمثلة الواضحة على ذلك، أنّ تاريخ دولةٍ قائمة على الإبادة الجماعيّة، كالولايات المتّحدة، يُروى ابتداءً من 4 حزيران/ يوليو 1776، عندما انفصلت المستعمرات الثلاث عشرة عن بريطانيا العظمى مع إعلان الاستقلال. وقد مثّل هذا الحدث ميلاد الولايات المتحدة كدولةٍ ذات سيادة، بغضّ النظر عن حقيقة مفادها أنّ عشرات الملايين من السكّان الأصليّين كانوا قد قُتلوا، وفقًا للتقديرات، فقط في

أول 150 عامًا من الاستعمار الأوروبي للأميركيّتين، الذي بدأ في عام 1492، إمّا بسبب الغزو العسكري أو العبوديّة أو الترحيل، أو بسبب انتشار الأمراض التي جلبها الأوروبيّون، والتي لم يكن للسكّان الأصليّين مناعةٌ ضدّها.

نادرًا ما تُناقش هذه الإبادات الجماعيّة، التي تسبّبت بانهيارٍ ديموغرافي تراوحت نسبته من 70 إلى 90% من السكّان الأصليّين في العديد من المناطق، أو تُعرض في سياقٍ يبعث على الاطمئنان ويُضفي شكلًا طبيعيًا على الجريمة البشعة. صوّرت جميع أفلام الوسترن (بما في ذلك فيلما «الجندي الأزرق» و«الرقص مع الذئاب»*) إبادة ما يُسمّى «الهنود الحمر» على أنّها خياليّة، وذلك التعبير [الهنود الحمر] هو الآخر ليس سوى مصطلح عنصري ومُهين بحدّ ذاته. يكتب المنتصرون التاريخ، وهم غالبًا ما يكونون مرتكبي المجازر. لكن الذين يبقون، يحملون تاريخهم المكتوب في داخلهم. يترسّخ في ذاكرتهم وفي بصمتهم الوراثيّة. وبمجرّد أن تتاح لهم فرصة الإمساك بالقلم، يُصحّحونه: على سبيل المثال، يُعدّ كتاب «إعادة اكتشاف أميركا» لكاتبه نِد بلاكهوك Ned Blackhawk من أكثر الكتب تنويرًا التي قرأتها خلال هذا العام والنصف الطويل وعلى وقع الإبادة الجماعيّة في فلسطين. وما هو إلّا نصٌّ تاريخي عمّا تمخض عنه إنشاء الولايات المتحدة، ولكن من منظور الشعوب الأصليّة.

***

لا أحد اليوم، (أو لا أحد تقريبًا، على الأقلّ من الناحية النظريّة) يمكنه أن ينكر انتشار أدبيّات الاستعمار الأوروبي تجاه الشعوب الأصليّة في أميركا. فقد مرّت

* كلا الفيلمين يقدّمان تصوّرات عن تجارب الشعوب الأصلية في أميركا، إلا أن قراءتهما من منظور النقاد والمؤرخين المناهضين للاستعمار تكشف عن ثغرات جوهرية في تمثيل هذه التجارب. فيلم «الرقص مع الذئاب» (Dances with Wolves)، رغم إشادته بكرامة الشعوب الأصلية، يُنتقد لأنّه يضع الشخصية البيضاء في مركز السرد، ما يعيد إنتاج نمط «المنقذ الأبيض» ويقوّض بذلك فاعلية تمثيل الشعوب الأصلية وقدرتها على سرد تاريخها وثقافتها من منظورها الخاص. أما فيلم «جندي أزرق» (Soldier Blue)، فيُحتفى به أحيانًا كعملٍ نقدي يفضح وحشية الاستعمار، لكنّه في الوقت نفسه يواجه انتقادات تتعلق بالعنف المفرط والاستغلال المحتمل للمشاهد الصادمة، ما قد يضعف رسالته ويحوّلها إلى عرض بصري للفظائع بدلًا من أداة نقدية فعالة. هذه الانتقادات تسلط الضوء على ضرورة أن يكون الصوت أصيلًا للشعوب الأصلية في السرد، وأن تتركز الرواية على تجربتهم ومآسيهم وإنجازاتهم، بعيدًا عن العدسات الاستعمارية أو الانحياز الأبيض، لضمان تقديم صورة دقيقة وواعية عن تاريخهم وثقافتهم، وتجسيد تجاربهم الإنسانية والسياسية بشكل لا يقبل التجاوز أو التهميش.

قرونٌ عديدة، وما زال الزمن يُلقي الضوء على جوانب جديدةٍ بوضوحٍ متزايد. ومع ذلك، يبدو أنّ النقاش يصبح أكثر صعوبةً عندما يتطرّق إلى مواقف تتعلّق بالحاضر.

لقد تحدّثتُ كثيرًا عن هذه المواضيع مع آلون. بعد المراسلات الأولى عبر البريد الإلكتروني والهاتف، بدأنا تعاونًا عميقًا ومكثّفًا بشدّة. طلبتُ منه ومن صديقه المقرّب عاموس غولدبرغ Amos Goldberg – أستاذ التاريخ اليهودي واليهوديّة المعاصرة في الجامعة العبريّة بالقدس، وأحد الإسرائيليّين القلائل الذين أدانوا علنًا الإبادة الجماعيّة المرتكبة ضدّ الفلسطينيّين بعد 7 أكتوبر – أن يطّلعا على نصّ التقرير الذي كنتُ أُعدّه للأمم المتّحدة عام 2022 عن «الحقّ في تقرير المصير»، فأجابا: «حظًّا سعيدًا. المشكلة ليست في كيفيّة بناء فكرة حقّ تقرير المصير، بل في إلقاء اللوم على إسرائيل في كونها نظامًا استعماريًّا».

– لكنّها كذلك...

– نعم، نعلم أنّها كذلك، لكن كوني مستعدّة، لأنّهم سيهاجمونك بكلّ ما أوتوا من قوّة.

وكان ذلك ما حدث فعلًا. مُنعت من زيارة فلسطين، كما كان مقرّرًا في كانون الأول/ ديسمبر 2022. ولم يهدأ الهجوم عليّ بتهمة معاداة الساميّة، رغم أنّ الكثيرين هبّوا للدفاع عنّي من مختلف أنحاء العالم، من الأكاديميّين والصحافيّين وصولًا إلى الناشطين. وكان اليهود التقدّميّين دائمًا في مقدّمة المدافعين.

بفضل آلون وعاموس، ومن بين أمور أخرى، انغمستُ في عالمٍ قوامه الباحثون اليهود الإسرائيليّون والبريطانيّون والأميركيّون، الذين تعاونتُ معهم لمواجهة ما كان يحدث في الأمم المتّحدة، حيث كانت جماعات الضغط المؤيّدة لإسرائيل تعمل بكلّ الوسائل المتاحة، مُصرّةً على إجبار الأمم المتّحدة على إدراج انتقاد إسرائيل تلقائيًّا في التعريف المتّخذ لمعاداة الساميّة.

كان لهذا الضغط، في الأماكن التي طُبّق فيها بنجاح، آثارٌ حقيقيّة. تبنّت خمسٌ وعشرون دولةً من أصل سبع وعشرين دولة أوروبيّة هذا التعريف بشكلٍ أو بآخر، وهو تعريفٌ غير ملزم قانونيًا، ولكنّه أصبح معيارًا تستخدمه الحكومات والجامعات، وحتى الشركات. في إيطاليا، بدءًا من عام 2020، اعتمد مجلس

الوزراء تعريف التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA). كذلك تبنّته شركة لوفتهانزا [الألمانيّة] والعديد من شركات الطيران الأخرى.

ماذا يعني كلّ هذا؟ يعني أنّه إن ارتديتَ كوفيّة أو وضعت دبّوسًا يحمل علم فلسطين، فقد تُعدّ يومًا ما عرضةً للعقوبات، ذلك أنّه بموجب هذه المعايير، قد يُنظر إلى العلم أو غيره من رموز الهويّة الفلسطينيّة، على أنّه إهانةٌ لدولة إسرائيل أو إنكارٌ لوجودها. لقد وصلنا إلى مستوًى غير مسبوق من القمع ورفض المنطق.

بموازاة ذلك نشهد مستوًى غير مسبوق من الوعي. لم نعرف من قبل مثل هذا التشكيك المستمرّ في دولة إسرائيل. لم يسبق أن عرفنا حشدًا كهذا. ولا أتحدّث هنا عن امتلاء الشوارع وحسب، بل أيضًا عن الإجراءات القانونيّة الكبيرة التي تُتّخذ، كتلك التي تدعمها منظماتٌ دوليّة مختلفة ضدّ حكومات الدول التي تعمل فيها – حاليًا المملكة المتحدة والدنمارك وهولندا – لدعم تلك الحكومات إسرائيل ونقل الأسلحة إليها خلال فترة ارتكبت فيها جرائم دوليّةً خطيرة وجسيمة ضدّ الفلسطينيّين؛ أو مثل مؤسّسة هند رجب، الجمعيّة التي تطالب بالاقتصاص من جميع الجنود والجنديّات الإسرائيليّين والإسرائيليّات الذين يثبت تورّطهم في جرائم حرب وأعمال إبادة جماعيّة.

مع ذلك، تُبذل المحاولات في العديد من البلدان لعرقلة الإجراءات القانونيّة، تحت ذريعة «معاداة الساميّة». إذن، من جهة، ثمّة معرفةٌ ووعيٌ يتزايدان، ولكن من جهةٍ أخرى، ثمّة قمعٌ يتصاعد أيضًا: وهو مؤشّر إلى ضعفٍ جوهري في البنية العميقة لمنظومة الاضطهاد العالميّة التي تستهدف الفلسطينيّين. وهذا لا يحدث فقط على يد إسرائيل وحدها، بل أيضًا في الولايات المتّحدة وكندا وأوستراليا وأوروبا، حيث غالبًا ما يتعرّض الفلسطينيّون للتمييز، ذلك لأنّ وجودهم بحدّ ذاته قد يُمثّل تهديدًا أو إحراجًا لدولة إسرائيل.

تشويه المنطق وانعدام العقلانيّة؛ هذا كلّ ما يتجلى. أحيانًا، يبدو الأمر أشبه بالإصرار على عدم الرغبة في الفهم، وعدم القدرة على الوصول إلى جوهر القضيّة. ربّما لأنّ الفهم يُجبر المرء على التصرّف.

أعجز عن الكلام عندما أقرأ بعض المقالات التي تتحدّث عن «فلسطينيّين مُشبعين بالكراهية». لكن مَن مِنّا اليوم لا يشعر بالغضب أو الألم إزاء أفعال إسرائيل، وطريقة تنفيذها، وقدرتها على إسكات النقاش في كلّ مكان؟

على أيّ حال، مهما كانت المشاعر، لا ينبغي لها أن تُوجّه الخيارات السياسيّة. يجب أن يكون المعيار هو الشرعيّة: إنها المقياس الذي يُحدّد حدود ما يمكن للسياسة فعله، وما لا يمكنها.

عندما أصبحتُ صديقةً لآلون وعاموس وغيرهما من الموقّعين على «إعلان القدس بشأن معاداة الساميّة» (وهو بديل من التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة، وملتزم بتعريفٍ واضح: معاداة الساميّة هي كراهية اليهود لمجرّد أنّهم يهود)، وفي عام 2022، أثناء مواجهة خطر اعتماد الأمم المتحدة لتعريف التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة، قرّرتُ استشارة مقرّرين خاصّين آخرين، أولئك الذين يمكنهم، من منظور موضوعي، مساعدتنا على فهم كيفيّة معالجة هذه القضايا: حرّية التعبير، حرّية تكوين الجمعيّات، العنصريّة، والدفاع عن حقوق الإنسان. تشاورت مع المقرّرين والمقرّرات المختلفين، وكذلك مع باحثين يهود، طلبوا منّا دعم موقفهم ضدّ نشر تعريف التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA)، الذي رفضه حتى الذين وضعوه أنفسهم، وذلك بسبب الاستخدام الشائن له من قبل إسرائيل وجماعات الضغط المؤيّدة لها. قرّرنا متّحدين توجيه رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة والممثل السامي للأمم المتحدة لتحالف الحضارات، الذي فُوّض إليه التعامل مع هذا التعريف لمعاداة الساميّة.

في غضون عام، ساعدنا في جعل العمليّة التشاوريّة التي بدأتها الأمم المتحدة أكثر ديمقراطيّة، وأكثر انفتاحًا على الأصوات التقدّميّة والنقديّة. كيف يمكن للأمم المتحدة أن تتبنّى تعريفًا لا يصلح للتعريف وحسب، بل إنّه مثيرٌ للجدل وخطير للغاية؟

حتى هذه اللحظة، لم يُعتمد هذا التعريف رسميًّا. هناك ما هو أكثر من ذلك: مع أن الأمم المتحدة واصلت عقد مناقشات وندوات مع جماعات الضغط تلك، برزت ضغوطٌ مضادّة في الوقت نفسه. فُتِحت الأبواب أمام مجموعة من الباحثين،

بمن فيهم آلون كونفينو نفسه، وعاموس غولدبرغ، ودايڤِد فيلدمان، الذين اجتمعوا مع الأمم المتحدة في عدّة مناسبات.

في تشرين الأول/ أكتوبر 2022، أوضح تقرير أعدّته المقرّرة الخاصّة للأمم المتحدة المعنيّة بالأشكال المعاصرة للعنصريّة، إي. تِندايي أتشيومِه E. Tendayi Achiume، أنّ تعريف التحالف الدولي لإحياء ذكرى المحرقة، بالإضافة إلى معارضة كبار الخبراء في هذا المجال له، بالغ الخطورة: «على أرض الواقع، ترك تأثيرًا فعليًا على سياسات وممارسات الحكومات والجهات الفاعلة الخاصّة، ما أدّى إلى انتهاك حقوق الإنسان، بما في ذلك حرّية التعبير والتجمّع والمشاركة السياسيّة، من بين أمور أخرى».

في تلك الأثناء، كنت أستعدّ لزيارة فلسطين المقرّرة في كانون الأول/ ديسمبر. لأول مرّة، بعد أربعة عشر عامًا (من 2008 إلى 2022) لم يسبق خلالها أن استجابت الحكومة الإسرائيليّة لطلبات المقرّرين الخاصّين، قرّرتُ تغيير الأسلوب. بدلًا من طلب الإذن، أبلغتهم ببساطة: «سأكون هناك من هذا التاريخ إلى هذا التاريخ، وأعقد هذه الاجتماعات». أردتُ أن يكون المعنى بين السطور ولكن بوضوح: «لا يمكنكم منعي، لأنّكم قوّة احتلالٍ غير شرعيّة؛ لذلك أنا ذاهبة. لقد نسّقتُ مع الفلسطينيّين وأبلغكم بذلك حتى تتمكّنوا من تسهيل مهمّتي قدر الإمكان».

بعد يومٍ واحد فقط، احتجّت السلطات الإسرائيليّة لدى الأمم المتحدة، مُشتكيةً من أنّني لم ألتزم القواعد، وأنّني ما زلتُ بحاجةٍ إلى تنسيقهم للدخول إلى الأراضي الفلسطينيّة المحتلة، وحدّدوا الإجراءات التي يجب عليّ اتّباعها.

لا مشكلة. أكملتُ جميع الإجراءات المطلوبة، وشرعتُ في تنظيم المهمّة. ومع ذلك، قبل سبعة أيّام من مغادرتي، سلّطت صحيفة إسرائيليّة – يعرفها كثيرون بوصفها الناطق غير الرسمي باسم الحكومة – الضوء على قصّةٍ أعدّت ببراعة لتكون بمثابة قنبلة إعلاميّة حقيقيّة.

كان جوهر الخبر هو اتّهامي بمعاداة الساميّة على نحوٍ قاطع، عارضين منشورًا نشرته على فايسبوك إبان الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزّة، الذي بدأ في 8 تموز/ يوليو 2014، والـذي أودى بحياة أكثر من ألفي شخص، بينهم نحو خمسمئة طفل، وجُرح أحد عشر ألفًا. تضمّن منشوري نداءً للحصول على تمويل من الأمم

المتحدة، التي كانت تُقدّم المساعدة آنذاك للسكّان المتضرّرين، وانتقادًا للغرب لتجاهله مصيبةً أخرى تحلّ بالفلسطينيّين، على عكس دول أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبيّة، مُجادلةً بأنّ مشاعر الذنب الناتجة عن المحرقة تسيطر على أوروبا، أمّا أميركا فخاضعةٌ لتأثير اللوبي اليهودي. في ذلك المنشور، يبدو واضحًا أنّ اختياري للكلمات لم يكن موفّقًا. إن كان وجود لوبي قويّ مؤيّد لإسرائيل أمرًا صحيحًا، وأنّ من الممكن بالفعل أن يكون العديد من اليهود جزءًا منه، فمن الخطأ الحديث عن «لوبي يهودي». هذا، في الواقع، يشير إلى مسؤوليّات الجماعات الأخرى في دعم إسرائيل، كالمسيحيّين الصهاينة، على سبيل المثال، الذين تُمثّل عودة اليهود إلى الأرض المقدّسة بالنسبة إليهم تحقيقًا للنبوءة التوراتيّة، والذين بلغ تعصّبهم الديني أبعادًا خطيرة في أميركا وفي أماكن أخرى. والأخطر من ذلك، آنذاك، من جهتي، هو غياب التمييز الضروري بين اليهود الصهاينة – وخاصّة أولئك الذين يطالبون بالسيادة اليهوديّة من الشاطئ إلى البحر (وهو مشروع تمييزي بشكل ملحوظ، وبالتالي محظور بموجب المعاهدات الدوليّة، مثل الاتفاقيّة الدوليّة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري) – واليهود الذين يعارضون، أو ببساطة لا يرغبون في الارتباط، بتلك الخطة السياسيّة. في الأساس، لا تُمثّل إسرائيل جميع اليهود، تمامًا كما لا تُمثّل إيطاليا أو إسبانيا أو الولايات المتحدة جميع الكاثوليك.

كان ذلك في 15 كانون الأول/ ديسمبر 2022. أتذكّرُ بدقة تفاصيل ذلك اليوم الذي انفلش خلاله الخبرُ بسرعة، مُحدثًا صدىً واسعًا. وفجأةً رأيتُ رأسي، كمقرّرةٍ خاصّة، يتدحرجُ من أعلى التلّ وينتهي به المطافُ في الوحل. ولكنْ، مرّةً أخرى، هبّ أصدقائي ورفاقي الإسرائيليّون، الذين شرعتُ معهم قبلَ أشهرٍ في رحلةٍ مشتركةٍ لحماية الحقوق الأساسيّة، في فلسطين وخارجها، لمساعدتي. في ذلك المساء نفسه، اجتمعت بآلون، عاموس، دانييل لايڤي، دايڤد فيلدمان، في لقاءٍ عبر الفيديو، بعدما قرأوا الخبرَ وكانوا سعداءَ بمساعدتي في التعامل مع الموقف. لا تزال صورة آلون عالقةً في عيني، وهو جالس في مكتبهِ البسيط والأنيق في ماساتشوستس، وهو يقولُ لي: «لا تعتذري يا فرانشِسكا. لا يمكنكِ الاعتذار. سيمسحون الأرضَ بوجهكِ إن اعتذرتِ»... «عليك أن تنأي بنفسك عن الكلمات التي استخدمتِها، والتي كانت غير لائقة»، وقد أشار عليّ بأن أقتصر على التنصّل

من الكلمات التي استخدمتها سابقًا، والتي كانت بالفعل غير موفقة. أصرّ آلون على أن يبقى التركيز الرئيسي للنقاش على فلسطين، نظرًا إلى العنف المنهجي والبنيوي الذي تعرّض له الفلسطينيّون (وما زالوا يتعرّضون له).

كان آلون يملك قدرةً هائلة على استخدام الكلمات المناسبة، وكان بارعًا بوضوح في الفِكر كما في التعبير. من هنا، كان من الضروري أن أدقق في مغزى الكلمات التي استخدمتها في ردّي العلني، الذي عبّرت فيه عن فكرةٍ مفادها أنّ المصطلحات المستخدمة آنذاك ليست هي نفسها التي سأستخدمها الآن، وعلى نحوٍ خاصّ خلال ولايتي. شكّل الأمر فرصة أيضًا لاستغلال المساحة التي نشأت حول تلك الضجّة، كمنطلقٍ مفيد، لمعالجة قضيّة معاداة الساميّة، المعاداة الحقيقيّة للساميّة، والتحرّك ضدّ استغلالها الوقح من قِبل جهات عدّة.

بعد تلك الكلمات، تعزّزت صداقتي بآلون، وكذلك بعاموس ودانييل لايڤي، اللذين كوّنتُ معهما صداقةً عميقة لاحقًا.

تلك الكلمات عزّزت موقفي، وساعدتني في تحصين التزامي، الذي ما زال قائمًا حتى اليوم. منذ تلك اللحظة، انهالت عليّ بلا انقطاع سيولٌ من كرات الوحل، وقد تولّت قذفها جماعات الضغط المختلفة المؤيّدة لإسرائيل.

مع ذلك، فإنّ وقوفي في تلك المناسبة برأسٍ مرفوع، في وجه ذلك الغضب، أكسبني احترام الكثيرين في المجتمع المدني، بما في ذلك العديد من الجماعات اليهوديّة التقدّميّة والعديد من المثقفين الذين ما انفكّوا يتجمّعون لدعمي مذاك، ضدّ أيّ اتّهامات تُوجَّه إليّ.

على سبيل المثال، نشر آڤي شلايم Avi Shlaim، المؤرّخ الإسرائيلي الشهير والأستاذ في جامعة أوكسفورد، بعد أيّام قليلة من تلك الهجمة الإعلاميّة، رسالةً كتب فيها: «الركائز الثلاث الرئيسيّة لليهوديّة هي الحقّ والعدل والسلام. تجسّد ألبانيزي هذه القيم إلى حدٍّ كبير. وسيكون هناك الكثير من اليهود حول العالم منزعجين من خيانة إسرائيل لهذه القيم اليهوديّة الأساسيّة».

في تلك الأيّام العصيبة، كان لكلماته أهمّيةٌ سياسيّة وشخصيّة لن تغادر ذاكرتي ما حييت.

كلّ هذا عزّز التعاون والتقدير بيني وبين آلون.

***

في أوائل عام 2023، دعتني صحيفة «ألتريكونوميا» [Altreconomia]، لتقديم بحثي حول تقرير المصير إلى مجلس الشيوخ الإيطالي، فاقترحتُ إشراك آلون في الأمر. رغم ضغوط السفارة الإسرائيليّة في إيطاليا لمنع انعقاد اللقاء، وما نتج عن ذلك من توتّرٍ بين المنظمين أنفسهم، وصلتُ إلى روما متحمّسةً لمواجهة هذه اللحظة التأسيسيّة في بلدي، بصحبة شخصيّةٍ كآلون صاحب المستوى الفكري والإنساني والكبير، فضلًا عن كوني سُررتُ بلقائه شخصيًّا أخيرًا.

في عصر اليوم السابق للنشاط، اتّفقنا على لقاءٍ أمام فرع مكتبة فِلترينيللي، في لارغو دي توري أرجنتينا. رأيت الرجل المرموق هناك، وكان يدسّ المظلة تحت ذراعه. وقد تصدّر رأسه شعرٌ أبيض كثيف، أضفى انطباعًا على محيّاه بأنّه شخصٌ لا يأخذ نفسه على محمل الجدّ. تعانقنا كما لو أنّنا كنّا نلتقي بعد فراقٍ طويل، وشرعنا بالمشي. كلّ ما أردناه هو التحدّث، والاستمرار في الحديث، حيثما قادتنا أقدامنا.

جُلنا طويلًا في أحياء الحيّ اليهودي، وتوقفنا عند مكتبة. قضينا أمسيةً رائعة ونحن نتناول الخرشوف (الأرضي شوكي) ونشرب، وتناقشنا في الموسيقى والكتب مع بعض مِن أعزّ أصدقائي. أتذكّر أنّه في نهاية العشاء، عندما ودّعنا بعضنا، وبعد أن أرسلنا صورة «سِلفي» إلى عاموس، الذي كان في القدس آنذاك، ضحك آلون وقال لي: «أتساءل إن لاحظ أحدٌ أنّني كنت معك على العشاء... هل سأكون بخير وأنا أجول في الغيتو وحدي ليلًا؟».

في صباح اليوم التالي، التقينا قرب مجلس الشيوخ، وعرضنا ما جئنا لأجله.

استضافونا في قاعةٍ فخمة، وأتيحت لنا فرصة مناقشة مواضيع عزيزة على قلبينا. كان حدثًا رائعًا، وقد قدّرت الأمر كثيرًا، ليس لأنّ آلون كرّس الوقت والجهد للدفاع عن سمعتي بسلطته التي لا تقبل الشكّ، بل لأهمّية الكلمات التي استخدمها، والتي نادرًا ما نسمع عنها في إيطاليا في ما يتعلّق بفلسطين وإسرائيل. بدأ آلون كلمته بالحديث عن معاداة الساميّة، شارحًا أصولها وتطوّرها. وذكّر بأنّ المصطلح صيغ عام 1879، وشكّل نقطة تحوّل في فهم كراهية اليهود، التي تحوّلت من كراهية دينيّة إلى عنصريّة وكراهية سياسيّة. بعد ذلك، تناول الموضوع الذي كان قد أتاح لنا أول فرصة للتعارف، ألا وهو الاستخدام الأيديولوجي لاتّهام معاداة الساميّة،

مؤكدًا أنّه يُستخدم في كثيرٍ من الأحيان لإسكات الانتقادات المبرّرة والمشروعة لإسرائيل والصهيونيّة، ما يصرف الانتباه عن حقوق الفلسطينيّين الإنسانيّة. ووفقًا له، فإن «اتّهام معاداة الساميّة غالبًا ما يُستخدم كسلاحٍ أيديولوجي ضدّ الأفراد والأكاديميّين والصحافيّين الذين يجرؤون على الدعوة إلى حقّ الفلسطينيّين بالمساواة في الحقوق المدنيّة والثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، أو على التنديد بانتهاكات القانون الدولي في الأراضي الفلسطينيّة المحتلة».

إلى ذلك، تناول آلون أيضًا الوضع المعقد لليهود الإسرائيليّين، مشيرًا إلى أنّهم قد يكونون ضحايا ومعتدين في آن واحد، لدرجة أنّ إسرائيل، رغم كونها وليدة المحرقة، تمارس اليوم حكمًا قمعيًا على الفلسطينيّين. وانتقد تسييس المحرقة. أكّد أنّه لا يمكن استخدامها لتبرير انتهاكات حقوق الإنسان، ولهذا السبب تحديدًا، أصرّ على ضرورة التمييز بين معاداة الساميّة ومعاداة الصهيونيّة، مجادلًا بأنّ «الحديث السياسي عن الصهيونيّة وإسرائيل ليس معاداةً للساميّة؛ بل هو جزء من الحوار والنقاش الذي نحتاج إليه». يجب علينا أن نفعل ذلك. كان يشعر بأنّ من واجبه إدانة نظام الفصل العنصري الذي خضع له الفلسطينيّون، باسم يهوديّته وبدافع حبّه لإسرائيل. وبالمثل، أشعر بأنّ الإدانة تقع على عاتقي أنا أيضًا، وأنا أراقب هذه الفترة المقلقة التي يُذبح فيها الفلسطينيّون، ويُلامون ويُشوَّهون في كلّ مكان، تمامًا مثل أولئك الذين يدافعون عنهم ويدعمونهم. كأوروبيّة، تدرك ما فعله الأوروبيّون لقرون، أشعر بالمسؤوليّة. وكإيطاليّة، تدرك أنّ الإيطاليّين كانوا متواطئين في المحرقة، باسم أيديولوجيّة عنصريّة، قبل أقلّ من قرن؛ أخشى أن تطفو هذه الأيديولوجيّات على السطح من جديد. ولذلك، ألتزم كلّ يوم، بكلّ ما أوتيت من وسائل، بإنشاء شبكة قادرة على القضاء على تلك الأيديولوجيّات في مهدها.

في خطابي ذلك اليوم، إلى جانب آلون، تحدّثتُ عن تقرير المصير باعتباره حقًّا في الوجود لكلّ شعب، وهو حقّ لا يمكن التفاوض عليه – كما ذكرتُ في التقرير: «لا ينبغي إخضاع انتهاكات القانون الدولي للمفاوضات، لأنّ ذلك من شأنه أن يُشرّع ما هو غير قانوني» – مشدّدةً على أنّ القضيّة الفلسطينيّة قد اختُزِلت لفترة طويلة إلى مجرّد أزمةٍ إنسانيّة، بدلًا من معالجتها كقضيّةٍ سياسيّة يجب حلّها وفقًا للقانون الدولي. إنّ اقتصار الأمر على توزيع المساعدات من دون معالجة الأسباب

الهيكليّة للأزمة يعني إدامة الظلم وتطبيعه، وذلك بدلًا من بذل كلّ ما يجب بذله للقضاء عليه. بالإضافة إلى ذلك، عارضت الرواية التي تميل إلى تصوير الوضع في فلسطين على أنّه «صراع». أوضحت أنّها هيمنة بنيويّة تقوم على السلب، وتندرج ضمن نموذج الاستعمار الاستيطاني.

في الواقع، بيّنت أنّ الاحتلال الإسرائيلي ليس مؤقتًا، بل هو جزء من مشروع أوسع يجمع بين الاستعمار الاستيطاني والفصل العنصري والاحتلال العسكري. من المستحيل الحديث عن التنمية أو «السلام الاقتصادي» قبل وضع حدٍّ للهيمنة أولًا. والحال أنّ الاستمرار في ضخ الأموال والمساعدات الإنسانيّة يُشبه محاولة إصلاح لعبة معطلة. وفي هذا الأمر غالبًا ما فشل المجتمع الدولي، إذ تبنى نماذج غير كافية لا تعالج جذور المشكلة. في جوهر كلّ شيء، يكمن الحق الأساسي للشعب الفلسطيني في تقرير المصير. وهو حقٌّ إنسانيٌّ يُنتهك منذ عقود.

يبدو لي واضحًا، وبديهيًّا، أنّ كلّ هذا لا علاقة له بمعاداة الساميّة، بل بالرغبة في تطبيق القوانين الدوليّة التي اتّفقت عليها الدول. إنّ القوانين التي تُحدّد حدود السياسة، وتُميّز المسموح به عن المحظور منه، لا تُطبَّق إلّا إن اعتُبرت موضوعيّةً وعالميّة، وبالتالي يجب ضمانها لكلّ إنسانٍ يعيش على هذه الأرض.

سُعدتُ في ذلك اليوم بالتحدّث في مناسبةٍ عامّة ورسميّة عن الأمل الذي أراه، ولا سيّما أمل الأجيال الجديدة... بالتأكيد لدى الفلسطينيّين، ولكن أيضًا في المجتمع المدني الدولي، ولدى العديد من يهود الشتات، وخاصّةً في الولايات المتّحدة. شرحتُ كيف، في رأيي، تُعبّر، أو ينبغي أن تُعبّر، الكثير من النقاشات حول مختلف المطالب الاجتماعيّة، من خلال لغة حقوق الإنسان، بما يُظهر لنا كيف أنّ السياسة غالبًا ما تصل متأخّرة، أو كيف أنّها تقاوم التغيير أحيانًا.

ضربتُ مثالًا بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. ذكّرت بأنّه لم يُفكّك فجأةً، لأنّ دولًا أخرى شهدت الفظائع وقرّرت أن تتصرّف من تلقاء نفسها وتفرض عقوبات. على العكس تمامًا! في البداية، قاومت العديد من الحكومات الغربيّة الإدانة، حتى وجدت نفسها من الناحية العمليّة مُجبرةً على الاعتراف بعدم القدرة على معارضة الحملة العالميّة لدعم حركة مناهضة الفصل العنصري.

في النهاية، اضطرّت إلى الاستسلام أمام واقع لم يعد بإمكانها تجاهله. إلّا أنّ هذا التغيير لم يأتِ من فوق. كان نتيجة تحوّل داخلي في مجتمع جنوب أفريقيا نفسه، وعشرين عامًا من تعبئة المجتمع المدني حول العالم.

كان لتلك الكلمات، التي أُلقيت من ذلك المنبر، مدعومةً بمقابلات عديدة نُشرت في صحف مختلفة، صدىً خاصّ. ولأنّ آلون كونفينو كان ما هو عليه، لم يجرؤ أحد على مهاجمته بشراسة كما فعلوا معي. كانت سمعته وشجاعته، في ذلك اليوم، دليلًا مذهلًا على أنّ الوحدة قادرة فعلًا على تحقيق القوّة.

***

بعد الاجتماع، ذهبنا في نزهة أخرى حول روما. الأمر اللافت في آلون هو أنّه كان مثقفًا فذًا يستطيع التحدث بأسلوب متماسك يجعلك تشعر بقوّة أفكاره؛ لكنّه في الوقت نفسه كان رجلًا بسيطًا، رقيقًا وخفيف الظلّ. بعد الغداء مع الصحافيّين، كان أول ما قاله لي: «هيّا بنا إلى الكولوسيوم، لنلتقط صورةً نرسلها إلى عاموس، ليموت غيظًا!».

لم تنقطع الثرثرة الودّية واستمرّت الدردشة التي جمعتنا مع رفيقته المحبوبة تال وأطفالها المقيمين في إسرائيل، كما تابعنا الأحاديث التي أجريناها قبل ساعات قليلة في قصر جوستينياني. حتى إنّني أتذكّر أنّني في لحظة ما، وبينما كنّا نقترب من الكولوسيوم، كنت أقول له شيئًا مثل: «ألا تعتقد أنّ اليهود الأوروبيّين ذهبوا إلى فلسطين لأنّه لم يكن لديهم مكانٌ آخر يذهبون إليه، وليس لأنّ هناك صلةً حقيقيّة تجمعهم بتلك الأرض؟».

بدت لي سرديّة الحق باستقرار الدولة اليهوديّة في فلسطين سطحيّةً بعض الشيء: نعم، بالمقارنة مع دولٍ أخرى مثل الأرجنتين أو أوغندا، تملك فلسطين جاذبيّة توراتيّة، لكن في تلك اللحظة، لم أستطع أن أرى شيئًا آخر. «إذن، عمليًّا، يمكننا أن نسمّيه استعمارًا استيطانيًّا، أليس كذلك؟»، تابعت. «لأنّ الصهاينة الأوروبيّين ما كانوا ليذهبوا إلى فلسطين لو لم يستغلوا العنصر الديني أو يستخدموه ببراعة».

في تلك اللحظة، توقف في منتصف الشارع، وانفجر ضاحكًا، وقال لي: «حسنًا يا فرانشِسكا، لو كنتِ طالبتي، لخاطرتِ بالرسوب في امتحانكِ الآن!». ثمّ، تابع بنبرةٍ أكثر جدّيةً ولطفًا: «هذا ليس صحيحًا تمامًا. ما تقولينه ليس دقيقًا. لكن ربّما يمكنني أن أحاول الشرح على نحوٍ أفضل».

وهناك، وبينما بدا الكولوسيوم وراءنا أشبه بخلفيّة، تحدّث معي طويلًا عن البنية المعقدة التي تقوم عليها مطالب يهود أوروبا بتقرير مصيرهم، وما وراء ذلك. لم نحاول حتى دخول الكولوسيوم لرؤيته من الداخل، بسبب طول الطابور، وقد كنّا منغمسين في تلك المحادثة. لذلك، بقينا هناك على المقعد نتجاذب أطراف الحديث. «هناك الكثير ممّا يخصّنا. للشعب اليهودي رابطٌ قويّ يجمعه بتلك الأرض، وبالقدس تحديدًا. إنّه تاريخنا. من الواضح أنّ وجود هذه الرابطة لا يعني ملكيتنا لها. لكن يجب أن نكون دائمًا قادرين على عرض العمليّة التاريخيّة بكلّ تعقيداتها، بما في ذلك حقيقة أنّه لم يعد هناك مكان يشعر فيه الكثير منّا بالأمان. هذه نقطةٌ بالغة الأهمّية. بعد المحرقة، لم نكن محميّين. ولم نفتح أعيننا في لحظة ما وسمعنا أحدًا يقول: يا لليهود، المساكين، دعونا نساعدهم. لا، ما زالوا لا يريدوننا. لم يكن أحد يريدنا في أوروبا. كنّا ضحايا الطاعون. وَجَب علينا أن نختفي عن أنظارهم بطريقةٍ ما. ذلك أنّ الأوروبيّين لم يتقبّلوا حتى فكرة أن اليهود كانوا ضحايا كلّ ما حدث».

لم يكن آلون معارضًا لفكرة استخدام نموذج الاستعمار الاستيطاني عند الإشارة إلى إسرائيل. «لكن»... قال لي ذلك المساء: «علينا أن نفهم تفاصيل الاستعمار الاستيطاني اليهودي. لأنّه، في الجوهر، لطالما كان هناك رابطٌ قويّ جدًا مع تلك الأماكن، ومن الخطأ القول إنّ الاهتمام اليهودي بالقدس وفلسطين مصطنعٌ ومجرّد ذريعة. حبّ تلك الأرض متجذر بعمق في تاريخنا وثقافتنا».

كانت كلماته شديدة الأهمّية. من تلك المحادثة، لطالما رافقتني فكرة مفادها أنّ دولة إسرائيل هي ما منح الشعب اليهودي ويهود أوروبا الفخر والشرعيّة والظهور، في فترةٍ تاريخيّة مثل خمسينيّات وستينيّات القرن الماضي، عندما كانت معاداة الساميّة لا تزال قويّة ومنتشرة، وهذا ما جعل اليهود يشعرون

بالحماية لأول مرة في التاريخ. بالنسبة إليّ، سيرتبط هذا الفهم بآلون دائمًا، وبتلك الظهيرة في شوارع روما.

ثمّة ما هو أهمّ من ذلك. شيءٌ لا يُنسى... كانت ابتسامته التي اختتم بها حديثه. أمسك هاتفه واقترب منّي قائلًا: «هيّا، لنرسل الصورة إلى عاموس، وبعد ذلك، مع أنّ الجو بارد، أرغب فعلًا في تناول الجيلاتو، ما رأيك؟». لا أتذكّر إن كنّا تناولنا البوظة. ما أذكره، هو أننا بعد ذلك ذهبنا إلى تراستِڤيري*، سيرًا على أقدامنا كما في كلّ النزهة ونحن نتبادل أطراف الحديث. بعد ذلك تناولنا الخرشوف مع صديقتي رانيا حمّاد، ابنة ممثّل منظمة التحرير الفلسطينيّة البارز والمعروف في إيطاليا، نمر حمّاد، بصحبة أصدقاء آخرين. في تلك الأجواء المرحة كان الوداع؛ وكان وداعًا لطيفًا ورقيقًا. في أيّ حال، كنت أنا وآلون قد خطّطنا بالفعل لأن نلتقي قريبًا.

في آذار/ مارس 2023، كنّا نتحدّث عبر الڤيديو، للبحث في بعض الترتيبات التي تخصّ مشاركة آلون أثناء عرضي للتقرير في جنيف. كما لو أنّه أمامي الآن، أتذكّر سترته الخضراء ووجهه المضطرب قليلًا، عندما قال: «أتعلمين؟ لا أعرف إن كان بإمكاني الحضور. لستُ على ما يُرام، يجب أن أجري بعض الفحوص».

وبعد أسبوعين، في نيسان/ أبريل، ظهرت النتائج، وكان مصابًا بسرطان الدم. وبدأ العذاب. في تلك الأثناء، كنتُ أُعِدّ تقريري الثاني عن الحرمان من الحرّية الشخصيّة في فلسطين. وفي هذا التقرير هو الآخر، قدّم آلون وعاموس دعمًا كبيرًا، إذ قرآ نسخًا مختلفة، وأدليا بتعليقاتهما. وقد قدّم آلون ذلك حتى أثناء خضوعه للعلاج الكيميائي. بعد ذلك، تراجعت المراسلات. تجنّبت مشاركته الكثير من الوقت، لأنّني فهمت أنّه كان يعاني من إرهاقٍ شديد.

---

* أحد أشهر الأحياء في روما، واسمه يعني «ما وراء نهر التيبر»، إذ يقع على الضفّة الغربيّة للنهر مقابل المركز التاريخي للمدينة. نشأ في العصر الروماني القديم كمكان يسكنه الحرفيّون والغرباء، وتميّز لاحقًا بشوارعه الضيقة المرصوفة بالحجارة وبمنازله الشعبية الملونة. خلال العصور الوسطى وعصر النهضة كان مركزًا للتجار والجاليات الشرقية، مما أكسبه هوية هجينة بين الشعبية والكوزموبوليتانية. يُعد اليوم من أبرز الوجهات السياحية والثقافية في روما، إذ يجذب الطلبة والفنانين والمثقفين، إضافة إلى السيّاح الباحثين عن «الأصالة» الإيطالية، عبر مطاعمه التقليدية وحاناته النابضة بالحياة. بقي هذا الحيّ رمزًا للحيّ الشعبي اليساري في الذاكرة الثقافية الإيطالية، لكنّه في العقود الأخيرة صار مسرحًا لسجالات واسعة حول الإحلال الطبقي (gentrification)، إذ يرى البعض أن هويّته الشعبية تلاشت أمام ارتفاع الأسعار والسياحة. بهذا المعنى، يجمع الحيّ بين جذور تاريخية رومانية عريقة، وحاضر متوتر بين الإرث الشعبي والتراث من جهة، والحداثة والاستهلاك من جهةٍ أخرى.

فجأة، فقد التاريخ صوابه مجدّدًا. في 7 تشرين الأول/ أكتوبر، انفجر في وجوهنا مصحوبًا بعنفٍ لا يُصدّق. بعد أسبوعين فقط، ذهبتُ إلى الولايات المتحدة لتقديم تقريري عن الطفولة، الذي مرّ مرور الكرام. ذلك رغم أنّه، كما وصفه عاموس، «زاخر بكلّ شيء»... عدد الأطفال الذين قُتلوا وجُرحوا وشُوّهوا من جرّاء الحروب والهجمات المختلفة، والوضع الكارثي الناتج عن انعدام الرعاية الصحّية، والذي تدهور لاحقًا إلى حالةٍ لا تُوصف، الوضع الذي كان، بالفعل، قبل السابع من أكتوبر، وضعًا لا يُطاق بالنسبة إلى الكثيرين. لسبعة عشر عامًا، أُغلقت غزّة تمامًا، فلم يغادرها، أو يدخلها تقريبًا أيّ شيء، من دون موافقة إسرائيل. وكان ذلك يعني أنّه لم يكن ممكنًا فعل أيّ شيء لأمراضٍ كان علاجها سهلًا في الظروف العاديّة، مثل مرض السكّري. وكان هناك أطفالٌ يعانون من حالات غير خطيرة، لكنّهم احتاجوا إلى علاجات خاصّة غير متوافرة في غزّة. ماتوا داخل منازلهم، إذ لم يُسمح لهم بالخروج لرؤية طبيب متخصّص أو تلقّي الأدوية اللازمة.

ومع ذلك، لم يبدُ كلّ ذلك على قدرٍ من الأهمّية لأحد. في الواقع، ولوقتٍ طويل في أوروبا، بقي الكثيرون يعتبرون هجوم السابع من أكتوبر «أسوأ هجوم معادٍ للساميّة منذ المحرقة»؛ وكان من بين هؤلاء الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، الذي رددتُ عليه ذات يوم علنًا على وسائل التواصل الاجتماعي: «أكبر مذبحة معادية للساميّة في القرن الذي نعيشه؟ كلّا، سيّد ماكرون. لم يُقتل ضحايا السابع من أكتوبر بسبب يهوديّتهم، بل ردًّا على اضطهاد إسرائيل. لم تفعل فرنسا والمجتمع الدولي شيئًا لمنع ذلك. مع خالص احترامي للضحايا».

كلّفني الأمر قطع العلاقات مع الديبلوماسيّة الفرنسيّة، ولكن حتى حينها، كنتُ أعتمد على الكلمات المهمّة التي كان آلون يكتبها في تلك الأشهر، والتي كانت بمثابة عطاء لا ينضب وقد نهلت منه. كتب هو وعاموس – إلى جانب باحثين آخرين مختصّين في مسألتي المحرقة ومعاداة الساميّة، مقالًا في مجلة «نيويورك ريڤيو أوف بوكس» NYRB في تشرين الثاني/ نوفمبر 2023، انتقدوا فيه الاستخدام الممنهج للذاكرة التاريخيّة في تبرير العدوان على غزّة. أدانوا الإصرار على أنّ «حماس هي النازيّة الجديدة»، ورفضوا تحميل الفلسطينيّين مسؤوليّة جماعيّة، مما يُضعف من مصداقيّة المدافعين عن حقوقهم. في المقال،

أكدوا أهمّية التمييز بين حماس والشعب الفلسطيني ككلّ، وحذّروا من أنّ «الخلط بين معاداة الساميّة وانتقاد إسرائيل» لا يُقوّض مكافحة معاداة الساميّة الحقيقيّة وحسب، بل يُشرّع أيضًا قمع المعارضة ومحو القضيّة الفلسطينيّة من النقاش العامّ.

بالنسبة إليّ، كان الأمر الأكثر فظاعةً هو أنّ موقف ماكرون برّأ إسرائيل تمامًا من المسؤوليّة، وألغى أيّ نقاشٍ حول جميع الانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي المرتكبة ضدّ الفلسطينيّين على مدى عقود.

في اليوم الذي وطئت فيه قدماي الولايات المتحدة، في تشرين الأول/ أكتوبر 2023، اتّصلت بآلون وقلت له: «أنا آتية لزيارتك».

لم يكن على ما يُرام، فأجاب: «آسف، لكنّني لست في حالة تسمح لي برؤية أيّ شخص. مناعتي ضعيفة جدًّا، لا يمكنني السماح لك بالمجيء إلى منزلي، أنا آسف».

ولكن باقتراح من عاموس، صديقه وزميله العزيز، سمحت لنفسي بالإصرار، وفي النهاية قرّرنا أن أذهب لزيارته في بوسطن، وبدلًا من لقائه في منزله، فكّرنا في الذهاب إلى أيّ مكانٍ آخر.

التقينا في مطعم، وهناك التقيتُ أخيرًا بشريكته الرائعة تال. وجدنا مكانًا خاليًا تمامًا، حيث استطعنا رؤية بعضنا بعضًا مع الحفاظ على مسافة، ولم ينزع كِمامته. قضينا وقتًا طويلًا في الدردشة. وبعدما بذلنا قصارى جهدنا لاتّخاذ كلّ تلك الاحتياطات، أنهينا الأمسية بعناق.

كان مكتئبًا للغاية، وليس فقط بسبب صحّته. قال: «لقد انتهت إسرائيل. الآن أرى النهاية حقًّا. لكنّني لم أعد أملك القوّة لفعل أيّ شيء».

كانت تلك آخر مرّة رأيته فيها.

في 27 حزيران/ يونيو 2024، تُوفّي آلون كونفينو.

إنغريد

نظام الفصل العنصري... كيف تُسقِطه؟

أنزل الرجل العاري ذراعيه عن رأسه.
سقط وهو ينظر. حدّق نحو المعُتدي، وكان الدم يسيل على وجهه.
شمّت الكلبة غودرون رائحة الدم.
قال القبطان: «عضّيه».
عضّته غودرون... غرزت أنيابها في كتفه.
«إلى الحلق»، قال القبطان.

إليو ڤيتّوريني – «ربّما رجال، وربّما لا».

كانت المرّة الأولى التي سمعت فيها خطابًا مفصّلًا عن أسباب ضرورة تسمية الوضع في فلسطين بالفصل العنصري في عام 2017، وذلك خلال مؤتمرٍ عُقِد في الأردن نظمه أكاديميّون ومنظمات من المجتمع المدني العربي. ومع أنّ الأمر يبدو اليوم بديهيًا، لم يكن كذلك إطلاقًا حتى بضع سنوات خَلَت.

فلنبدأ من افتراض وجود العديد من صكوك القانون الدولي المخصّصة لحماية الأشخاص، مثل معاهدات حقوق الإنسان، وفي حالات النزاع المسلح: القانون الإنساني. في الأساس، اعتُمِدت هذه الصكوك بعد الحربين العالميتين بهدف تخفيف وطأة النزاعات، وحماية المدنيّين قدر الإمكان من أهوال الحرب، ولكنّها أيضًا تجعل من الأفراد – وتاليًا ليس ذلك وحسب، أو لم تعد كذلك فحسب – خاضعين للقانون بالمعنى الدولي للكلمة.

لم تُمنح لنا حقوق الإنسان كهبة. كلٌّ منها كان ثمرة نضالات وإنجازات أفراد عاديّين مثلنا. فكما تمّ القضاء على تجارة الرقيق بفضل حركة مناهضة العبوديّة؛

وكما حُظر الأبارتهايد بفضل نضالات مدنيّة حقيقيّة، حققنا تقدّمًا هامًّا في مجال حقوق العمّال والنساء والأطفال والأشخاص من مختلف الأعراق. إنّ الطريق إلى حقوق الإنسان لم يكن مستقيمًا بل كان مليئًا بالتعرّجات، والمهمّة لم تُنجز بعد. وما العصر الذي نعيش فيه سوى دليل على كلّ ذلك.

لكن دعونا نعُدْ إلى فلسطين.

حتى بضع سنوات انقضت، كان القانون الإنساني هو الإطار القانوني المرجعي الرئيسي – إن لم يكن الوحيد – للكثيرين، في ما يتعلق بالأرض الفلسطينيّة المحتلة، أي قوانين الحرب والاحتلال العسكري، التي تُجيز الاحتلال العسكري إن كان مؤقتًا وحسب، ومرتبطًا بأهدافٍ عسكريّةٍ محدّدة، ويُنفَّذ مع الالتزام التام بحقوق السكّان المدنيّين.

من ناحيةٍ أخرى، احتلت إسرائيل غزّة والضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة منذ عام 1967 من دون أيّ حدود زمنيّة أو أيّ مبرّر مقبول. وقد دعت الأمم المتحدة نفسها إلى انسحابها، بقرارٍ صدر بعد بضعة أشهر من الاحتلال، مُذكّرةً بأنّ الاستيلاء على الأراضي بالقوّة ليس مشروعًا على الإطلاق.

مع ذلك، لم تتجاهل إسرائيل الأمر وحسب، بل وسّعت نطاق وجودها في الأراضي المحتلة، بما في ذلك مرتفعات الجولان السوريّة، فاستبدلت السلطات المحليّة هناك بحاكمٍ عسكري إسرائيلي، وفرضت قوانين عسكريّة، وصادرت الأراضي وهدمت المنازل، وبنت أكثر من ثلاثمئة مستوطنة، يعيش فيها الآن نحو ثمانمئة ألف مستوطن إسرائيلي. حدث كلّ هذا على الرغم من إقرار القانون الدولي بعدم شرعيّة هذه الأعمال. ينصّ أحد المبادئ الأساسيّة لميثاق الأمم المتحدة على حظر الاستيلاء على الأراضي بالقوّة، وقد أكدت محكمة العدل الدوليّة مرارًا وتكرارًا أنّ على القوّة المحتلة ضمان الحقوق الأساسيّة للسكّان تحت للاحتلال، ولا يحق لها عرقلة حقهم في تقرير المصير.

لكن في فلسطين، هذه العرقلة هي ما يحدث بالضبط.

وللتغطية على الانتهاكات، استخدمت إسرائيل لغةً غامضة. لطالما تحدّثت وتتحدّث عن أراضٍ «متنازع عليها» بدلًا من أراضٍ «محتلة»، وعن سكّانٍ يُنظر إليهم بوصفهم «أعداءً» بدلًا من «مُحتَلّين»، أي من الواجب حمايتهم. حتى إنّ

المجتمع الدولي نفسه فضّل في كثيرٍ من الأحيان ترسيخ موقفه بالمصطلحات، بدلًا من التصرّف بحزم مع الواقع غير المقبول للاحتلال الدائم وما يستتبعه من عواقب.

في غضون ذلك، وفي ظلّ الجدل الدائر حول الأقوال لا الأفعال، واصلت إسرائيل القضم الممنهج؛ لا للأراضي وحسب، بل أيضًا للقانون الدولي. هكذا، شوّهوا جوهر القانون والعدالة. إنّ عدم قانونيّة هذا السلوك مسألة لا يمكن التساهل معها، ذلك أنّه يمسّ أحد أركان النظام الدولي الأساسيّة، إذ يجب أن تحتكم العلاقات بين الدول إلى قواعد القانون لا إلى إرادة الأقوى.

***

في 2017 عرفت منعطفًا فكريًا حاسمًا آخر، بعد ذلك الذي عرفته خلال مشاركتي في مؤتمر SOAS عام 2005. ففي المؤتمر الذي حضرته بالأردن في أيار/ مايو من ذلك العام، شرح مايكل لينك Michael Lynk – وهو الذي تولّى من بعدي مهمّة المقرّر الخاصّ للأمم المتحدة في الأرض الفلسطينيّة المحتلة – استنادًا إلى الاجتهاد القضائي المتعلق باحتلال جنوب أفريقيا لروديسيا وناميبيا (التي كانت تُسمّى آنذاك جنوب غرب أفريقيا)* الأسباب التي تجعل الاحتلال الإسرائيلي غير قانوني بموجب القانون الدولي.

باختصار، قضت محكمة العدل الدوليّة بأنّ وجود جنوب أفريقيا في جنوب غرب أفريقيا غير قانوني للأسباب الآتية على وجه التعيين:

---

* تُعرف اليوم باسم ناميبيا. وقد شكّلت نموذجًا بارزًا لتشابك الاستعمار الأوروبي مع سياسات التمييز العنصري في القرن العشرين. خضعت للاستعمار الألماني منذ عام 1884 حتى سقوطها بأيدي قوات اتحاد جنوب أفريقيا عام 1915، ثم أقرّت عصبة الأمم عام 1920 وضعها كإقليم منتدب تحت إدارة جنوب أفريقيا. غير أنّ الأخيرة تعاملت معها كأرض ملحقة، ورفضت لاحقًا إخضاعها لنظام الوصاية الأممية بعد الحرب العالمية الثانية، ما جعل وجودها هناك احتلالًا يفتقر إلى أيّ سند قانوني دولي. خلال هذه المرحلة، فُرض على سكّانها نظام الفصل العنصري المماثل لذلك المطبّق في جنوب أفريقيا، الأمر الذي أدرج قضيّتها ضمن الإطار الأوسع لمناهضة الأبارتهايد. وفي 1960 برزت حركة «سوابو» (SWAPO) كقوّة رئيسية للنضال الوطني، حظيت باعتراف الأمم المتحدة ممثلًا شرعيًا للشعب الناميبي، وقادت مسارًا طويلًا من العمل السياسي والكفاح المسلح. ومع تزايد الضغوط الدولية، أُجريت انتخابات حرّة تحت إشراف الأمم المتحدة عام 1989، أفضت إلى إعلان الاستقلال الرسمي في 21 آذار/مارس 1990، لتصبح ناميبيا آخر المستعمرات الأفريقية التي تنال سيادتها في الحقبة المعاصرة.

أ. لم يكن استجابة لأغراضٍ عسكريّة.

ب. انتهك الالتزامات الأساسيّة الواجبة على الاحتلال.

وتنصّ هذه الالتزامات على الاحتلال وجوب حماية رفاه السكّان المحتَلّين لا إخضاعهم أو تغيير هويّتهم، وعدم الإخلال بوضع الإقليم والإطار القانوني للسكّان. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن ذلك الاحتلال مؤقتًا، بل صار حالةً دائمة.

وكما صرّح مايكل لينك ذلك اليوم، في سياق عرض القضيّة الناميبيّة، لا يُمكن السماح للاحتلال العسكري بأن يكون أداةً للاستعمار. يا للعجب! بهذه الكلمات، تجاوز خطًا أحمر لطالما كان عائقًا. إن كان الاحتلال غير قانوني، فلا يجوز التطبّع معه إطلاقًا. يجب مراقبته طوال الوقت، ومن كلّ جانب، ويجب أن ينتهي.

خلال الفترة التي عُقد فيها المؤتمر، كنت قد غادرت الأمم المتحدة لست سنوات. ولكن عندما استمعت إليه، عادت بي الذاكرة فورًا إلى الفترة التي عملت فيها في فلسطين. فجأةً، اتّضح كلّ شيء. خلال سنواتي في فلسطين، لطالما سألت نفسي الأسئلة التالية: لماذا نستمرّ في استخدام القانون الإنساني الدولي، بينما يبدو جليًا أنّ الاحتلال العسكري يهدف إلى سلب الأرض وتدمير حياة الفلسطينيّين؟

كانت الفكرة التي تقول إنّ الأداة القانونيّة لم تعد كافية لحماية الناس راسخةً في ذهني. لكن كلمات سَلَفي كانت مهمّة، وأنا أدوّر بصري في الماضي، قلت لنفسي: «مايكل لينك مُحقّ».

من بعده، تحدّثت إنغريد جرادات غاسنِر Ingrid Jaradat Gassner، الخبيرة في الشأن الفلسطيني. واصلت إنغريد تحليلها للإطار القانوني المناسب للوضع الفلسطيني، وأصرّت على استخدام مفهوم الأبارتهايد. في ذلك الوقت، لم يكن الحديث عن الأبارتهايد في سياق مقاربة سلوك إسرائيل أمرًا شائعًا على الإطلاق، خاصةً خارج نطاق الأنشطة المخصّصة لذلك. ما قالته إنغريد كان ثوريًّا لدرجة أنّ الكثيرين منّا لم يدركوا جوهره تمامًا. والدليل على ذلك هو أنّه، في الكتاب العلمي المتعلق بالفقه القضائي الخاصّ بالتشريعات المتعلقة باللاجئين الفلسطينيّين، الذي كنت أعمل عليه في تلك الفترة، نظرنا إلى نظام الأبارتهايد بوصفه جانبًا ثانويًّا وحسب. ورغم أنّ إنغريد لم تكن مختصّة بالقانون، تبيّن أنّ مساهمتها كانت

جوهريّة وتتيح الفرصة لقراءة جميع القوانين المتعلّقة بحماية الأفراد والجماعات، من منظورٍ أكثر دقة وصوابًا.

كانت إنغريد هولنديّة لكنّها عاشت طويلًا في فلسطين، في بيت جالا، قرب بيت لحم، بالضفّة الغربيّة المحتلة. شاركت مع زوجها محمد جـرادات، في 1998، في تأسيس مركز «بديل» للأبحاث، الـذي يُعدّ رائـدًا في فلسطين، في قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين منذ عام 1948 وصعودًا. وفي 2005، شاركت في تأسيس حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS)*، المستوحاة من المقاومة العالميّة ضدّ نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، والمستندة إلى القانون الدولي. وُلدت الحركة بعد فترة وجيزة من صدور رأي استشاري تاريخي عن محكمة العدل الدوليّة عام 2004، أكّد أنّ بناء الجدار الذي كان قد بدأ قبل عامين، والممارسات التي نفّذتها إسرائيل في الضفّة الغربيّة والقدس المحتلة، قضايا تشكّل انتهاكًا خطيرًا للقانون الدولي والحقوق الفلسطينيّة الأساسيّة، مثل حرّية التنقل، والوصول إلى الموارد والخدمات الأساسيّة، وقبل كلّ شيء، حقّ الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.

هـذا الجـدار، الـذي يفصل الفلسطينيّين عن القدس، والـذي لم ينجح أحد حتى اليوم في هدمه، بعد أكثر من عشرين عامًا، يُقلّل كثيرًا من فرصهم... كيف يُمكن لاقتصاد مجموعة من الناس يعيشون داخل مدينة كالقدس أن يستمرّ – وهي مُحاطةٌ بالجانب الإسرائيلي من جهة ومن الجهات الثلاث الأخرى تطوّقها المستوطنات في الأراضي المحتلة – ولا سيما إن كان هؤلاء الناس يُقدّمون خدمات لزبائن لا يستطيعون الوصول إليهم، وبكونهم غير قادرين على شراء المنتجات الفلسطينيّة بسبب انقطاع الاتصالات مع المُنتجين خارج المدينة؟ إلى ذلك، يمنع الجدار العائلات من البقاء متّحدة ويعوقها عن التواصل. وكذلك يمنع المسيحيّين والمسلمين من الذهاب إلى الصلاة في القدس. وتاليًا، إنّها قضيّة تُؤثر على حياة الإنسان من عدّة زوايا.

* الأحـرف الثلاثـة هي اختصـار للكلمـات الآتيـة: (Boycott, Divestment and Sanctions) وتعني: مقاطعـة، سـحب الاسـتثمارات، عقوبـات.

استند القرار التاريخي لمحكمة العدل الدوليّة إلى حق تقرير المصير. وهو حقٌّ ليس بالغ الأهمّية وحسب، بل محوري. ووفقًا لقانون المسؤوليّة الدوليّة للدول، يجب على جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة الالتزام به، كما يفرض عليهم جميعًا التعهّد بعدم الاعتراف بوضعٍ غير شرعي ناجم عن الاحتلال، والعمل على ضمان احترام المعايير الدوليّة، بما في ذلك حقوق الإنسان. وتاليًا، تكون دول الأمم المتحدة ملزمة بعدم مساعدة الاحتلال أو دعمه بأيّ شكل من الأشكال؛ وكذلك بالمطالبة بوقف بناء الجدار.

من الناحية القانونيّة، كانت تلك لحظةً فارقة، إذ كانت المرّة الأولى التي تُصدر فيها محكمة حكمًا في القضيّة الإسرائيليّة الفلسطينيّة.

مع ذلك، لم يتّخذ أحدٌ أيّ إجراء عمليًا.

هكذا، في 2005، وردًا على تقاعس الدول عقب هذا الإعلان، نشأت حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS). إنّها حركةٌ شعبيّة تهدف إلى تعزيز المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات على إسرائيل، لدفعها إلى الامتثال لقواعد القانون الدولي واحترام مبادئ حقوق الإنسان العالميّة. في نظري، تعدّ مثالًا نموذجيًّا على ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المدني: نظام وقائي لمجتمعٍ سليم يحترم القوانين العالميّة، على الصعيدين الوطني والدولي.

كانت إنغريد من مؤسّسي الحركة. وقد استلهمت الكثير من أنشطة الدعم ضدّ نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، التي تخللتها حملة واسعة النطاق للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، وذلك قبل وقتٍ طويل من اتّخاذ الدول قرارًا بالتحرّك. حتى اليوم، لا يُمكننا التفكير في جنوب أفريقيا من دون أن يتبادر إلى أذهاننا مصطلح «أبارتهايد»، ولكن في حالة جنوب أفريقيا، شكّلت القواعد الشعبيّة منطلقًا للنضال، وبدأ كلّ شيءٍ من المجتمع المدني، أو بالأحرى من شخصٍ واحد: تلك العاملة الشابّة، التي قرّرت المضيّ في إجراءات عمليّة ضمن حدود إمكانيّاتها.

بدأ كلّ شيء في أيرلندا عام 1984. رفضت ماري مانينغ Mary Manning، وهي أمينة صندوق، كانت في الحادية والعشرين من عمرها يومذاك، دفع ثمن عصير الليمون الهندي (Grapefruit) المستورد من جنوب أفريقيا، وذلك في سوبر

ماركت ديونز (Dunes) حيث كانت تعمل، التزامًا منها بتوجيهات نقابتها التي دعت العمال إلى مقاطعة منتجات جنوب أفريقيا احتجاجًا على سياسات الفصل والقمع. عندما استمرّت مانينغ وممثلة النقابة كارين جيرون Karen Gearon في رفض التعامل مع أيّ منتجات جنوب أفريقيّة، موجّهتين الدعوة إلى العاملات والعمّال الآخرين إلى فعل الشيء نفسه، أُوقفتا عن العمل. بدأتا إضرابًا، وانضمّ إليه ثمانية زملاء آخرين.

استمرّ الإضراب ثلاث سنوات تقريبًا، حتى نيسان/ أبريل 1987، وأثار سلسلة من ردود الفعل المتتالية، جعلت أيرلندا أول دولة غربيّة تفرض حظرًا شاملًا على استيراد السلع من جنوب أفريقيا، بفضل الضغط الشعبي الذي ولّدته بادرة ماري الشجاعة وزميلاتها وزملائها.

بقي الحظر ساريًا حتى سقوط الأبارتهايد في 1994. وعندما مُنح نيلسون مانديلا الجنسيّة الفخريّة في دبلن عام 1990، أدرك مانديلا نفسه قيمة المبادرة. وصرح بأنّ المضربين، من خلال قيامهم بذلك، أثبتوا لجنوب أفريقيا أنّ الناس العاديّين، وإن كانوا بعيدين عن مواقع الأحداث، أدّوا دورًا رائدًا في مكافحة الفصل العنصري. وقال إنّ هذه الفكرة ساعدته على المقاومة في السجن. ليس هذا وحسب. عندما مُنح رئيس الأساقفة* ديزموند توتو** Desmond Tutu جائزة نوبل للسلام عام 1984، دعا المضربين في «ديونز» إلى حضور الحفل، فتلقّت الحركة المناهضة للفصل العنصري، التي نشأت في أيرلندا، موجةً من الدعم، ما أدّى إلى تأجيج معارضةٍ للأبارتهايد راحت تتصاعد وتتصاعد، وهذا ما شكّل خطوةً ضروريّة وحاسمة على طريق الإطاحة بهذا النظام.

لإسقاط الأنظمة القمعيّة، يجب ضربها في الصميم، أي حيث توجد مصادر تمويلها: من حيث تتدفّق عائدات الاستغلال. وهذه هي الفلسفة التي ترتكز عليها حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS)، الملتزمة بكشف

---

* رئيس الأساقفة هو أعلى سلطة أسقفيّة في الكنيسة المسيحيّة، يشرف على أبرشيّة كبرى أو مجموعةٍ من الأبرشيّات، ويمثل الكنيسة في الشؤون الدينية والإدارية على المستويين المحلي أو الإقليمي.

** رئيس أساقفة جنوب أفريقيا وناشط بارز ضد نظام الفصل العنصري. فاز بجائزة نوبل للسلام عام 1984 تقديرًا لجهوده السلمية في مكافحة التمييز العنصري وتعزيز العدالة والمصالحة في بلاده. يُعدّ من أشد المنتقدين لسياسات إسرائيل ضدّ الفلسطينيّين.

التواطؤ الدولي – لا سياسيًّا وحسب، بل اقتصاديًّا أيضًا – مع نظام الفصل العنصري الذي تفرضه دولة إسرائيل على الفلسطينيّين.

إنّ الخطاب المتعلق بنظام الفصل العنصري، الذي كان لإنغريد إسهام أساسي في صياغته في حالة القضيّة الفلسطينيّة، قد أعاد بلورته وتعزيزه في السنوات الأخيرة عددٌ من المنظمات الحقوقيّة الدوليّة، بما يعكس اتساع نطاق اعتماده أداةً تحليليّة في تقييم الانتهاكات الممنهجة لحقوق الإنسان.

من بين أولى المنظمات التي أدانت هذا النظام، منظمتان إسرائيليتان غير حكوميّتين، توثّقان انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة: «يش دين»* و«بتسيلم»**. في 2020، تحدثت «يش دين» عن فصل عنصري يقتصر على الضفّة الغربيّة، حيث تطبّق إسرائيل نظامين قانونيّين مختلفين، أحدهما ينسحب على المستوطنين الإسرائيليّين والآخر على الفلسطينيّين. وفي 2021، نشرت منظمة «بتسيلم» تقريرًا شديد التأثير، أتبعته بعرضٍ بارزٍ أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وقد قدّمه مديرها آنذاك، هاجاي إيل-أد، أكد فيه أن إسرائيل تفرض نظام فصل عنصري على جميع الفلسطينيّين من الضفة إلى البحر، أي «من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسّط». ووفقًا لبتسيلم، تسيطر إسرائيل عمليًا على كامل المنطقة الواقعة بين نهر الأردن والبحر، بما يضمن سيادةً لليهود الإسرائيليّين على حساب الفلسطينيّين. وشملت سياسات الفصل العنصري التي حُدّدت كلًّا من التجزئة السياسيّة والإقليميّة للفلسطينيّين، عدم المساواة في الوصول إلى الأراضي والموارد، تقييد الحركة، بالإضافة إلى نظام تشريعي قائم على التمييز وعلى قانون الطوارئ والأوامر العسكريّة وعلى تشريعات من نوع قانون عام 2018، الذي يعترف بحق تقرير المصير «للشعب اليهودي فقط».

---

* انبثقت عام 2005 في سياق تصاعد الانتهاكات بحق الفلسطينيّين في الضفة الغربيّة، لتتخذ موقعها كإحدى أبرز المنظمات الحقوقية الإسرائيلية الناقدة لبنية الاحتلال. تتمحور رسالتها حول توثيق الجرائم التي يرتكبها المستوطنون وقوات الجيش، وملاحقة ظاهرة الإفلات من العقاب داخل الجهاز القضائي الإسرائيلي، عبر التقارير المفصّلة والالتماسات القانونية، في محاولة لفرض مساءلة قانونية في بيئة شديدة الانحياز. يعني اسمها حرفيًا: «يوجد قانون».

** أُنشئت عام 1989 بعد الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى، واتخذت اسمها من العبارة التوراتية «على صورة الإنسان»، بما يحيل إلى الكرامة الإنسانية في جوهرها. سرعان ما غدت بتسيلم صوتًا حقوقيًا بارزًا في فضح ممارسات الاحتلال، معتمدةً التوثيق الميداني بالصور والأفلام والشهادات، ومقدّمةً تقارير اعتُبرت مرجعية في النقاش الدولي حول فلسطين. وقد كان لها دور محوري في إدخال توصيف «الأبارتهايد» إلى حقل الخطاب الحقوقي المتعلق بالسياسات الإسرائيلية.

في 2021، عززت «هيومن رايتس ووتش» هذه التحليلات في تقريرٍ مفصّل، مُعرّفةً نظام الفصل العنصري الإسرائيلي كنظامٍ مؤسّسي للهيمنة والقمع. أشارت المنظمة إلى أنّ إسرائيل لا ترتكب جريمة الفصل العنصري وحسب، بل ترتكب جريمة الاضطهاد أيضًا، وذلك عبر الحرمان المنهجي والمتعمّد من الحقوق الأساسيّة لجماعةٍ ما. بأسلوبٍ ممنهج تمنح السلطات الإسرائيليّة الامتيازات لليهود الإسرائيليّين بينما تقمع الفلسطينيّين، للوصول إلى هدفٍ معلن وهو الحفاظ على السيطرة الديموغرافيّة والسياسيّة والإقليميّة.

وفي 2022، أكدت «منظمة العفو الدوليّة» أنّ إسرائيل تمارس نظام الفصل العنصري في الأراضي المحتلة وفي داخل حدودها، مضيفةً أنّ هذا النظام يؤثر كذلك على اللاجئين الفلسطينيّين، المُستَبعَدين من حق العودة، وهو المبدأ الذي ينصّ على حق جميع اللاجئين الفلسطينيّين بالعودة إلى أراضيهم وممتلكاتهم التي أجبرهم الإسرائيليّون هم أو أجدادهم على تركها في 1948 وفي 1967. في تقريرها، دعت المنظمة بوضوح «السلطات الإسرائيليّة والجهات المعنيّة الأخرى إلى تفكيك نظام الفصل العنصري ضدّ الفلسطينيّين ووضع حدٍّ لانتهاكات حقوق الإنسان ذات الصلة».

إذن، هل إسرائيل دولة فصل عنصري أم لا؟

بالتأكيد هي كذلك. وبموجب القانون الدولي، إنّها تقوم على نظامٍ وُضع للحفاظ على تفوّق جماعة عرقيّة على أخرى، من خلال ممارسات تمييزيّة وقمعيّة. رغم أنّ نظام جنوب أفريقيا هو أول ما يتبادر إلى الذهن، فإنّ الاتفاقيّة الدوليّة لمناهضة الفصل العنصري [الأبارتهايد] تُصنّفه جريمةً ضدّ الإنسانيّة يُمكن لأيّ دولةٍ أخرى ارتكابها، من خلال أفعال غير إنسانيّة – مثل الترحيل القسري، الاعتقالات غير القانونيّة، التعذيب، وتقييد حرّية التنقل – تنفّذ بغرض قمع مجموعة عرقيّة على نحوٍ منهجي، وإبقائها تحت السيطرة لصالح جماعةٍ أخرى. كذلك يُدرج نظام روما الأساسي الفصل العنصري ضمن الجرائم ضدّ الإنسانيّة، باعتباره أفعالًا تُرتكب «في سياق هجومٍ منهجي أو واسع النطاق ضدّ أيّ مجموعةٍ سكّانيّة مدنيّة».

ولا يقتصر الأمر على التمييز. إلى ذلك، يشمل الحرمان من الحقوق الأساسيّة، والفصل بين الناس على أسسٍ عرقيّة وإقليميّة، واستخدام تدابير قسريّةٍ لإبقاء الجماعة المضطهدة تحت وطأة الحرمان والعزلة.

لذلك، وبتوسيع مدى النظر أبعد من جنوب أفريقيا، نستنتج أنّ السمة المميّزة لنظام الأبارتهايد هي الطابع الموضوعي للفصل المؤسّسي، الذي يهدف إلى هيمنة مجموعةٍ على أخرى، الأمر الذي يشكّل، بعد فحصٍ دقيق، العمود الفقري للاستعمار، وخاصةً الاستعمار الاستيطاني.

من يجرؤ على القول إنّ فرنسا في الجزائر أو بلجيكا في عهد الملك ليوپولدو في الكونغو لم تمارسا نظام الفصل العنصري؟ يمكن أن يوجد الأبارتهايد – وهو موجودٌ بالفعل – أيضًا في سياقاتٍ استعماريّة مختلفة وأوسع نطاقًا بكثيرٍ من تلك التي اعتدنا ربط المصطلح بها.

قبل بضع سنوات فقط، وحتى عندما أصبحتُ المقرّرة الخاصّة للأمم المتّحدة عام 2022، بدا الربط بين إسرائيل ونظام الفصل العنصري أمرًا مستحيلًا، لدرجة أنّ ثمة في الأوساط الدبلوماسيّة الدوليّة من اكتفى بالهمس قائلاً «تلك الكلمة» أو «ذلك التعبير»، كما لو أنّ «الفصل العنصري» أو «أبارتهايد» كلمةٌ بذيئة بحدّ ذاتها. اليوم، أصبح هذا الوعي أكثر انتشارًا، وأوقن أنّه في غضون سنوات قليلة، سترتبط كلمة «الفصل العنصري» تلقائيًّا بدولة إسرائيل، كما حدث في الماضي مع جنوب أفريقيا، التي لا تزال تحمل تلك الوصمة بعد ثلاثين عامًا من الإطاحة بها، بعد عمليّة مصالحةٍ طويلة ومؤلمة.

***

في حالة إسرائيل، من بين الانتهاكات العديدة، لا بدّ من إحصاء مئات الآلاف من الأرواح التي أُزهقت، والأجساد التي شُلّت، وغزّة التي تحت الأنقاض. لا يُمكن محو الإبادة الجماعيّة الجارية منذ عام 2023 من تاريخ دولة إسرائيل. أعتقد أنّ العالم بأسره سيرتجف في المستقبل عندما يرى العلم الإسرائيلي، لما ارتُكب باسمه، وتحت رعايته.

نعيش اليوم هذا الواقع ولكنّنا لسنا واعين به تمامًا، لأنّ البشر يحتاجون إلى وقتٍ للتأمّل والمراقبة عن بُعد. لكن، يجب ألّا ننسى، أنّه كلما طال هذا الوقت، ازداد عدد الأبرياء الذين سيموتون. ولذلك من الضروري الاستمرار في شرح ما نواجهه، ودعم الحركة اللازمة لمواجهته وصدّه.

حتى مجرّد التثقيف ونشر الوعي قد يُمثّل مساهمةً مهمّة في إسقاط نظام الفصل العنصري.

بالطبع، في حالة جنوب أفريقيا، لم تكن هناك ضغوطٌ تُضاهي تلك المبذولة اليوم في دعم دولة إسرائيل، التي تأتي من مصادر متعدّدةٍ ومتنوّعة. لا يقتصر هذا على جزءٍ كبير من الإدارة الإسرائيليّة، بل يشمل أيضًا الشبكة الواسعة التي بُنيت في جميع أنحاء العالم الغربي وخارجه، من خلال سفارات نشطة للغاية، وتقنيّات متطوّرة في عالم الاتصالات تُروّج لشعار «إسرائيل، الديمقراطيّة الوحيدة في الشرق الأوسط»، و«إسرائيل، أمّة ناشئة». وتلك روايةٌ جديدة حلّت محلّ الشعارات الشائعة في عهد غولدا مائير: «دولة أزهرت الصحراء»، و«شعبٌ بلا أرض لأرضٍ بلا شعب».

اليوم، تحظى إسرائيل بدعم النخب السياسيّة والثقافيّة والماليّة في مختلف البلدان، وعلى رأسها الولايات المتحدة، بفضل تشابك المصالح بين المؤسّسة العسكريّة المتواطئة مع مصالح لوبيّات صناعة السلاح النافذة (يُحلّل كتابٌ مشوّقٌ للغاية من تأليف أنتوني لوفنشتاين Antony Lowenstein بعنوان «المختبر الفلسطيني» هذه الجوانب بعمق).

ثمّة عنصرٌ مهمّ آخر، يتمثّل في الجماعات المسيحيّة الصهيونيّة المنتشرة في كلّ مكان، وخاصّةً في الولايات المتحدة. استنادًا إلى تفسيرات محافظة للكتاب المقدّس، ترى هذه الجماعات في «عودة اليهود إلى فلسطين» تحقّقًا للنبوءات، فتعتبر دعم إسرائيل جزءًا لا يتجزّأ من إيمانها، وهذا يؤثّر كثيرًا على السياسة الخارجيّة الأميركيّة. أكثر من ذلك، تشهد الصهيونيّة المسيحيّة توسّعًا سريعًا في العالم، أو في دول الجنوب العالمي تحديدًا، حيث يحمل التبشير المسيحي راية إسرائيل بوتيرةٍ متزايدة.

لمواجهة العقبات الهائلة، اضطرّت حركة المقاطعة (BDS) إلى ترتيب نفسها ضمن أطرٍ هيكليّة، ما جعلها أكثر تنظيمًا ممّا كانت عليه حركة مناهضة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. من ضمن الهياكل داخل هذه الحركة، أنشأ الفلسطينيّون الحملة الفلسطينيّة للمقاطعة الأكاديميّة والثقافيّة لإسرائيل (PACBI)، التي تشجّع مقاطعة المؤسّسات الأكاديميّة والثقافيّة الإسرائيليّة المتواطئة أو الصامتة عن الاحتلال والفصل العنصري وعن إنكار الحقوق الفلسطينيّة، بالإضافة إلى تأسيس شبكة دوليّة واسعة النطاق من المنظمات والخبراء الذين يدعمون مطالب محدّدة للمقاطعة وفرض العقوبات وسحب الاستثمارات، ما نسج شبكةً من المقاومة السلميّة والاستراتيجيّة والنشطة ضدّ الأبارتهايد أصلًا وفصلًا.

هنا يأتي دور العامل الاقتصادي. يدفعني الأمر لإعلان ما يلي: إن كانت فلسطين مسرحًا لجريمة، فبصماتنا جميعًا هناك. تواصل شركات وصناديق تقاعد وبنوك ومؤسّسات، ومنظمات لا حصر لها من مختلف البلدان، الاستثمار في الاقتصاد الإسرائيلي. وهذا، بطبيعة الحال، ليس عاملًا منفصلًا عن الاحتلال. صحيحٌ أنّ القطاعات الصلبة في الاقتصاد الإسرائيلي، مثل صناعة الأسلحة وأجهزة المراقبة والتجسّس، قد تكون الأكثر وضوحًا بالنسبة إلينا، لكن من المهمّ التذكّر أنّ أيّ استثمار في الاقتصاد الإسرائيلي قد يكون على صلةٍ بالاحتلال، وقد يكون مؤثرًا في استغلال الفلسطينيّين وفي تجفيف مواردهم. وبالتالي، قد يصبح فعليًا أشبه ببادرةٍ مرتبطة بالسلوك الإجرامي الإسرائيلي. تمامًا مثل الغريب فروت الذي رفضت ماري مانينغ دفع ثمنه في «ديونز» قبل أربعين عامًا.

في مواجهة وضعٍ كهذا، يستحقّ منّا الإدانة القاطعة، ومحاربته بكلّ ما أوتينا من قوّة، يجب علينا تلبية نداء حركة المقاطعة (BDS) ودعمه – ولا سيّما أنّه يتماشى تمامًا مع القانون الدولي – بكلّ الطرق الممكنة، بدءًا من الأشياء التي نبتاعها، مرورًا بالكيفيّة التي تدار بها استثماراتنا، وصولًا إلى الوجهات التي قد نتّخذها لإجازاتنا. أبعد من ذلك... يجب أن تصل خياراتنا إلى الانتخابات، إلى حيث تتّجه أصواتنا. يجب على كلّ واحدٍ منّا أن يتّخذ خياراتٍ «خاليةً من الفصل العنصري». العدالة لفلسطين، تبدأ بالأفعال.

يومًا بعد يوم، هذه العدالة تصبح أكثر إلحاحًا، نظرًا إلى الجرائم التي تواصل إسرائيل ارتكابها. لم يصل البِيض في جنوب أفريقيا إلى ذلك المستوى من العنف والسعي إلى إبادة جميع السكّان السود؛ كان هدفهم الفصل والهيمنة. أمّا اليوم، في إسرائيل/فلسطين، فالواقع مختلفٌ تمامًا. إنّ التنديد بالفصل العنصري وتجاوزه، الذي كان ممكنًا أن يكون فرصةً عظيمة للتغيير، أصبح بدلًا من ذلك فرصةً ضائعة، خاصّةً بعد الأحداث الكارثيّة التي أعقبت تشرين الأول/ أكتوبر 2023.

***

في نهاية مارس/آذار 2025، كتب لي صديقي وزميلي السابق لِيكس تاكنبرغ Lex Takkenberg، الـذي عملت معه على كتاب عـن تـاريخ وتشريعات اللاجئين الفلسطينيّين:

«نحتاج إلى إنغريد كثيرًا هذه الأيّام. أفتقد التحدّث إليها، والنقاش معها، وأشتاق إلى فهم ما تقوله».

كانت إنغريد مصدر إلهامٍ وإيجابيّة دائمين. خلال رحلاتي إلى بيت لحم، عندما كنتُ أُدرّس في الجامعة المحليّة، التقيتُ بها صدفةً لمرّاتٍ عدّة، وزرتُها في منزلها الحجري الوديع الذي تتسلّق الزهور جدرانه وتغطّيه. هناك، حيث كانت تعيش مع زوجها، في منطقةٍ هادئة، بعيدًا عن ضجيج بيت لحم وكنيسة المهد. الكنيسة التي بُنيت حول المغارة، التي يُفترض أنّ يسوع وُلد فيها.

آخر مرّةٍ رأيتها فيها، في 2019، كنّا قد اتّفقنا على اللقاء هناك. ذلك لأنّ الوصول إلى منزل إنغريد، بالنظر إلى لغتي العربيّة التي ترهّلت اليوم، كان كابوسًا بالنسبة إليّ، وكذلك بالنسبة إلى سائق التاكسي ذي الحظ العاثر. أضفت الجدران الحجريّة لمغارة المهد*، المسجّاة بالشموع المُتلألئة، جوًّا حميميًّا وصوفيًّا. ورغم أنّني لم أشعر بأيّ صلةٍ دينيّة خاصّة، لم يسعني، وأنا واقفة أمام النجمة الفضيّة التي تُشير

* الموضع الذي تشير إليه التقاليد المسيحية كمكان ولادة السيد المسيح في بيت لحم. تقع هذه المغارة تحت كنيسة المهد مباشرة، وتُعدّ من أقدس أركانها وأكثرها زيارةً من الحجاج. يستكين على أرضيتها موضعٌ متميّز بعلامة نجمة فضية بأربعة عشر رأسًا، تشير إلى مكان الميلاد حسب التقليد الكنسي. تتصل المغارة بالكنيسة عبر درج يأخذه الزائرون من داخل المبنى الرئيسي.

إلى المكان المفترض لميلاد يسوع، إلّا الشعور باحترامٍ عميق لقدسيّة المكان، ولتاريخ وآمال الكثيرين ممّن يُبجّلونه.

كان لقاءً مقتضبًا، وغادرت إنغريد لالتزامها بمواعيد أخرى. كان أمرًا مؤسفًا، لأنّي كنت في مرحلةٍ دقيقة، وشعرت بالحاجة إلى الطمأنينة من شخصٍ أثق به وأحترمه. فقد كنت أنا وليكس قد أنهينا لتوّنا كتابنا، وأطلقنا مشاورات ضمّت المجتمع المدني الفلسطيني، وبعض الباحثين والناشطين الإسرائيليّين، بالإضافة إلى خبراء دوليّين، بشأن «الحلول الدائمة» للاجئين الفلسطينيّين التي اقترحناها في الفصل الأخير.

بموجب القانون الدولي، أكّدنا على حقوق الفلسطينيّين في العودة والتعويض وتقرير المصير. في الوقت نفسه، أكّدنا أيضًا على حق أيّ شخص – من مخيّمات اللاجئين في لبنان أو سوريا أو الأردن، أو من مصر، وفي أيّ منطقة أخرى من العالم حيث يعيش الفلسطينيّون بلا جنسيّة – يرغب في الانتقال إلى مكانٍ آخر والتقدّم بطلب للحصول على الجنسيّة، بأن يكون قادرًا على الحصول على فرص «إعادة التوطين»، أي الانتقال القانوني.

بيد أنّ هذا الاقتراح الأخير أثار شكوكًا لدى العديد من الفلسطينيّين؛ حتى إنّ بعضهم اتّهمني بالترويج لأجندة «مؤيّدة لإسرائيل»، وبنزعةٍ تهديديّة لحق العودة.

كنت أعلم أنّ إنغريد تفهم حقيقة النيّات التي أنطلق منها، عندما تحدّثت عن سياسة الحقوق مقابل «سياسة الألم»، تلك التي يتبنّاها أولئك الذين يريدون إبقاء اللاجئين، بأيّ ثمن، في المخيّمات، في انتظار تكريم الفلسطينيّين بحق العودة، وهو الحق الذي لم يتقدّم قيد أنملة خلال سبعة وسبعين عامًا انقضت بعد النكبة.

يومذاك، احتفظت بتلك الأفكار لنفسي. وبعدما ودّعت إنغريد، ذهبتُ إلى الكنيسة بحثًا عن القليل من الهدوء. كنيسة شُيّدت تخليدًا لذكرى فلسطيني وُلد قبل ألفي عام. ولا بدّ من أنّه كان أسمر البشرة، ذلك أنّه – مع استثناءات نادرة جدًا – لم تكن الشعوب القليلة السمرة وصلت بعد إلى هذه الأنحاء. إنّها الكنيسة نفسها لتي لجأ إليها شباب المقاومة الفلسطينيّة خلال الانتفاضة الثانية، هربًا من الحصار والهجوم. لكنّها لم تستطع الدفاع عنهم.

كلّ مرّة أرى كنيسة المهد، لا يسعني إلّا التفكير في ميلاد الشابّ اليافع وفي موته، وفي صلبه الذي يمثل أمامي اليوم مجدّدًا في دمار شعبه. حاولوا المقاومة، لكنّهم يوشكون على الاستسلام. وإن حاولنا رؤية هذا الشعب ككتلةٍ واحدة، كجسدٍ قاوم بكلّ قوّته، وضحّى بنفسه للدفاع عن الأشخاص الذي يتشكّل منهم، فربّما يتغيّر منظورنا، حتى عندما يتعلق الأمر بالمقاومة الفلسطينيّة للاحتلال الإسرائيلي.

إنّ فهم المقاومة لا يعني، بالطبع، تبرير العنف ضدّ المدنيّين الإسرائيليّين. ولكنّ معرفتها تتيح لنا فهم أصول نشأتها. لقد انطلقت في المقام الأول ردًّا على تدمير شعبٍ... يقترب الآن من المرحلة الأخيرة.

في فلسطين اليوم، لم يعد هناك مجالٌ للمقاومة. هنا وهناك، يقاتل البعض. لكن تنقصهم القدرة. لا يملكون الأسلحة لمواجهة أقوى جيش في الشرق الأوسط، مدعوم من أعتى قوّةٍ عسكريّة في العالم. لم يعد لدى الكثيرين قوّةٌ تكفي للردّ. لم يعد بإمكانهم النهوض، إن كان القتال يعني تبادل اللكمات. إنّه قتال غير متكافئ في الأساس. وفي المعارك غير المتكافئة، الذين لا يملكون الوسائل يدافعون عن أنفسهم بالطرق التي يملكونها وحسب.

لم نعد في عصر الثوّار الإيطاليّين أو في عصر إنهاء الاستعمار الذي تلى الحرب العالميّة الثانية، حين كانت المقاومة تُعدّ أمرًا بطوليًّا. اليوم، يُنسى أنّ نِلسون مانديلا دخل السجن ليقضي قرابة ثلاثين عامًا خلف القضبان، بتهمة الإرهاب تحديدًا، وأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة لم تحذف اسمه من القائمة السوداء للإرهـاب إلّا في عـام 2008. نسينا أنّ الثوار الإيطاليّين كانوا إرهابيّين برأي النازيّين، وأنّه ضمن آليّات الظلم والمظلوميّة، يمكن اعتبار أيّ شخصٍ إرهابيًا من قبل البعض، وبطلًا من قبل آخرين.

للأسف، المقاومة أحيانًا قد تكون عنيفة. وعادةً ما تكون أشدّ عنفًا كلما اشتد الظلم. والفلسطينيّون الآن في حالةٍ من اليأس. وإن كان كلّ شعب يشكّل جسدًا، فقد تعرّض الجسد الفلسطيني للجلد بالسياط مرارًا، منذ سنوات وسنوات، واليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

كنتُ طفلةً خلال الانتفاضة الأولى عام 1987، لكنّني لن أنسى أبـدًا الصور التي شاهدتها في التلفزيون، بينما كنت مكوّرة على الأريكة بين أخي وأمّي.

كانت سيّارات الشرطة تقبض على الأولاد وهم يرشقونها بالحجارة. وكانت تعصب أعينهم. أتذكّر ذلك الصبي بالقميص الأخضر، برأسه الذي يفترشه شعرٌ مجعّد، وبعينيه المعصوبتين. أتذكّر الجنود وهم يمسكون بذراعه، وقد راحوا يضربونه بالحجارة حتى كسّروا عظامه. أتذكّر الفلسطينيّين. جالسين على الأرض، تهاجمهم الكلاب. كم سنةً عانى الفلسطينيّون على هذا النحو، وكم يعانون الآن، الآن وقد تجاوزت القسوة كلّ حاجزٍ يمكن تصوّره؟

في ربيع عام 2025 الغريب، يصعب عليّ تخيّل المستقبل. يكاد يكون من المستحيل تخيّل إعادة بناء غزّة، إلّا كنصبٍ تذكاري عظيم للإبادة الجماعيّة. لكنّ هذا لا يعني أنّني أرى نهاية الشعب الفلسطيني. سينهض الفلسطينيّون من جديد. لكن الإسرائيليّين الآن يمزّقون جسد الشعب المضطهد، تمامًا كما فعل السياسيّون الرومان قبل ألفي عام بجسد الشابّ اليافع. ونحن مدعوّون إلى أن نسأل أنفسنا إن كنّا نريد أن نكون جزءًا من محاولات التنصّل، من أولئك الذين، على حدّ تعبير پيسوا*، سيُحكم عليهم بتحمّل معاناة ناتجة عن جراح معارك لم يخوضوها.

وبعيدًا عن معاداتي الراسخة لرجال الدين، أعتقد أنّ يسوع كان ثائرًا من أجل الحبّ. شخصٌ لم يخشَ الذهاب إلى الهيكل وإثارة صخبٍ هائل، كما نقول في بلدي. كان يدرك أنّه جلب معه حقيقةً أسمى وأكثر إنسانيّةً وخلاصًا من تلك التي أعلنها حكماء عصره، أي رجال الهيكل. لم يكتفِ بصنع الثورة، بل كان هو الثورة بكلّ كيانه، وفي كلّ فعلٍ من أفعال حياته، من دون التطبّع والتطبيع مع أيّ شيء، وهذا ما يجب علينا فِعله بدورنا.

إما أن نلتزم بأن نكون الثورة وإلّا فالفشل. ذلك أنّه لا يمكن لأيّ تغيير في العالم أن يحدث ما لم ينطلق من داخلنا أولًا. علينا أن نتخلّص، واحدًا تلو الآخر، كلّ منّا على حدة، ممّا يحمله من أعباء، فنقترب يومًا بعد يوم، مِن الحقيقة.

***

* فرناندو پيسوا هو شاعر برتغالي معاصر، ويُعدّ مِن أبرز الأصوات الأدبيّة في القرن العشرين. عُرف بتعدّد شخصيّاته الأدبية وبالتجديد في الشعر النثري والرمزي. صاحب ميول يساريّة معتدلة؛ وقد عبّر مرارًا عن تعاطفه مع القضايا العادلة.

كانت إنغريد جرادات غاسنِر ثوريّةً هي الأخرى، ولكن بصمتٍ ومثابرة. وقد تجلّت ثورتها في طريقة استخدامها للنظام القانوني الدولي كقطعة ليغو، إذ عاينت جميع أجزاء النظام القانوني المتاحة، ففكّكتها وأعادت تركيبها لتعزيز الحقوق وضمان الحماية. بشرحها لكيفيّة تطبيق إطار الفصل العنصري على فلسطين، بيّنت إنغريد لنا جميعًا ما لم نكن قادرين على رؤيته مِن قبل. هنا أيضًا، من المهمّ دائمًا النظر إلى الشعب الفلسطيني ككيانٍ عضوي، كجسدٍ واحد. لهذا السبب، يجب ألّا ننسى أنّ اللاجئين الذين يجدون أنفسهم خارج وطنهم هم أيضًا يبقون ضحايا للفصل العنصري، الذي يسيطر عليهم بطرقٍ أخرى. ببساطةٍ شديدة... يمنعهم من العودة.

اللاجئون جزءٌ لا يتجزّأ من القضيّة الفلسطينيّة. وبمساعدتها في إنشاء مركز «بديل» للأبحاث، أسهمت إنغريد في الجهد الهائل الذي صُرِفَ لرسم خرائط اللاجئين وتحليل البيانات وتقديم التوصيات.

وأخيرًا، قدّم مشروعها الأخير، «دفاعًا عن المدافعين»، مساعدةً قانونيّة مجانيّة، لكلّ مَن وقع ضحيّة هجمات قائمة على الاستغلال السياسي لمعاداة الساميّة – التي تستخدمها إسرائيل كدرعٍ ضدّ أي انتقاد – بمن فيهم العديد من نشطاء حركة المقاطعة (BDS)، الذين جُرِّموا لمجرّد قولهم الحقيقة، ولأنهّم ناشدوا تطبيق القانون الدولي. بهذا المعنى، كان مشروعها أداةً للحماية والدفاع عن أولئك الذين يدافعون، بدورهم، عن قضيّة الشعب الفلسطيني.

رحلت إنغريد في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 2023. ولم أكن على علمٍ بمرضها.

تركني رحيلها في حزنٍ عميق. ذلك أنّ امرأةً مثلها – ثوريّة حقيقيّة، ناشطة، مثقفة، مناضلة لامعة، نزيهة، قادرة على العمل خلف الكواليس وتقديم رؤيتها من دون أيّ رغبةٍ في الشهرة – قد رحلت، من دون أن تتاح لي فرصة رؤيتها مرّة أخرى. تمنّيتُ لو أنّني تمكّنت من توديعها، وشكرها على الدروس التي قدّمتها لي ولنا جميعًا.

يقول البعض إنّ المعرفة ليست عمليّة كسب، بل كشفٌ تدريجي، وتحرّر من الأفكار المسبقة. في رحلتي لفهم القضيّة الفلسطينيّة، كانت إنغريد بلا شكّ من الشخصيّات التي شعرت بالامتنان لها. لقد أضاءت أمورًا أمام عينيّ، فانجلت

الرؤية واتّضحت. وقد تحدّثتُ عن هذا الأمر ذات مرة مع عمر البرغوثي، أحد مؤسّسي حركة المقاطعة (BDS). وبعدما أعرب عن تقديره لي، قال بوضوح: «لا تظنّي أنّكِ معفاة تمامًا في جانبٍ من التحيّز العنصري!».

«أعلم. نعم، لقد تخلصتُ منه. في الواقع، أنا أتخلص منه شيئًا فشيئًا، كما لو كنتُ أقشرُ طبقات البصل»، أجبته.

ولهذا السبب تحديدًا، يبقى الإرث الثقافي الذي تركته بيننا إنغريد جرادات غاسنر ثمينًا – بل حاسمًا – في إزالة طبقات الجهل والأفكار المسبقة التي نحملها بلا وعي، والتي تُثقل كاهل فهمنا للواقع.

من أهمّ دروسها، هذا المفهوم الأساسي: عندما يعاني شعبٌ من الظلم، فإنّه يستحقّ دعمًا كاملًا وغير مشروطًا، ويقوم على أسسٍ مبدئيّة. علينا أن نعرف كيف ننصت. أمّا الذي نواجهه، فعلينا أن نعرفه تمام المعرفة. وعلينا أن نكون أصحاب رؤيةٍ «أفقيّة» لمقاومتنا المشتركة، وأن نتجنّب أيّ شكلٍ من أشكال التسلّط الأبوي تجاه الآخرين.

كثيرًا ما نتحدث عن الفلسطينيّين كما لو أنّهم كانوا بحاجةٍ إلى التوجيه والانضباط، بينما هم في الواقع، بكلّ بساطة، يحتاجون إلى الدعم. وهذا بالضبط ما فعلته إنغريد. لقد ربطت الحركة دائمًا بالقانون وبفلسفةٍ حقيقيّة، يجب أن تكون صارمة، وفي بعض الحالات جامدة.

قد يكون فيلم «لا توجد أرضٌ أخرى» أحد الأمثلة البارزة على ذلك. وهو شريطٌ وثائقي رائع اعتبرت حركة المقاطعة (BDS) أنّه في بعض جوانبه يؤدّي إلى التطبيع، ولذلك انتقدته. لم أفهم ما هي المشكلة. لا بدّ مِن أن كثيرين مثلي فكّروا: «يا رفاق، هل يجب عليكم حقًا انتقاد مشروع مثل هذا؟».

كان ردّهم: «احذروا، فهذا أكثر أشكال التطبيع خبثًا».

الآن وقد أدركتُ المشكلة، أدركتُ أيضًا الخطر.

صحيحٌ أنّ باسل عدرا تحدّث أولًا في حفل توزيع جوائز الأوسكار، فقال: «أعيش اليوم في خوفٍ دائم من عنف المستوطنين، وعلى وقع هدم المنازل والتهجير القسري الذي يشهده المجتمع الذي أنتمي إليه، مجتمع مسافر يطا. يحدث هذا يوميًا تحت الاحتلال الإسرائيلي. يعكس فيلم «لا توجد أرض أخرى» الواقع القاسي

الذي عانيناه لعقود، والذي ما زلنا نقاومه، وندعو العالم إلى التحرّك لإنهاء الظلم والتطهير العرقي للشعب الفلسطيني».

ومن الصحيح أيضًا أنّ يوڤال أبراهام، الذي أقدّره كثيرًا، قد عبّر بوضوح في كلمته اللاحقة عن العلاقة غير المتكافئة بينه وبين باسل: «عندما أنظر إلى باسل، أرى أخي. لكنّنا لسنا متساويين. نعيش في ظلّ نظامٍ أتمتّع فيه بالحرّية محميًّا بالقانون المدني، بينما يخضع باسل لقوانين عسكريّة تُدمّر حياته، ولا يملك أيّ سيطرة عليها».

مع ذلك، ساوى يوڤال بين كلّ شيء قائلًا: «التدمير المروّع لغزّة وشعبها، والذي يجب أن يتوقف، والرهائن الإسرائيليّين الذين اختُطفوا بوحشيّةٍ خلال جرائم السابع من أكتوبر، والذين يجب إطلاق سراحهم».

كلّ ما قاله يوڤال صحيح.

نعم، يجب أن يتوقّف تدمير غزّة.

ونعم، يجب أن يعود الرهائن إلى ديارهم.

ولكن هـذا يجب أن يشمل جميع الرهائن: الإسرائيليّين، وكذلك آلاف الفلسطينيّين، بمن فيهم مئات الأطفال، الذين يقبعون في السجون الإسرائيليّة، ويتعرّضون لسوء المعاملة، وغالبًا ما يتعرّضون للتعذيب لدرجةٍ لا يمكن احتمالها.

عندما يتعلّق الأمر بالفلسطينيّين، فإنّ كلّ ما يرتبط بواقع الاحتلال، والتطهير العرقي، والفصل العنصري، والآن الإبادة الجماعيّة، غالبًا ما لا يكون مقبولًا، ولا يلقى آذانًا صاغية، إلّا عندما يصار إلى تخفيفه عبر مقارنته بالتجربة أو بالسرديّة الإسرائيليّتين. كما لو أنّ الفلسطينيّين لا يستطيعون سرد قصّتهم، ومقاومتهم، والتعبير عن معاناتهم، وإدانة الظلم الذي يعانونه، إلّا بحضور صوتٍ أكثر شرعيّة... وهو صوت الإسرائيليّين، وبموافقتهم. هل يمكن لصوتٍ فلسطيني أن يوجد بذاته؟ لا بدّ من التساؤل هنا... كمِ من الأفلام التي صنعها فلسطينيّون مُوِّلت، وأُنتجت، ووُزِّعت، وشُوهدت، ونالت التقدير في عالمٍ مثل هوليوود؟ ولا بدّ من التساؤل عمّا إن كان باسل سيحظى بفرصة التحدّث، أو حتى حضور حفل توزيع جوائز الأوسكار، إن كان وحيدًا، ومن دون يوڤال.

لا يعني هذا التشكيك في التزام يوڤال أو في تأثير الفيلم، لكن التحيّز وآليّات التطبّع قويّة وجاهزة لمواجهة أيّ سرديّة فلسطينيّة، لدرجة أنّ كلمات يوڤال هي التي تُشكِّل في نهاية المطاف معيارًا للشرعيّة وهي التي تجذب الانتباه والتعاطف.

لقد استحالت حياة يوڤال في إسرائيل جحيمًا. لكنّ الناشط الفلسطيني الذي شارك في الوثائقي، عَوْدة هذالين، دفع حياته ثمنًا لذلك. في 28 تموز/ يوليو 2025، وفي الضفّة الغربيّة، قُتِل برصاص يينون ليڤ، وهو مستوطنٌ إسرائيلي مُعاقب من قِبَل الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على خلفيّة عنفٍ سابق.

استغرق منّي الأمر الوقت، والبحث عن تفسيرات، لفهم الجوانب الدقيقة للتطبيع، الذي غالبًا ما يكون لاواعيًا ولاإراديًا. لكن إن كنتَ ضدّ فكرة التفوّق العرقي، فعليك أن تكون قادرًا على تنحية نفسك جانبًا تمامًا. إنّها خطوةٌ لا مناص منها. ولهذا السبب تحديدًا – وبعد التوفيق بين أنشطتها العمليّة، مثل أحدثها أي «دفاعًا عن المدافعين»، مع تلك الأنشطة المتعلقة بالمعرفة – أعتبر عمل حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS) وإسهام إنغريد فيها حدثًا تاريخيًّا.

شيءٌ يجب أن يستمرّ في دفعنا إلى التأمّل، ولا يجوز أن ننساه أبدًا.

***

الكلمات المناسبة مهمّة جدًا كمدخلٍ للإجراءات الصحيحة. لذا، في عام 2017، بالنسبة إليّ، لم يكن فهم مدى ملاءمة تعريف الفصل العنصري للوضع القائم في فلسطين مجرّد ممارسةٍ نظريّة بحتة. ينسحب الأمر ذاته على إدراك ضرورة اعتماد كلمة «إبادة جماعيّة» اليوم، لوصف كلّ ما كان يُحضّر له منذ فترة، والذي ظهر بوضوحٍ حادّ منذ نهاية عام 2023.

إنّ رؤية وفهم الأحداث التي نشهدها، ووضعها في أطرها الصحيحة، خطواتٌ أساسيّة في الاستعداد للتحرّك، خاصّةً في مواجهة من يستخدمون الكلمات كأسلحةٍ إعلاميّة صلفة وبغرض دعم المذبحة.

في تقريري الرابع للأمم المتحدة، الذي اخترتُ «تشريح إبادة جماعيّة» عنوانًا له، استنكرتُ قيام إسرائيل بما يمكن عدّه تمويهًا إنسانيًّا* فعليًّا... تمويهٌ زائف لانتهاكاتها المنهجيّة والمتفشّية والمتواصلة للقانون والحقوق. هكذا، قلبَت إسرائيل أسس القانون الإنساني الدولي رأسًا على عقب، وقدّمت للعالم تصوّرًا يقول بأنّ استهداف المدنيّين أمرٌ مشروع، معتبرةً إيّاهم دروعًا بشريّة أو أضرارًا جانبيّة!

عندما تجعل إسرائيل الفلسطينيّين دروعًا بشريّة لدخول منازلهم، أو تأخذ الأسرى من السجون لاستخدامهم أثناء الهجمات، فماذا تكون الدروع البشريّة إن لم تكن كذلك؟ إنّ هذا المفهوم مُحدّد جيّدًا ومحظورٌ صراحةً بموجب القانون الدولي. وهنا أيضًا بالضبط يبرز الانقلاب على القانون.

تميل إسرائيل دائمًا للتحدث عن «أوامر إخلاء» و«مناطق آمنة». لكنّها عمليًا تقلب لغة القانون الإنساني الدولي رأسًا على عقِب، إذ تستخدمها بطريقة عكسيّة لتبرير سلوكها الحربي والجرائم التي ترتكبها، ضاربةً عرض الحائط بالمبادئ الأساسيّة للانضباط والحماية في أوقات النزاع المسلح، والتي تقتضي الأمور التالية: التمييز بين المدنيّين والعسكريّين، الضرورة العسكريّة**، والتناسب.

عند التدقيق، نجد أنفسنا في مواجهة السؤال الآتي: أليس التمويه الإنساني هو الأمر الذي مارسته وتمارسه إسرائيل دائمًا في الأراضي الفلسطينيّة المحتلة، مُضلِّلةً المجتمع الدولي الذي سمح لها بذلك؟ لماذا انشغلنا، جميعًا، بصفاتنا المختلفة – نحن الذي عرفنا فلسطين كناشطين إنسانيّين، دبلوماسيّين، مسؤولين دوليّين، وخبراء في الميدان – وكعارفين بوجوب إدانة القمع الشامل والمتزايد للفلسطينيّين، بفكرة عدم إهانة مشاعر إسرائيل؟

هذا الموقف أتاح إتمام المشاريع السياسيّة الإسرائيليّة، الساعية إلى التوسّع في ما بقي من فلسطين التاريخيّة قبل عام 1967، مُتخفّيةً خلف ستار الشرعيّة،

---

* في النص الأصلي (Humanitarian camouflage)، ويُقصد به استخدام العمل الإنساني غطاءً لأغراضٍ أخرى، عسكرية وسياسية.

** وهو المبدأ الذي يجيز للأطراف في نزاع مسلح استخدام الوسائل والأساليب اللازمة لتحقيق غرض عسكري مشروع (أي إضعاف القوّة العسكرية للعدو)، شرط ألا تكون هذه الوسائل محظورة بموجب القانون الدولي الإنساني وألا تؤدّي إلى معاناة غير مبررة أو دمار غير متناسب.

ومُستترةً خلف واجهة قوانين الحرب، بينما راحت تزرع بذور سلوكيّات يبدو اليوم أنّها نضجت: إبادة جماعيّة.

إنّ الرغبة، وخاصّةً في الغرب، في الحفاظ على رواية «محايدة» والتحدّث عن منطقةٍ خالية من الصراعات، قد أطالت عمر الظلم والمعاناة. ما انفك العالم يتجاهل ما طالب به الفلسطينيّون مرارًا وتكرارًا.

عندما عشتُ في فلسطين، شعرتُ بهذا التناقض العميق في داخلي. أكثر ما آلمني كان ذلك التصوّر بأنّ الأمم المتحدة، وقطاعي التنمية والعمل الإنساني، كانوا أيضًا جزءًا لا يتجزأ من الحاجز الزجاجي الذي منع الفلسطينيّين من المضيّ قدمًا.

يمكن ملاحظة الحدّ الفاصل دائمًا في الوقائع. ذلك أنّ الفهم الصحيح للأحوال، والاختيار الدقيق للكلمات التي نستخدمها لوصفها، هما بلا شك عنصران أساسيان في إسقاط نظام الفصل العنصري ووقف الإبادة الجماعيّة بحق الشعب الفلسطيني. لكن، كما هي الحال دائمًا، الكلمات وحدها لا تكفي. يجب أن تُترجم إلى أفعال، وإلّا فسيذهب كلّ خطاب سدىً، ولن يُغيّر شيئًا من الهمجيّة في ما يحدث.

قبل أيّامٍ قليلة، وأنا أكتب هذه الكلمات، حدث أنّني حضرتُ اجتماعًا مع مسؤول رفيع المستوى من إحدى الحكومات الأوروبيّة الأقرب إلى فلسطين. غادرت غاضبةً لدرجة أنّني بكيت من الإحباط بمجرّد أن أنهيتُ المكالمة.

وجدتُ نفسي أساجله، في محاولةٍ لفهم الإجراءات الملموسة التي اتّخذتها الحكومة التي يُمثلها لمواجهة الظلم الذي تتسبّب به المستوطنات، وكيفيّة العمل على تفكيكها. وعندما سألته: «ما الذي تفعلونه حيال هذا الأمر» أجابني متململًا وموشكًا على الغضب: «توجّهين النقد إلينا الآن؟ لسنا الأسوأ في أوروبا».

أشرتُ إليه بأنّ بلاده تستثمر في الأراضي المحتلة أكثر من أيّ دولةٍ أخرى، لكنّه اكتفى برفع كتفيه. «ماذا تريدوننا أن نفعل، نقاطع إسرائيل؟»، قال.

عندما شدّدت على إمكانيّة تجنّب دولته استخدام الأرباح في مفاقمة الوضع، قال بصراحة إنّني لستُ دبلوماسيّةً ولا أحاور بطريقةٍ بنّاءة، وإنّني لا أُدرك درجة عملهم لدعم السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، بهدف مساعدتها على طرد حماس من القطاع.

«لكن هذا ليس من شأنك»، قلتُ له بصوتٍ هادئ. شدّدت على كلّ مقطع. «ليس من شأنك اختيار من يحكم فلسطين. عليك فقط أن تهتمّ بتقديم مساهمة مفيدة لإنهاء الاحتلال، حتى يبقى شيءٌ من فلسطين». هذا ما يُلزم به القانون الدولي.

مع ذلك، كان مُحقًّا في نقطةٍ واحدة على الأقلّ. صحيح أنّني لستُ بنّاءةً إطلاقًا في بعض الأمور. لا، لستُ بنّاءةً عندما أتحدّث إلى بعض السياسيّين الذين يُضطرّون إلى خداع أنفسهم بالأكاذيب. لستُ بارعةً في تحمّل جراح المعارك الوهميّة، على حدّ تعبير فرناندو بِيسوا. لكن، على الأقلّ، لا أُدمّر حياة الفلسطينيّين، وآمل أن أُنهي حياتي يومًا ما وأنا أعتقد أنّني فعلتُ كلّ ما في وسعي لإنقاذهم. أفعل، وسأستمرّ في فعل كلّ ما في وسعي. سأواصل التعلّم، وأزيل عن كاهلي غبار الجهل بمساعدة من يُعلّمونني، كما فعلت إنغريد، التي ستظلّ مُعلّمتي دائمًا.

«نعدكم أن نبتسم كلما استطعنا، كما فعلتم أنتم. أن نمضي قدمًا مهما كلفنا الأمر. نقاتل، نتأمّل، ندافع عن الأمل رغم الألم. نسقط، ننهض، نغيّر المسار، نستأنف النضال. وفي النهاية نصل إلى الحرّية».

تلك هي الكلمات التي حُفِرَت على قبرها قرب بيت لحم.

وفي حلم تحرير فلسطين، ثمّة اليوم شيءٌ من حلمنا جميعًا... بالحرّية.

غسّان

الإبادة...
إلى أيّ درجة من الوحشيّة يمكن أن تصل؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت آلة الدعاية قد فُعّلت لصالح «مكافحة الإرهاب». وبشيءٍ من اللامبالاة دعت إلى ضرورة تحقيق العدالة والدفاع عن حقوق الإنسان، من دون أن تُولي اهتمامًا يُذكر لحقيقة أنّ الحرب نفسها هي إرهابٌ مُشرّع وظلمٌ مُطلق وانتهاكٌ لا يُمكن إصلاحه... لكلّ حق.

جينو سترادا – عن مسألة تدخل الطوارئ في أفغانستان عام 2001.

هناك من يعتقد أن في فلسطين اليوم جانبين، وأنّ ما بينهما... يسمّى «الصراع».

في المقابل، يؤمن آخرون بأنّ هذا ليس صحيحًا إطلاقًا. وإن أمكنت إعادة تمثيل هذه القصّة على مسرح تراجيدي يوناني، فسيكون اللاعبون الرئيسيّون المعنيّون ثلاثة على الأقلّ: الفلسطينيّون، الإسرائيليّون، والإمبرياليّة الغربيّة. وتدعم هذه الأخيرة جوقةٌ من التبعيّة، وأوليغارشيّة أنانيّة تتوزّع على حكومات عربيّة عدّة.

«لقد أثبتت هذه «الحرب» أنّ الصلة بين الإمبرياليّة الغربيّة وإسرائيل وثيقة ولا تنقطع. إسرائيل جزءٌ لا يتجزّأ من المشروع الإمبريالي الغربي في المنطقة. إنّها مستعمَرة مرتبطةٌ بالغرب، كجميع مستعمرات القرون الماضية»، يقول غسّان أبو ستة، الجرّاح الذي يحمل الجنسيّة البريطانيّة.

أمضى غسّان أبو ستة عدّة أسابيع في غزّة، بعد الهجوم الذي شنّته إسرائيل تحت ذريعة الانتقام من شعبٍ أدين بأسره، عقب هجمات السابع من أكتوبر الدمويّة. قدّم المساعدة في مستشفيات غزّة وتمكّن من إجراء عمليّات جراحيّة.

ثمّ، بصعوبةٍ بالغة، عاد. «عندما غادرتُ غزّة **[في تشرين الثاني/ نوفمبر 2023، ملاحظة من المحرّر الإيطالي]** ووصلتُ إلى المملكة المتحدة، أدركتُ أنّ مشروع الإبادة الجماعيّة يشبه جبلًا جليديًّا. إسرائيل ليست سوى القمّة الظاهرة. أمّا ما بقي من جبل الجليد – الذي لا يُرى بوضوح من غزّة – فهو الجهاز الكامل الذي يجعل تنفيذ الإبادة الجماعيّة أمرًا ممكنًا: بي بي سي [BBC]، وسي إن إن [CNN]، وواشنطن پوست، وول ستريت جورنال، والمنظمات التي تدعمهم.

منذ انتخاب غسّان رئيسًا لجامعة غلاسكو في آذار/ مارس 2024، راح كلّ شيء يحدث من حوله.

بدايةً، رفعت جماعة «محامو المملكة المتحدة من أجل إسرائيل» المؤيّدة لإسرائيل، دعوى قضائيّة ضدّه، متّهمةً إيّاه بأنّه «غير لائق» لممارسة الطبّ بسبب منشورات مزعومة على مواقع التواصل الاجتماعي. ثم رُفض طلب تعليق رخصته الطبّية الذي قدّمه المجلس الطبّي العام من قِبل محكمة الأمر القضائي المؤقت، لعدم وجود أدلّة دامغة وعدم موثوقيّة ترجمة المنشورات. قبلت المحكمة وجهة نظر الدفاع، التي أكدت أنّ هذه الاتهامات كانت في الواقع ذات دوافع سياسيّة وأنّها مغطّاة بستار مخاوف أخلاقيّة، لكنّها تهدف إلى تقويض مصداقيّته العامّة وتقييد حرّية التعبير.

أبلغه بعض صحافيّي «بي بي سي» لاحقًا أنّ الهيئة أدرجته على قائمة الفلسطينيّين الذين لم يعد بإمكانها مقابلتهم. وفي ربيع عام 2024، مُنع مجدّدًا من دخول فرنسا وهولندا وألمانيا، حيث كان من المقرّر أن يُلقي مجموعةً من المحاضرات، نظرًا إلى حظر السلطات الألمانيّة دخوله إلى منطقة «شِنغن» بأكملها. وقد أعلنت المحكمة الإداريّة في پوتسدام لاحقًا أنّ هذا الإجراء ليس قانونيًّا. في هذه الأثناء، يُشير غسّان إلى أنّ «ألمانيا تُضاعف إمداداتها من الأسلحة [إلى إسرائيل] بعشرة أضعاف، بينما تتولى القوّات الجوّية البريطانيّة مسؤوليّة التجسّس الإلكتروني عبر طائراتها التي تحلّق فوق غزّة. كذلك تُزوّد القوّات الجوّية الإيطاليّة إسرائيل بطائرات F-35 المجهّزة للقصف حتى صنعاء. كلّ هذا يُظهر أنّ القضيّة الفلسطينيّة ليست مسألة سوء فهم. المشكلة هي أنّ القوى الغربيّة تستخدم إسرائيل أداةً لحماية مصالحها في المنطقة. لكن يجب على النخب السياسيّة

الغربيّة التعامل مع حقيقة مفادها أنّ الرأي العام آخذ في التغيّر. ولملاحظة هذا التغيّر، يكفي قياس مستوى القمع في الغرب نفسه. في الولايات المتحدة، اعتُقل آلاف الطلاب الجامعيّين. وفي المملكة المتحدة، يُعتقل حتى الناجون من المحرقة ومنظّمو التظاهرات المناهضة للحرب. وفي ألمانيا، أصبحت وحشيّة الشرطة ضدّ المتظاهرين مُمنهجة».

فور عودته إلى المملكة المتحدة، قرّر غسّان التعاون مع «سكوتلاند يارد»، مُدليًا بشهادته عن جرائم الحرب التي يتّهم إسرائيل بارتكابها. وصف الوضع الحالي بأنّه موجة دمار غير مسبوقة مقارنةً بحروب السنوات السابقة، مُشيرًا إلى أنّ الهجمات الأخيرة التي وقعت خلال عامٍ ونصف تُشكل «تسونامي عنف حقيقيًا». على سبيل المثال، أفاد أنّه رأى جروحًا ناتجة بوضوح عن استخدام الفوسفور الأبيض. وهي جروحٌ كان على دراية بها، بعدما عالجها خلال حرب غزّة عام 2009. يقول غسّان أبو ستة: «إنّ استخدام الفوسفور الأبيض محظورٌ بموجب القانون الدولي. تعرّفتُ إلى تلك الحروق فورًا: فقد عالجتها بالفعل، عام 2009»...

***

ذات أمسيةٍ في لندن وجدتُ نفسي إلى جانب غسّان. حدث ذلك خلال مؤتمرٍ انعقد في كليّة لندن للصحّة وطبّ المناطق الحارّة. هناك، تسنّى لي أن أسمع منه تلك القصص المروّعة التي أرّقتني لأشهرٍ طويلة.

خلال إقامته في مستشفى الشفاء وفي المستشفى الأهلي، حيث كان يُجري عمليّاتٍ جراحيّةً لضحايا القصف الإسرائيلي، كان غسّان ينجز نحو اثنتي عشرة عمليّةً جراحيّة يوميًا. العديد منها كانت تُجرى لأطفال. وذات ليلةٍ حزينة، اضطرّ إلى إجراء ست عمليّات بتر لقاصرين. ووفقًا لتقديراته، خضع نحو تسعمئة طفلٍ لعمليّات بتر، فقط خلال الأشهر الأولى من الصراع في غزّة. في ذلك المساء، نظر إلينا غسّان وقال: «عندما تبدأ بإجراء عمليّات جراحيّة للقاصرين، فأنت تعلم أنّ الطفل سيخضع لعشر عمليّات أو خمس عشرة عمليّةً جراحيّة أخرى على الأقلّ من الآن حتى بلوغه سن الرشد». من سيجريها؟ وأين ستُجرى هذه العمليّات، إن لم

يبقَ اليوم شيء من النظام الصحّي في غزّة؟ أيّ مستقبلٍ ينتظر هؤلاء الأطفال، هذا إذا افترضنا أنّهم سينجون؟

يستند مبرّر إسرائيل لقصف المستشفيات إلى الادّعاء المزعوم بأنّ مستشفى الشفاء كان مركزًا لعمليّات لحماس، وهو ما نفاه غسّان نفيًا قاطعًا في ذلك المساء. «في المستشفيات، لم أرَ سوى جرحى وقتلى. لا أثر لحماس». وكما في المستشفيات ينسحب الادّعاء الإسرائيلي أيضًا على القطاعات العماليّة وعلى وسائل الإعلام، ولم يتمكّن الجيش الإسرائيلي نفسه من تقديم أيّ دليلٍ لا يكون مُفبركًا. على سبيل المثال، أظهرت صورة نشرها ما يُسمّى «بجيش الدفاع الإسرائيلي» – الذي يجب أن يُسمّى في الواقع قوات الاحتلال الإسرائيلي – ضابطًا إسرائيليًا يُشير إلى ورقة مُعلّقة على جدار المستشفى، عُرِضت على أنّها خطة عمليّات لحماس؛ ولكن اكتُشف لاحقًا أنّها مجرّد جدول زمني لتنظيم دورات عمل موظفي المستشفى.

يظهر ذلك أيضًا في الصور التي جمعها غسّان – والتي اعتبرتها وسائل الإعلام صادمةً بشدّة إلى درجة أنّه لا يمكن بثّها للجمهور – والتي لا تُظهر سوى ممرّات مزدحمة بأشخاصٍ يصرخون من اليأس، وأطرافٍ مشوّهة، وجثثٍ متفحّمة.

«عندما حاصر الإسرائيليّون مستشفى الشفاء...»، يتذكّر غسّان ويتابع: «كنت عالقًا في المستشفى الأهلي الذي كان قد أصبح المستشفى الوحيد العامل في غزّة، رغم تعرّضه لأضرار جسيمة. في مستشفيات أخرى جنوب غزّة، رأيت زملائي جالسين عاجزين عن فعل أيّ شيء. انقطع التيّار الكهربائي عن المستشفى وعن غرف العمليّات. على الأقلّ في المستشفى الأهلي، كانت هناك غرفتا عمليّات متاحتان، وجهاز أشعّة سينيّة لا يزال يعمل، رغم أنّنا لم نعد قادرين على استخدام الأشعّة المقطعيّة. إلى جانبي، كان هناك جرّاح عظام وجرّاحان عامّان آخران. كانت الغارات الجوّية وحشيّة. وكان عدد المصابين الوافدين كبيرًا جدًا، لدرجة أنّنا اضطررنا إلى إجراء عمليّات جراحيّة متواصلة لمدّة اثنتين وعشرين ساعة. عندها، أنهينا كلّ شيء. في الخامسة صباحًا، خرج طبيب التخدير من غرفة العمليّات وأعلن: كفى، لا يوجد شيء، لا يوجد بروبوفول، لا يوجد أوكسيجين، لا يوجد ما أستطيع تخدير الناس به. اضطرّ المستشفى الأهلي أيضًا إلى التوقف. لم تكن لدينا أدوية نعطيهم إيّاها. وفي تلك اللحظة أدركتُ أنّ المشكلة الأخطر لم تكن نقص

الأطبّاء؛ بل تمثّلت في إفراغ نظام الرعاية الصحّية تدريجًا من طاقته، فقد كان هناك بالفعل فائض من الأطبّاء، مقارنةً بالوضع. في تلك الليلة الأخيرة التي كنتُ فيها في الجنوب، كان الجرحى يُنقلون إلى المستشفى الأهلي على عربات تجرّها الحمير. نفد الوقود في سيّارات الإسعاف. أكثر من ذلك: أعتقد أن أكثر من مئتين وخمسين عاملًا في مجال الرعاية الصحّية اعتقلتهم القوّات الإسرائيليّة خلال تلك الفترة. تعرّض بعضهم للتعذيب، ولا يزال العديد من الأشخاص، ربّما المئات، محتجزين في السجون الإسرائيليّة. أنا شخصيًا، على الأرجح، تجنّبتُ الاعتقال فقط لأنّني، في مرحلةٍ ما، انتقلتُ من مستشفى الشفاء إلى الجنوب، حيث كان لا يزال بإمكاني أن أحاول القيام بشيءٍ ما».

ما بدأ ويستمرّ في غزّة منذ خريف عام 2023 يؤكّد كلام غسّان ومخاوفه. كيف يُمكن للمرء أن يرفض وصف ما يحدث في غزّة بالإبادة الجماعيّة، في ظلّ الرعب الرهيب الذي اجتاح غزّة؟ من يُصدّق الدعاية التي تُحاول تقديم الإبادة الوحشيّة على أنّها «صراع»؟ هل كان «صراعًا» ذلك أباد فيه المستعمرون الأوروبيّون، الذين أسّسوا الولايات المتحدة، مئات القبائل الأصليّة في أميركا الشماليّة، بالبارود والتجويع، فذبحوا شعبًا كاملًا، وعلّقوا على الخوازيق رؤوس زعماء قبائلهم الأعزاء لكي يراها الجميع، بهدف بثّ الرعب في نفوس الناس وتثبيط عزيمة المقاومة؟

قبل فترةٍ وجيزة، قرأتُ في صحيفة الغارديان شهادة الدكتور أبو عجوة، الذي اعتقله الإسرائيليّون. في شهادته، يقول إنّ جلّاديه طُلِب منهم بوضوح أن يكسروا يديه، وذلك حتى لا يتمكّن من إجراء العمليّات مجدّدًا. بعد ذلك، كانت قصّة الدكتور عدنان البرش، رئيس قسم جراحة العظام في مستشفى الشفاء، وصديق غسّان المُقرّب. تُوفي عن عمر يناهز الخمسين في نيسان/ أبريل 2024، بعد وقتٍ قصير من اعتقاله ونقله إلى سجن عوفر في الضفّة الغربيّة المحتلة. صرّح بعض زملائه ورفاقه في السجن بأنّه تُوفّي نتيجة عنفٍ جنسي، وقد أدّى ثقب في الأمعاء إلى الوفاة.

«إنّ تعذيب وقتل ما يقرب ألف عامل في مجال الصحّة هو عنصرٌ أساسي في تدمير نظام الرعاية الصحّية»، أوضح لنا غسّان ذلك المساء في لندن. يمكن إعادة بناء مستشفى الشفاء في غضون عامين، لكنّ تدريب طبيب مثل عدنان البرش

استغرق اثني عشر عامًا. بالنظر إلى التخصّصات الرئيسيّة التي تحتاج إليها غزّة على نحوٍ عاجل، يمكن القول إنّه من بين اختصاصيّي علم الأمراض (باثولوجيا) الخمسة الذين كانوا موجودين قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر، لم يبقَ على قيد الحياة سوى اثنين منهم. في غزّة، لم يعد هناك أيّ أطبّاء مؤهّلين لإجراء جراحات الطوارئ. جميع أطبّاء الكلى قُتلوا. وقد قام باحث في الإحصاء الحيوي بتحليل عمليّات القتل المتعمّد المنهجيّة، فوجد أنّ أيّ عاملٍ في مجال الرعاية الصحّية في غزّة أكثر عرضةً بمرّتين ونصف من أيّ شخصٍ آخر للاستهداف والقتل على يد الإسرائيليّين. حتى عندما يكون ثمّة وقفٌ لإطلاق النار، ويتسنّى للفلسطينيّين أن يلتقطوا ما بقي من أنفاسهم قبل أن يعود القصف سريعًا، «فكُن على يقين من أنّ الإبادة الجماعيّة ستستمرّ»، تابع غسّان، في غرفةٍ مكتظة بالناس الذين استمعوا إليه في صمتٍ مهيب... «لأنّه بفعل هذه الاستراتيجيّة، سيستمرّ الناس في الموت على أيّ حال، حتى بسبب حالات كان من الممكن علاجها بسهولة». للأسف، أثبت الزمن صحّة كلامه. وحتى الآن، قُتل أكثر من ألف عامل في مجال الرعاية الصحّية بين 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 وكانون الثاني/يناير 2025، بينما سُجن أكثر من مئتين وخمسين.

«تُعرف الإبادة الجماعيّة بوضوح عندما يُلحق الدمار بكلّ شيء: الحاضر والمستقبل والماضي. كلّ ما كان عليه أهل غزّة يُسوّى بالأرض، ويُمحى»، اختتم غسّان حديثه.

إلى جانبه، في ذلك المساء، شعرتُ بالامتلاء وبالفراغ، بالنبل وكذلك بالضآلة. ما كانت قوّة كلماتنا لتنقذ حياة أيّ إنسان، على الأقلّ ليس في المستقبل القريب. لكنّ النقاش يتغيّر يومًا بعد يوم. يكفي أن نقول إنّ مُضيفنا في تلك الأمسية، مدير مجلة «لانسِت»، كان قد وصف غزّة بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر مباشرةً على هذا النحو: «مشيتُ في شوارعٍ تتصدّرها صور الشهداء، بزيّهم العسكري ورشاشاتهم المتقاطعة على صدورهم، فتُرافق الأطفال من أعلى الجدران في طريقهم إلى المدارس. هناك حيث يُمكنك رؤية رجالٍ يسيرون بوجوهٍ مقنّعة حاملين البنادق الآليّة في أيديهم، ولا يبدو أنّ أحدًا سيوقفهم. في هذه البيئة التي خلقتها حماس، تولد أجيالٌ جديدة من الأطفال في غزّة. بيئة تُؤجّج الإرهاب وتنشره». إنّ اختزال

غزّة في «بيئةٍ تُؤجّج الإرهاب وتنشره»، أمرٌ غير عادلٍ وسطحي، وتعميماتٌ كهذه مُضلّلةٌ وخطيرة. ممّا لا شك فيه أنّ حماس حكمت غزّة بقبضةٍ من حديد، وأنّ الفلسطينيّين كانوا أولى ضحاياها. لكنّ حماس سيطرت على غزّة لمدّة سبعة عشر عامًا، بموافقة إسرائيل ورضاها. أمّا بالنسبة إلى الصور على الجدران، فكثيرون يجهلون أن احتفال الفلسطينيّين بـ«الشهداء»، أي من سقطوا في المعارك بزيّهم العسكري، لا يُمثّل تمجيدًا للعنف بحدّ ذاته، بل يعكس رغبةً في تكريم من فقدوا أرواحهم على يد الاحـتلال، وتذكير المجتمع بضرورة دعم عـائلات الضحايا... وعددهم لا يُحصى. مع ذلك، من الصحيح أيضًا أنّ الأطفال يتأثرون بالبيئة التي ينشؤون فيها. ولهذا السبب، ولسنواتٍ طويلة، ناشدت منظمات حقوق الإنسان الفلسطينيّة والإسرائيليّة العالم لوقف الاحتلال والضمّ والفصل العنصري.

يا له من غـرورٍ نبديه نحن الغربيّين تجاه ثقافات وكلمات لا نفهم معناها وجذورها وجوهرها. غرور منتشر في جميع الأوساط – من الصحافة إلى النخب الأكاديميّة، وعلى نحوٍ واضح في كثير من الدوائر السياسيّة – وقد أسهم في إخفاء إنسانيّة الفلسطينيّين، وهذا ما عقّد خلاصهم وجعله أمرًا شديد الصعوبة.

لهذا السبب يجب أن يتغيّر النقاش. يجب أن ننشر كلماتٍ تفيد بكسر الجهل ونشر المعرفة، وأن نواصل طرح الأسئلة الأهم: ما الذي يمكننا فعله لوقف كلّ هذا؟ إلى أيّ مدى سيصل كلّ هذا؟ فيما يبدو العالم غارقًا في سباتٍ عميق، عاجزًا عن إغماض عينيه عن جرح شعبٍ بأكمله. جرحٌ ينفلش. هذا الجرح الذي لا يبدو أنّ أحدًا يكترث لالتئامه أو شفائه.

إيال

تدمير شعبٍ كامل...

كيف تُحسَب الخطوات على ذلك الطريق

إبادة شعب تُؤدّي إلى إبادة شعبٍ آخر... هذه حقيقة أكّدتها قرونٌ وأجيال من المُحتلّين والواقعين تحت الاحتلال. في إمبراطوريّةٍ تعسّفيّة كهذه التي تصعد أمام أعيننا، تُعدّ الحملات العقابيّة هي القاعدة، بل إنّها الجوهر. اليوم، يُعدم فلان، وغدًا فلان. وبعد غدٍ... سيأتي الدور على ليانا الصغيرة.

آنا پوليتكوڤسكايا – «لهذا السبب»

نظريًا، وقبل الخوض في جوهر الآراء السياسيّة والشخصيّة، ينبغي لأيّ نقاش دقيق في مسألةٍ مثل الإبادة الجماعيّة أن يستند إلى ما يُقرّه القانون الدولي في هذا الشأن.

إليكم إذن الموادّ الخمس الأولى من الاتفاقيّة التي أقرّتها الأمم المتحدة في نيويورك في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1948، في أعقاب المحرقة، التي أودت بحياة ما يقرب من ستة ملايين يهودي أوروبي، وأكثر من مئتين وخمسين ألفًا من شعب الروما والسنتي*، وثلاثمئة ألف شخص من الأشخاص ذوي الإعاقة.

* شعب الروما والسنتي يتكوّن من جماعات عرقية رحّالة، تعود أصولها حسب بعض الدراسات إلى شمال الهند، وقد انتقلوا تدريجًا نحو الغرب عبر إيران والبلقان حتى استقروا في مختلف أنحاء أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر. يتميزون بلغة خاصة وثقافة متميزة، لكنّهم واجهوا منذ وصولهم إلى أوروبا تمييزًا اجتماعيًا مستمرًا ونبذًا من المجتمعات المضيفة، ما دفعهم غالبًا للعيش في عزلة نسبية ومجتمعات مغلقة. خلال الحرب العالمية الثانية، تعرّض أكثر من 250,000 من الروما والسنتي للاضطهاد والترحيل والإبادة على يد النظام النازي وحلفائه، في ما يُعرف بالمحرقة (الهولوكوست)، حيث أُعدموا في معسكرات الاعتقال، وحُرموا من حقوقهم الإنسانية الأساسية، وعانى العديد منهم من التجويع، المرض، والتعذيب قبل أن يُقتلوا. لقد كانت هذه الإبادة محاولة ممنهجة للقضاء على جماعة بأكملها بسبب عرقها وثقافتها، لتضاف إلى سجلّ النازية في ارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

اتفاقيّة منع جريمة الإبادة الجماعيّة والمعاقبة عليها

إنّ الأطراف المتعاقدة:

إذ ترى أنّ الجمعيّة العامة للأمم المتحدة، بقرارها 96 (د1-) المؤرخ في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1946، قد أعلنت أنّ الإبادة الجماعيّة جريمة بمقتضى القانون الدولي، تتعارض مع روح الأمم المتحدة وأهدافها ويدينها العالم المتمدّن،

وإذ تعترف بأنّ الإبادة الجماعيّة قد ألحقت، في جميع عصور التاريخ، خسائر جسيمة بالإنسانيّة، وإيمانًا منها بأن تحرير البشريّة من مثل هذه الآفة البغيضة يتطلب التعاون الدولي،

تتّفق على ما يلي:

المـادة الأولى

تصادق الأطراف المتعاقدة على أنّ الإبادة الجماعيّة، سواء ارتكبت في أيّام السلم أو أثناء الحرب، هي جريمة بمقتضى القانون الدولي، وتتعهّد بمنعها والمعاقبة عليها.

المـادة الثانية

في هذه الاتفاقيّة، تعني الإبادة الجماعيّة أيًّا من الأفعال التالية، المرتكبة على قصد التدمير الكلّي أو الجزئي لجماعة قوميّة أو إثنيّة أو عنصريّة أو دينيّة، بصفتها هذه:

أ. قتل أعضاء من الجماعة.

ب. إلحاق أذى جسدي أو روحي خطير بأعضاء من الجماعة.

ج. إخضاع الجماعة، عمدًا، لظروف معيشيّة يُراد بها تدميرها المادّي كليًّا أو جزئيًّا.

د. فرض تدابير تستهدف الحؤول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة.

هـ. نقل أطفال من الجماعة، عنوةً، إلى جماعة أخرى.

المادة الثالثة

يعاقب على الأفعال التالية:

أ. الإبادة الجماعيّة.

ب. التآمر على ارتكاب الإبادة الجماعيّة.

ج. التحريض المباشر والعلني على ارتكاب الإبادة الجماعيّة.

د. محاولة ارتكاب الإبادة الجماعيّة.

هـ. الاشتراك في الإبادة الجماعيّة.

المادة الرابعة

يعاقب مرتكبو الإبادة الجماعيّة أو أيّ من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثالثة، سواءٌ كانوا حكّامًا دستوريّين أو موظفين عامّين أو أفرادًا.

المادة الخامسة

يتعهّد الأطراف المتعاقدون بأن يتخذوا، كلٌّ طبقًا لدستوره، التدابير التشريعيّة اللازمة لضمان إنفاذ أحكام هذه الاتفاقيّة، وعلى وجه الخصوص النصّ على عقوبات جنائيّة ناجعة تنزل بمرتكبي الإبادة الجماعيّة أو أيّ من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثالثة.

ينبغي أن يُشكّل هذا النصّ، والوعي الإنساني الذي يقوم عليه، الأساس الذي لا غنى عنه للجميع، بمن فيهم أولئك الذين لا يزالون يُشكّكون – أو حتى يعتقدون أنّ لديهم حججًا للاعتراض – على فكرة أنّ جميع الأعمال التي ارتكبتها دولة إسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني تندرج تمامًا ضمن تعريف «جريمة الإبادة الجماعيّة».

أول مرّة سمعت فيها عن إيال وايزمان Eyal Weizman كانت في 2017، بينما كنتُ أضع مع ليكس تاكِنبرغ كتاب «اللاجئون الفلسطينيّون في القانون الدولي».

في ذلك الوقت، كنتُ أعيش مع عائلتي في إندونيسيا، لكنّني كنت قد قضيتُ أسابيع طويلة في المشرق العربي، وخاصّةً في الأردن وفلسطين، وأنا أبحث في الأرشيف وأتحدّث مع أشخاصٍ يُمكنهم مساعدتي في جمع كلّ الأدلة التي كنتُ أعدّها لإعادة بناء تصوّر واضح لما يقرب من ثمانين عامًا من التهجير القسري

للفلسطينيّين من وطنهم، من منظورٍ قانوني. ورغم أنّه كان كتابًا قانونيًّا وتقنيًّا بحتًا، حرصتُ بشدّة على عدم إغفال الجانب التاريخي لما حدث للشعب الفلسطيني. بالنسبة إليّ، كان من الضروري أن أوضح لقرّاء ذلك النصّ كيف حدَّدت السياسة بعض العواقب القانونيّة، أي كيف منعت تطبيق القانون في بعض الحالات على سبيل المثال.

في سعيي الحثيث للوصول إلى فهمٍ أعمق ولاستخدام أدوات تحليليّة منهجيّة تفيدني وتفيد مَن سيقرأ النصّ يومًا ما، قضيتُ أمسيات عديدةً في مكتب الدكتور أنيس قاسم، المحامي المرموق والمثقف، الذي عمل لسنواتٍ عديدة – بالإضافة إلى كونه كتب تحليلاتٍ قانونيّةً بالغة الأهمّية تتعلق بالقضيّة الفلسطينيّة – محرّرًا لمجلّةٍ علميّة مختصّة بالقانون الدولي، وهي «الكتاب السنوي الفلسطيني للقانون الدولي».

كان ثمّة طقس نبدأ به جلساتنا: تحيّة جميع المحامين في المكتب، والجلوس على الكراسي المختلفة حول الطاولة، بينما كان أنيس قاسم ينقل كومةً من المجلدات من مكتبه المكتظ بالكتب والملفّات مفسحًا المجال للعابرين في المكتب. وكان يُحضر البسكويت والشاي، ثمّ يبدأ بالحديث. لطالما أحببت صوته الهادئ والأنيق، الذي كان يأخذني إلى فترات تاريخيّة كان هو نفسه بطلها، مثل سنوات عمليّة السلام. خلال إحدى هذه المحادثات، سألني: «هل قرأت رواية «أرض جوفاء» لإيال وايزمان؟».

لاحظتُ عبوسًا في وجه بعض الحاضرين عند سماعهم هذا الاسم، لكنّني كنتُ أعرف البروفسور قاسم جيّدًا حينها. كنتُ متأكدةً من أنّه لن يستبعد أبدًا مؤلفًا من قائمة قراءاته لمجرّد أنّه إسرائيلي. فهو الذي نصحني، قبل بضع سنوات، بقراءة سلسلة كتب للمؤرّخ الإسرائيلي آفي شلايم، الذي نشأتْ بيني وبينه لاحقًا علاقة صداقة واحترام متبادل وعميق.

في عصر ذلك اليوم، تحدّث معي «الدكتور أنيس» – كما نناديه جميعًا، احترامًا له – طويلًا عن كتاب «الأرض الجوفاء» – المترجم إلى الإيطاليّة تحت عنوان «Spaziocidio».

ثمّة كتاب آخر، هو «إسرائيل والعمارة أداةً للضبط والسيطرة»، الذي قرأته بعد ذلك بوقتٍ قصير. أجده هو الآخر أيضًا كتابًا دقيقًا وضروريًا لفهم ما حدث في فلسطين، انطلاقًا من حقيقة أنّ التدمير المنهجي والإنساني والسياسي لشعبٍ ما، يبدأ أولًا وقبل كلّ شيء بخلق... أرضٍ خواء.

بصفته مؤسّسًا ومديرًا لمجموعة الأبحاث «الهندسة المعماريّة الجنائيّة»، يلتزم إيال وايزمان الكشف عن الظروف البائسة التي يفرضها الاحتلال الإسرائيلي، من خلال التحليل المكاني. من موقعه كمهندس معماري جنائي – أي كمحترف يستخدم بشكل أساسي الأدوات المعماريّة والتقنيّات الرقميّة لإعادة بناء أحداث الماضي المتعلقة بالجرائم والكوارث وانتهاكات حقوق الإنسان – يتتبّع إيال في هذا الكتاب تاريخ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين على مدى أربعين عامًا، تحديدًا بين عامي 1967 و2007.

هذا المنظور التقني المتطوّر للأحداث، الذي ظننتُ أنّني على اطلاعٍ عليه إلى حدٍّ ما من الناحيتين القانونيّة والتاريخيّة، قادني إلى اكتشاف إطار جغرافي جديدٍ ومحدّد بدقة، ولكنّه مجسّد من خلال تجربة شعب، وتاليًا من خلال تجليات التاريخ في حياتهم اليوميّة. كلّ هذا ساعدني على تعميق فهمي للعنف في فلسطين من خلال تجزئة القانون، الأمر الذي يتبع على نحوٍ متناقض التجزئة الجغرافيّة، بدلًا من المساهمة في حلّها.

حسب كتاب «أرض جوفاء»، يتضح كيف أنّ إسرائيل استخدمت العمارة والجغرافيا كأدوات قوّة لتعزيز سيطرتها على الأراضي الفلسطينيّة المحتلة. لقد خضعت المساحات الحضريّة والمناظر الطبيعيّة لتعديلات تناسب الهيمنة العسكريّة والسياسيّة، وينعكس ذلك في جوانب عديدة. بدءًا من التصميم الاستراتيجي للمستوطنات الإسرائيليّة في الضفّة الغربيّة، بحيث تؤدّي عمليّة الاستيطان إلى خلق تجزئة جغرافيّة تعوق الاستمراريّة في الأرض الواحدة وتمنعها من التماسك، وصولًا إلى إدارة البنية التحتيّة والتحكّم بحركة التنقّل. ثمّة منظومة كاملة تعمل باتجاهين: كيف يمكن للطرق ونقاط التفتيش والجدران العازلة، التي تقيّد حرّية الفلسطينيّين من جميع النواحي وتمنعهم عن التنقل منذ عقود، أن

تضمن، في الوقت نفسه، وصولًا آمنًا وسريعًا للمستوطنين الإسرائيليّين، تحت أنظار المجتمع الدولي «المحايد» والمراقب؟ وما الهدف من كلّ هذا؟

خلال قراءة «الأرض الجوفاء»، كان مفهوم «السياسة العموديّة» شديد الأهمّية بالنسبة إليّ. بواسطة مسح كامل وثلاثي الأبعاد للحيّز المكاني من الفضاء، يظهر على نحوٍ لا يترك مجالًا للشك عدم اقتصار الاحتلال الإسرائيلي على الحدود الأفقية وحسب، بل يبيّن كيف تطال سيطرة الاحتلال على المجال الجوّي وعلى باطن الأرض – من خلال الأنفاق والقنوات المائيّة على سبيل المثال – وعلى ارتفاع المباني.

بفضل دراساته واهتماماته المتنوّعة، وما اكتشفته لاحقًا عن شخصيّته المتعدّدة الأبعاد، يروي إيال وايزمان قصصًا كثيرة. لكن جوهر الكتاب يقوم على تفسير نجاح إسرائيل في خلق وضع سياسي يسمح لها بمحاصرة الفلسطينيّين، من خلال استغلال فوضى جغرافيّة «بنيويّة» تعمل للمفارقة ضدّ الفلسطينيّين. حسب رأيه، يمكن لأيّ شخص تقريبًا أن يكون متواطئًا في هذا النظام (طواعيةً أو بالإكراه)، ما لم ينأَ بنفسه عنه بصرامة شديدة.

ليس التنظيم المكاني للأراضي المحتلة نتيجة عمليّة تخطيط وتنفيذ منظمة وحسب، بل هو أيضًا، وعلى نحوٍ متزايد، نتيجة «فوضى منظمة»، حيث يُعزّز الغياب الانتقائي – والمتعمّد في كثيرٍ من الأحيان – لتدخل الدولة عمليّات نزع الملكيّة العنيفة وغير المنظمة. الجهات الفاعلة العاملة داخل هذه المنطقة الحدوديّة – أي المستوطنون الشباب، الجيش الإسرائيلي، شركة الهاتف المحمول وغيرها من الشركات الرأسماليّة الكبرى، الناشطون في مجال حقوق الإنسان والسياسيّون، المقاومة المسلحة، الخبراء القانونيّون والإنسانيّون، وزراء الحكومة الإسرائيليّة، الحكومات الأجنبيّة، الجالية «الداعمة» في الخارج، مخطّطو الدولة، وسائل الإعلام، محكمة العدل العليا الإسرائيليّة – على الرغم من اختلاف أهدافها وتناقضها، تؤدّي جميعها دورًا في إنشاء هذه المساحات وفي تعديلها على نطاقٍ واسع، وعلى نحوٍ فوضوي، وإن كان الأمر يحدث بصورةٍ جماعيّة.

من الأفكار التي وجدتها الأكثر تألقًا في نصّه، كانت تلك الدعوة إلى التنبّه إلى خطورة «المفارقة الإنسانيّة». ذلك الاحتمال بأن تؤدّي التدخّلات الإنسانيّة، من دون قصد، إلى دعم الاحتلال العسكري بدلًا من معارضته. يعتقد إيال وايزمان أنّ التدخّل لتصويب عواقب قرارات معيّنة اتّخذتها قوّات الاحتلال قد يؤدّي إلى إعفاء إسرائيل، بطريقةٍ ما، من مسؤوليّاتها، بما في ذلك القانونيّة، بما يسمح لها بتحويل الموارد إلى أهداف أخرى، وفي الوقت نفسه، قد يقدّم صورةً للاحتلال يكون بموجبها أكثر «فعاليّة» فيصبح أكثر قبولًا في نظر الرأي العام. انطلاقًا من هذا الافتراض، نصل إلى مفهومٍ مفاده أنّ كلّ من يجد نفسه، بأيّ صفة، في مثل هذا الوضع الجدّي، يجب عليه احترام شروط النزاهة، حتى خارج حدود المهنة التي يُطلب منه القيام بها في سياقٍ معيّن. على سبيل المثال، يوضح روني براومان Rony Brauman من منظمة «أطبّاء بلا حدود»، أنّه «يجب على المنظمات الإنسانيّة – التي يتاح لها أحيانًا الوصول إلى مواقع ومعلومات يُحرم منها آخرون، بمن فيهم الصحافيّون – الاستفادة من وجودها في تلك الأمكنة للشهادة على الظلم الذي تلاحظه والتنديد به، مع الحفاظ على شروط الاستقلاليّة والنزاهة في العمل». ووفقًا لبراومان، فإنّ أيّ عامل في مجال الرعاية الصحّية «يذهب إلى الميدان مزوّدًا بأدوات طبّية ولكنّه يعود بشهادة». إنّ المهمّة لا تقتصر على علاج المرضى وحسب، بل تشمل «الشهادة على حقيقة الظلم المرتكب والمسؤوليّة السياسيّة المترتبة عليه».

***

التقينا أنا وإيال لأول مرّة في لندن. كنت قد ذهبت لحضور مؤتمر. بعد نشر تقريري حول تقرير المصير للأمم المتحدة، تواصلتُ معه لما لمستُه من تقاربٍ كبيرٍ بين منهجينا في دراسة الاستعمار الاستيطاني بجوانبه المادّية وغير المادّية، وفي النظر إلى عمليّة الإحلال الجارية في فلسطين... منهجه الذي يقوم على المساحة والمكان، ومنهجي الذي يقوم على القانون. ذات صباحٍ بارد، التقينا في منزله. وكان بصحبة بعض المساعدين المقرّبين منه. مِن أكثر العبارات لفتًا لانتباهي خلال تلك المحادثة كانت علاقته بإسرائيل. قال: «لن أعود إلّا عندما أحصل على

جواز سفر فلسطيني». أصابني بالذهول. ومنذ ذلك اللقاء، نشأ بيننا تعاونٌ راسخ، تحوّل شيئًا فشيئًا إلى صداقةٍ ثمينةٍ تزداد قوّةً مع مرور الوقت.

في شباط/ فبراير 2025، وجدتُ نفسي وإيال جنبًا إلى جنب في برلين. كان من المفترض خلال الزيارة أن نناقش الآثار الخطيرة للعمليّات العسكريّة الإسرائيليّة والسياسات التي أدّت إلى تدمير الحياة في غزّة. بيد أنّه أُلغيت مداخلتانا المقرّرتان، أو مُنعتا بسبب ضغوط سياسيّة على الجامعات والمنظمات. وقد كان هذا نذيرًا واضحًا على تراجع الحرّية الأكاديميّة في ألمانيا.

مع ذلك، وفي سياق الترهيب المتزايد الذي يطال كلّ مَن يُصرّ على إبقاء النقاش مفتوحًا، اتّفقتُ أنا وإيال على التزامٍ محدّد: أن نتمسّك بمنارة الأمل، جنبًا إلى جنب مع الألمان الذين يرفضون الخضوع للقمع، والعديد من اليهود، والعديد من الفلسطينيّين في ألمانيا الذين يواجهون قمعًا غير مسبوق في أوروبا. وبرغم الشدائد ومناخ الخوف، عُقدت مؤتمراتنا بفضل عزيمة جميع المعنيّين، وإن كان ذلك في مواقع مؤقتة ووسط حضورٍ مكثف لرجال الشرطة.

انطلاقًا من منهجيةٍ ومن منظورٍ مرتبطين بالعمارة، قدّم مفهومًا أثّر فيَّ بعمق: إنّ الوطن بالنسبة إلى الفلسطينيّين، وعلى مدى أجيال... «هو شيء يتركونه وراءهم، وليس المكان الذي يقيمون فيه». إلى حدٍّ كبير، يلتقي هذا مع ما توصّلت إليه غالبًا في تفسير الإبادة الجماعيّة من خلال الاستعمار الاستيطاني أو التطهير العرقي. بالنسبة إلى الشعوب الأصليّة، الأرض هي الهويّة وما يكون المرء عليه... وليست المكان الذي يعيش فيه.

يوضح إيال أنّ الاستعمار الاستيطاني عمليّة تعمل من خلال ديناميكيّة مزدوجة: البناء والهدم. من جهة، تُبنى المستوطنات والبنية التحتيّة والمستعمرات؛ ومن جهةٍ أخرى وبطريقةٍ ممنهجة تدمّر كلّ الشروط وكلّ ما يجعل الحياة ممكنةً للسكّان المُستَعمَرين.

كان من المفترض أن نعقد المؤتمر في اليوم التالي بجامعة برلين – الذي ألغته السلطات الألمانيّة، فاضطُرِرنا إلى نقله في اللحظة الأخيرة إلى مكان أقلّ سِعةً بكثير – وكان يحمل هذا العنوان تحديدًا: «ظروف معيشيّة مصمّمة من أجل التدمير». في إشارة إلى المادّة 2(ج) من اتفاقيّة الإبادة الجماعيّة، التي تحظر فرض «ظروف

معيشيّة مُصمّمة للتدمير الجسدي كليًّا أو جزئيًّا»، أضاف إيال في ذلك اليوم: «يمكننا القول إنّ قياس ظروف معيشة الآخرين يشكّل بحدّ ذاته مفهومًا ضمنيًا في الاستعمار الاستيطاني».

وفقًا لتحليلاته، هذا النوع من الاستعمار يعمل بطريقتين متعارضتين. من جهة، يقوم على تحسين الظروف في الأراضي المحتلة لتشجيع وصول مستوطنين [مُستَعمِرين] جدد وزيادة الوزن الديموغرافي للإسرائيليّين؛ ومن جهةٍ أخرى يعمل بألف طريقة على تدمير السكّان الفلسطينيّين وتحويل حياتهم إلى جحيم.

«قطاع غزّة ليس إلّا نتيجة لجهدٍ هندسي يهدف إلى تدمير الظروف المعيشيّة داخل الحيّز. إنّها تجربةٌ طويلة تدهورت فيها الظروف المعيشيّة لدرجة أنّ السكّان يُجبرون على الرحيل»، يشرح إيال. ولم يكن يشير إلى حصار السنوات العشرين الماضية فقط أو إلى الكارثة التي نشهدها منذ تشرين الأول/ أكتوبر 2023، بل كان يشير إلى التكوين المكاني والسياسي للقطاع منذ إنشائه عام 1948. بالنسبة إليه، صُمّمت غزّة لتكون مكانًا تُصبح فيه الحياة غير مستدامة على نحوٍ متزايد، بناءً على نظام عرّفته الباحثة الأميركيّة سارة روي Sara Roy بأنّه «التنمية معكوسةً»: انقطاع تدريجي في المياه والكهرباء، تدمير البنية التحتيّة، وذلك بعد عقودٍ من تهيئة الظروف لتخريب وتلويث باطن الأرض وجعل طبقة المياه الجوفيّة غير قابلة للحياة، إفقار الأوضاع الاقتصاديّة، وتقويض المستشفيات والبحث العلمي. كلّ هذا... داخل غيتو. فمنذ عام 1948، وعلى الرغم من التطوّرات القانونيّة الكبرى، بقيت غزّة غيتو دائمًا، كما ذكّرنا إيال. ومع مرور الوقت، دفع النموّ السكّاني وعدم رغبة السكّان في الخضوع لفكرة الهجرة الطوعيّة – التي حاولت إسرائيل بما في ذلك من خلال الأمم المتحدة الترويج لها عبثًا لعقود – الإسرائيليّين إلى التفكير في اتّخاذ تدابير جذريّة للحدّ من التهديد الديموغرافي الذي تُشكّله غزّة عليهم. ومع أنّ الضفّة الغربيّة أقلّ كثافةً من الناحية السكّانيّة، حيث لا تزال هناك طرقٌ عديدة لرعاية – أو تجنّب رعاية – سكّانها المحليّين، فإنّ غزّة تُعدّ من أكثر المناطق كثافةً سكّانيّةً في العالم، أو بالأحرى، كانت كذلك.

«على مدى عشرين عامًا مضت، كانت ظروف المعيشة في غزّة تُحسَب بدقّةٍ بالغة، لدرجة أنّهم نظموا السعرات الحراريّة»، يقول إيال، موضحًا أنّ إسرائيل هي

التي حدّدت كمّية ونوعيّة الطعام المسموح بدخوله إلى القطاع، وقد حُدّدت الكمّيات بناءً على الحدّ الأدنى اللازم لمعايير العمر والجنس. طوال هذه الفترة، ما حصل عليه الفلسطينيّين من إمدادات المياه والكهرباء كان «وفقًا لمستوى يُعرّف بأنّه الحدّ الأدنى إنسانيًا».

يبدو لافتًا للنظر كيف قامت الدولة الإسرائيليّة بنفسها في تلك الأثناء، بتحسين الظروف المعيشيّة في الأراضي المجاورة لغزّة، وذلك لإغراء الإسرائيليّين بالاستقرار هناك من خلال توفير الدعم والبنية التحتيّة ونقل المياه من شمال فلسطين التاريخيّة إلى جنوبها. «لم يكن من السهل إقناع المستوطنين الجدد بالقدوم والعيش بالقرب من غزّة»، هذا ما لاحظه إيال – الذي يستعمل تسمية «مُستوطِن» على كلّ من لا تعود أصوله إلى تلك الأرض ولكنّه ذهب للعيش في فلسطين التاريخيّة (إسرائيل حاليًا) – مُبيّنًا أنّه لتحقيق هذه الغاية، كان من الضروري «حساب الظروف المعيشيّة» في الاتّجاه المعاكس.

جميع أشكال القمع المُمارسة ضدّ الفلسطينيّين – التطهير العِرقي، الاحتلال الدائم، الفصل العنصري، والإبادة الجماعيّة – هي في الواقع جوانب من النظام الاستعماري نفسه. وفي هذا الموضوع بالتحديد، أضاف إيال اقتباسًا لا يُنسى: «عندما تكون آليّات قياس وتحديد ظروف معيشة شعب ما نشطة وواقعة بالفعل، فإنّه وفي اللحظة التي تقرّر فيها إبادة ذلك الشعب، كلّ ما عليك فعله هو دفع الآليّات إلى قدرتها التشغيليّة القصوى».

قبل أن ترسم المنظمة التي يقودها إيال «خريطة الإبادة الجماعيّة» الحقيقيّة في غزّة (أُطلقت المنصّة التفاعليّة «خريطة الإبادة الجماعيّة» عام 2024)، كان مؤرّخون إسرائيليّون آخرون قد توصّلوا إلى النتيجة نفسها، مثل إيلان پاپيه، الذي استكشف مفهوم التطهير العرقي في سياق النكبة، وراز سِغال، الذي وصف الواقع الحالي في غزّة بأنّه مثالٌ نموذجي على «إبادة جماعيّة صريحة، ظاهرة للجميع، ومن دون أيّ حياء».

إنّ الإبادة الجماعيّة لا تبدأ من الصفر. لا تتكوّن من تصعيد مفاجئ، بل تُطعَّم بهياكل وآليّاتٍ قائمةٍ مسبقًا، يشرح إيال. وينطبق هذا على الإجراءات الإسرائيليّة في فلسطين، وكذلك على مواقف وسياقات أخرى واجهها إيال في عمله محلّلًا

وباحثًا، مثل الإبادة الجماعيّة التي ارتكبتها القوّات الحكوميّة في غواتيمالا في أوائل ثمانينيّات القرن الماضي ضدّ سكّان المايا الأصليّين، المتّهمين بدعم المتمرّدين اليساريّين، أو تلك التي ارتُكبت ضدّ شعبَي ناما وهيريرو في ناميبيا، عندما ردّت القوّات الاستعماريّة الألمانيّة بين عامي 1904 و1908 على الثورة ضدّ القمع الاستعماري بحملة إبادةٍ حقيقيّة شملت الترحيل ومعسكرات الاعتقال والتجويع والمرض.

في كلتا الحالتين، وجد إيال النمط نفسه، القائم على تدمير الأراضي وظروف المعيشة وسيلةً للإبادة. «لا يُمارس العنف مباشرةً على البشر وحسب، بل يُمارس أيضًا على البيئة التي تُغذي حياتهم... المستشفيات والمدارس والمجتمعات المحليّة ودور العبادة».

الإبادة الجماعيّة التي يتحدّث عنها إيال هي شكلٌ من الأشكال الأصيلة الهادفة إلى القضاء على الآخر. إنّها مذبحةٌ للجسد بكلّ الوسائل الممكنة، بما في ذلك وسائل التدمير المكاني.

إن كانت الرصاصات كافيةً لقتل جسد، فإنّ قتل شعب كامل يتطلب ما هو أكثر من ذلك بكثير. يجب تفعيل كلّ الوسائل المتاحة حتى يُفرّغ الجسد الجماعي ويُباد، حتى عندما يستمرّ في الحركة.

يبدو الأمر لي أشبه بسلسلةٍ من الصدمات الكهربائيّة المتواصلة: صدمات تتكرّر وتُطفئ الحياة من صميمها. يكفي أن ننظر إلى أحوال الأميركيّين الأصليّين، أو أحوال العديد من الشعوب الأصليّة القليلة جدًا في أوستراليا، والتي ما زالت تقاوم. في المقابل، في أوتياروا المجاورة، التي أصبحت تسمّى بعد الاستعمار نيوزلندا، تعرّض شعب الماوري [Māori] للاحتلال والاستعمار، لكن بالنسبة إلى حياته كشعب، على الرغم من تقييدها وعدم حمايتها بالكامل، لم تُختنق أو تُدمّر تمامًا، بينما هذا هو الواقع بالنسبة إلى العديد من الشعوب الأصليّة الأخرى. وهذا ما يُهدّد الفلسطينيّين في أرضهم، تمامًا كما حدث مع اليهود في أوروبا قبل قرنٍ من الزمن.

بعد سنوات من التمييز والاضطهاد، جاءت القوانين العنصريّة. وجاء الطرد من الحياة المدنيّة، وشهد العالم أقصى درجات العزل في الأحياء اليهوديّة، وكان الجوع

والمرض. ثمّ – بما أنّ عدد يهود أوروبا بقي مرتفعًا – وتحت قيادة مجرمين عديمي الضمير، وفي صمتٍ شبه تامّ من المعاصرين، تمّ التوصّل إلى التصوّر النهائي.

هكذا استفحل الرعب غير المسبوق في أوروبا، وأصبحت الإبادة تعمل وفقًا لآليّة، وعلى نطاقٍ واسع. وهذا ما دفع العالم إلى القول «لن يتكرّر ذلك أبدًا»، واعتبار الإبادة الجماعيّة جريمة.

***

اليوم، في فلسطين. بوضوحٍ تام، تبدو الإبادة الجماعيّة التي انطلقت في اليوم التالي الذي أعقب الهجوم الذي شنّته حماس في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، عملًا ممنهجًا يهدف إلى تدمير شعبٍ كامل، من خلال سلسلة من العمليّات العسكريّة التي استهدفت المدنيّين عشوائيًّا، مسبّبةً الموت والدمار في كلّ مكان. بواسطة ترسانتها الفتّاكة سوّت القوّات الإسرائيليّة مدنًا كاملة بالأرض. سحقت منازل ومدارس ومستشفيات. لم ينجُ شيءٌ ممّا يمكن عدّه من مقوّمات الحياة اليوميّة. الجروح التي لحقت بالشعب الفلسطيني ظاهرة. عشرات الآلاف من القتلى، من بينهم أكثر من سبعة عشر ألف طفل. ومئة ألف جريح. مليون طفل: هذه هي التركيبة السكّانيّة لغزّة. مصابون في كلّ مكان، بجراحٍ في أجسادهم وفي أرواحهم. أولئك الذين يُسكِت أصواتهم عنفٌ عشوائي لا يرحم.

منذ تشرين الأول/ أكتوبر 2023 وصاعدًا، أصبحت الحياة في غزّة حلقةً متكرّرةً من القصف والمجازر. صار حدوثها مقترنًا بسياقٍ واحد: عمدًا وبإصرار، مُنعوا من الوصول إلى الموارد الأساسيّة كالمياه والأدوية. يدفع الأمر السكّان نحو الجوع واليأس. إنّ الكلمات المستخدمة لشيطنة الفلسطينيّين – «حيوانات بشريّة»، «لا يوجد مدنيّون أبرياء»، «حتى الأطفال ليسوا أبرياء» – تصاحب سياسة العنف والإفلات من العقاب، وتعكس ماضيًا دنيئًا لا ينبغي لنا نحن الأوروبيّين، أكثر من أي أحدٍ آخر، أن ننساه.

سأقولها بلا مواربة: إنكار خطورة هذه الأفعال ليس سوى غضٍّ للنظر عن إبادة جماعيّة مستمرّة. جريمة كانت ستتطلب حشدًا عاجلًا من المجتمع الدولي، وهو

ما لم يحدث بعد للأسف. لأنّه اليوم وأمس وغدًا، قبل وقف الإبادة الجماعيّة، لا بدّ من النظر إليها ورؤيتها.

الإبادة الجماعيّة يُدركها ضحاياها. شعبٌ مُستهدف على هذا الأساس. على مدى عقود، عومل الفلسطينيّون كما لو أنّهم جزءٌ من وجود ثقيل غير مُرحّب بعناصرهِ الذين هم أهل المكان، حتى في الأرض القليلة التي تُرِكت لهم – غزّة والضفّة الغربيّة والقدس الشرقيّة – حيث كان من المفترض أن يتمكنوا من بناء الدولة التي طالما أرادوها، والتي يدّعي المجتمع الدولي دعمها. بدلًا من ذلك، أحكمت إسرائيل الإطباق عليهم بقبضةٍ من حديد. طردت الفلسطينيّين من بيوتهم، مُدّعيةً «سيادة الشعب اليهودي» وحده على تلك الأرض. إنّه مفهومٌ، إن تأمّلته، كان مُستهجنًا منذ مئة عام، بالنظر إلى أنّ تلك الأرض لم تكن يومًا مأهولة باليهود وحدهم. لقد كانت بوتقةً مُرحّبةً بثقافاتٍ وأديانٍ وشعوبٍ مُختلفة، يُشكل اليهود أقليّةً فيها. ويبدو الأمر أكثر عبثيّةً في ضوء الإطار القانوني الدولي الحالي، الذي لا يتسامح مع أيّ تمييزٍ من أيّ نوع، بما في ذلك التمييز على أساس الدين أو «العِرق». تلك الكلمة المُروّعة التي ما انفكّت تُلحِق ضررًا رهيبًا بالبشريّة على مدى خمسمئة عامًا مضت.

كانت المأساة المُستمرّة في فلسطين بمثابة سجلٍّ لإبادةٍ جماعيّةٍ متوقعة للأسف. لطالما نبّه علماء الإبادة الجماعيّة من الإشارات التحذيريّة... عمليّات القتل بإجراءاتٍ موجزة، الاعتقالات التعسّفيّة، والفصل العنصري بحق الفلسطينيّين. ظروفٌ مُصمَّمةٌ خصّيصًا لإفناء شعبٍ كامل.

لكنّ كلّ هذا جرى تجاهله، وعلى نحوٍ منهجي، إن لم يكن بالتطبّع معه بمرور الوقت. كشف توسّع المستوطنات الإسرائيليّة – الذي يحدث بحجّة مفاوضات لا نهاية لها ولا تقود إلى شيء – عن مدى وهم فكرة السلام من دون حقوق. لكن يجري تجاهل كلّ هذا، لأنّ قصّة فلسطين التي تُروى في هذه الأثناء مختلفة تمامًا.

تُعدّ إيطاليا مثالًا واضحًا على قدرة السياسيّين على التلاعب بالرأي العام تدريجًا. وهذا ما جعلها تنحاز على نحوٍ متزايد إلى حكومات يمين الوسط الإسرائيليّة المتعاقبة (ينسحب هذا حتى على ما يُسمّى «اليسار» الإيطالي، وعبر انخراط العديد من أعضاء الحزب الديمقراطي الذين نشطوا في الدفاع عن المصالح

الإسرائيليّة). لطالما حدث ذلك كنتيجةٍ مباشرة للتوجيهات السياسيّة وبتأثيرٍ لوسائل الإعلام.

بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، ومع بدء الحرب على الإرهاب العالمي، جرت مواجهة المدافعين عمّا بقي من أرضهم بأحكامٍ اختزاليّة. وهكذا، وُصم الفلسطينيّون بالإرهاب من دون مقدّمات، من دون أيّ محاكمة أو أيّ استئناف، لقد صُوِّروا كمجموعةٍ يجب أن يُقضى عليها. ثمّة فكرةٌ اختفت من النقاش العام في إيطاليا... فكرة أنّ الفلسطينيّين، في ظلّ ظروف القهر والحرمان التي يعانون منها، يملكون الحق في الدفاع عن أنفسهم ضدّ القمع، يملكون الحق في تحقيق المصير. فهل كان مقاومونا الذين تصدّوا للاحتلال النازي، بمن فيهم الرئيس پِرتيني*، وأيضًا نوتو رِيڤِللي**، وكارلا كاپّوني***، وغيرهم الكثير ممّن نكرمهم كمؤسّسي الحرّية في بلادنا، إرهابيّين أيضًا؟

نعلم جميعًا أنّه منذ 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، قُتل أكثر من سبعة عشر ألف طفل****. ألفٌ منهم لم يكملوا عامهم الأول. ومع ذلك، لا تزال هذه الرواية عن الفلسطينيّين مستمرّة بلا توقف. استقبلت صحافة متواطئة حول العالم وسياسيّون تابعون لمصالح إسرائيل مقتل سبعة عشر ألف طفل بلا أيّ مبالاة. هذا هو واقع الفلسطينيّين في عام 2025. إنّه واقعٌ يستدعي المواجهة والتحدّي.

بيننا الكثير من المناضلين ضدّ هذه الإبادة الجماعيّة وضدّ الصمت الذي يرافقها. في هذا النضال، من الضروري اكتساب المعرفة والرؤية الصحيحة.

في عصر ذلك اليوم، اختتم إيال خطابه، متوجّهًا إلينا بالتأكيد، بأنّه حتى لو تحقق وقف إطلاق النار الذي كثر الحديث عنه آنذاك، فإنّ تدمير الشعب الفلسطيني لن يتوقف ولن ينتهي، ما دام «المنطق نفسه الذي أدّى إلى هذا الدمار

---

* Sandro Pertini ويُعرف باسم «الرئيس پِرتيني»، وهو رئيس إيطاليا، الذي كان ناشطًا في المقاومة ضد الفاشية، وقد سُجن ونُفي بسبب نشاطه السياسي.

** Nuto Revelli هو ضابط ومؤرّخ إيطالي، شارك في المقاومة ضدّ الاحتلال النازي، وعُرف بتوثيقه لتجارب الجنود والمقاومين في الحرب.

*** Carla Capponi تعدّ إحدى أبرز النساء اللواتي المنتسبات إلى المقاومة الإيطالية، وقد شاركت في أعمال مقاومة مسلحة ونضالية في روما، ضدّ الاحتلال النازي وضدّ الفاشية.

**** وهذا حتى كتابة تلك السطور. وقد تجاوز العدد هذا الرقم اليوم.

قائمًا». وفي ما يتعلق ببعض المقترحات المطروحة لمستقبل غزّة، مثل مقترح – وصفه بأنّه «وهمي» – نقل جميع السكّان، ذكّرنا إيال بأهمّية دراسة أيّ مشروع إعادة إعمار بعناية، نظرًا لأنّ «الكثير منها يبدو أشبه باستمرارٍ للدمار، ولكنّه يغلّف في صورة مساعدات إنسانيّة». أفهم هذه الحجّة تمامًا. لسنواتٍ عديدة ندّدت بكيفيّة استخدام المساعدات الإنسانيّة في كثيرٍ من الأحيان لإخفاء وتشويش الخطة الإسرائيليّة للغزو. تلك الخطة الفارغة من الأخلاق إلى درجةٍ سحيقة، والتي لا يملك أيّ عضو غربي في الأمم المتحدة الشجاعة لمعارضتها. على العكس من ذلك، تدعمها دول كثيرة – مثل ألمانيا، والمملكة المتحدة بقيادة ستارمر Starmer من حزب العمّال، وإيطاليا بقيادة حكومة مِلوني Meloni – بنشاطٍ وفعاليّة.

ذات صباحٍ شتوي دافئ في برلين، وفي العام الثاني من الإبادة الجماعيّة للشعب الفلسطيني، وأمام حشدٍ من الطلاب المحبطين، ورجال الشرطة المدجّجين بزيّ مكافحة الشغب، اختتم إيال خطابه بتحذيرٍ أخير: «في هذه الحالة، لن تكون إعادة الإعمار علاجًا للتدمير، بل ستكون استمرارًا له: ستُستخدم لإكمال ما فشلت الإبادة الجماعيّة في تحقيقه».

أشارك إيال استياءه من اقتراح الرئيس ترامب بإعادة بناء غزّة كواحةٍ ساحليّة على المتوسّط، بعد «تطهيرها» من سكّانها. إنّها عبثيّةٌ تامّة، غير قانونيّة وغير أخلاقيّة. عند التدقيق في هذا الطرح عن كثب، يتّضح أنّه يندرج تمامًا ضمن نطاق التطهير العرقي، وفي أحسن الأحوال يُعدّ تحريضًا على التهجير القسري. إنّه بمثابة جريمة حسب القانون الدولي، وقد أصبح هذا رسميًّا لأول مرّة في السياسة الخارجيّة الأميركيّة، مع التصريحات الأخيرة للإدارة الحالية. إنّ عمليّات النقل القسري والمزيد من عمليّات المصادرة، في سياق الإبادة الجماعيّة، من شأنها تعزيز تواطؤ دولٍ أخرى في الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل بالفعل، وعلى مدى عقود، والتي تفاقمت على نحوٍ كبير في الأشهر الأخيرة، ما عمّق الأزمة التي تُهدّد بإفناء الشعب الفلسطيني.

بينما كنتُ أنا وإيال وايزمان نناقش هذه القضايا، اخترقت حديثنا شاحنات الشرطة، وأحاط بالمكان ضبّاطٌ يحرسون الطلاب بثيابهم المعدّة لمكافحة الشغب.

تخلّل الحدث تهديدٌ باعتقالي. وهذا المشهد ينمّ عن حقيقةٍ تكشف لنا خطورة الوضع، وعُطب النظام الذي يسيّر حيواتنا.

تدعونا الحقيقة إلى الاستعداد لبذل مساهماتنا وشهاداتنا، وبقدر ما نستطيع، لأن لا نوّفر جهدًا حتى تتوقف أهوال الماضي والحاضر عن التأثير في حياتنا اليوميّة.

مَلَك*

وطن اللاجئ... أين يكون؟

* ملك مطر، فنانة فلسطينيّة من غزّة، بدأت مسيرتها في الرسم منذ طفولتها، كوسيلة للتعبير عن مشاعرها وتجاوز الصدمة. درست العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة إسطنبول أيدن، وتتابع حاليًا دراساتها العليا في الفنون بكلية سنترال ساينت مارتينز في لندن. اشتهرت أعمالها باستخدام الألوان الأكريلية لتجسيد معاناة وتجارب الفلسطينيّين بروح إبداعية معاصرة.

عندما أسافر، أحمل معي الكثير من الأشياء دائمًا [...]. وبعد تحليل الظاهرة، توصّلتُ إلى استنتاج مفاده أنّ خوفًا سرّيًا يسيطر عليّ. خوفٌ لا يُمحى... من عدم العودة أبدًا.

إدوارد سعيد – «خارج المكان»

ما يُطلق عليه الفلسطينيّون «النكبة»، أي «الكارثة العظيمة»، هو النزوح القسري الذي أُجبر خلاله سبعمئة وخمسون ألف فلسطيني على مغادرة منازلهم. وقد حدث ذلك بين نهاية الانتداب البريطاني والسنوات الأولى التي تلت قيام دولة إسرائيل (1948-1949)، وتبِعَ أعمال العنف والمجازر والتدمير الممنهج الذي حلّ بقراهم.

خلال هذه الفترة، تمّ الاستيلاء على مساحاتٍ شاسعة من أراضي الفلسطينيّين أو هُجّروا منها. وقد فرّوا في البداية بعد انتشار أنباء العنف الذي ارتكبته ميليشيات إرغون وهاغاناه وليحي* الصهيونيّة، التي اندمجت مع الجيش الإسرائيلي بعد عام 1948. وطُردوا تحت تهديد السلاح، وساروا على أقدامهم، أو في شاحنات، وكان كلّ ذلك بتنظيم من الميليشيات الإسرائيليّة. وهكذا، وفي وقتٍ قصير، تم تدمير ما يقرب من خمسمئة قرية وبلدة فلسطينيّة وتهجير سكّانها. يتحدّث المؤرّخون عن عشرات المجازر – بما في ذلك الإعدامات الميدانيّة، الاغتصاب، وجرائم أخرى ضدّ كبار السن والرجال والنساء والأطفال، مثل مجازر الطنطورة ودير ياسين الشهيرة – الأمر الذي سرّع من تهجير سكّان فلسطين التاريخيّة. لم يكن كافيًا أن

* وأحيانًا تُعرف أيضًا باسم عصابة شتيرن نسبةً إلى مؤسّسها أبراهام شتيرن.

تهجّر القرى المدمّرة، بل هُدم العديد منها عمدًا. وكثيرًا ما أُعيد استخدام الأراضي لبناء مجتمعات يهوديّة جديدة، أو لأغراضٍ أخرى داخل دولة إسرائيل الجديدة.

شهد سلمان أبو ستة، مؤسّس ورئيس «جمعيّة أرض فلسطين»، ومقرّها لندن، والمخصّصة لتكريس الوثائق التي تخصّ الأرض والشعب الفلسطينيّين – والعديد من المؤرّخين والباحثين في تاريخ النكبة، على كيفيّة احتلال الأراضي التي هجرها الفلسطينيّون واستخدامها لاحقًا من قِبل دولة إسرائيل الجديدة. أجرى أبو ستة، تحديدًا، أبحاثًا مكثفة ركزت على رسم خرائط التجمّعات الفلسطينيّة قبل عام 1948، وتحليل إمكانيّات عودة اللاجئين، مجادلًا بأنّ حقّ العودة ليس عادلًا وحسب، بل هو أمرٌ قابل للتحقق تمامًا.

بالنسبة إلى مئات الآلاف من الفلسطينيّين الذين احتُجزوا في قطاع غزّة منذ عام 1948 فصاعدًا، ليس اليهود الذين احتلوا أراضيهم سوى مستوطنين. مستوطنون دافعوا، منذ الأيّام الأولى لدولة إسرائيل، عن الأراضي التي انتُزعت من أصحابها الشرعيّين بقوّة السلاح، وباستخدام الكيبوتسات كمواقعٍ دفاعيّة، بينما اعتبرها الكثيرون في الخارج ببساطة نموذجًا رائدًا للنموذج الاشتراكي العظيم للدولة اليهوديّة الناشئة.

يتنقل هذا التاريخ – المؤلم والذي لم يُعالج – بين الفلسطينيّين، جيلًا بعد جيل. ومن المفيد التذكّر أن تهجير الفلسطينيّين بدأ قبل عام 1948 بوقتٍ طويل، خلال فترة الاستعمار البريطاني التي استمرّت ثلاثين عامًا (1920-1948). شجّع البريطانيّون باستمرار موجات الهجرة التي جلبت العديد من اليهود من أوروبا للاستقرار في فلسطين، بقصد الفرار من الاضطهاد وبناء حياة جديدة في أرض أجدادهم. لكن تلك الأرض كانت مأهولة بالفعل. وكانت فكرة طرد سكّانها واضحةً منذ البداية للقيادة الصهيونيّة في ذلك الوقت.

كيف يُعقل ألّا يُدرّس هذا التاريخ، والتظاهر بأنّ الأشخاص المعنيّين سينسونه هكذا بكلّ بساطة؟ تخيّلوا كم سيكون قاسيًا أن يُطالب الأرمن بعدم التحدّث عن العنف الذي واجهوه، وعن السرقة الفادحة لحياتهم وأرضهم وثقافتهم، خلال الإبادة الجماعيّة التي ارتكبها العثمانيّون. ينطبق الأمر نفسه على السكّان الأصليّين في أوستراليا وأميركا والعديد من مسارح الإبادة الجماعيّة الأخرى في التاريخ.

ومع ذلك، عندما عملت في فلسطين مستشارةً قانونيّة لدى الأونروا، في السنوات التي تلت ذلك، تنامى لديّ شعورٌ بأنّ الإدارات الأميركيّة كانت تتوقع من الوكالة أن تحقق ما يشبه «التسوية» مع الفلسطينيّين حقًا.

تلك التسوية تقوم على الفترة الآتية: مهما كانت الانتهاكات التي ارتُكبت ضد أجدادهم وأراضيهم وحياتهم منذ عام 1948، كان ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يُحبّ إسرائيل، وبالتأكيد لا يجوز أن يُعارضها!

كانت إحدى مهامي، عندما وصلت إلى فلسطين عام 2010، تقتضي الإشراف على تدقيق برنامج الوكالة لحقوق الإنسان، وعلى المناهج التعليميّة والمقرّرات المُستخدمة في مدارس الأونروا.

جرى هذا التدقيق بالنيابة عن المانح الأميركي للأونروا، وهو مساهم رئيسي منذ فترةٍ طويلة في تمويل الوكالة. وقد أعددتُ كلّ ما يلزم لكي يتمكن المدققون الثلاثة مِن الولايات المتحدة من إجراء تحقيقهم، الهادف إلى فحص المواد المدرسيّة للأونروا، للتأكّد من خلوّها من أيّ شيء يمكن أن «يُحرّض على الإرهاب ومعاداة الساميّة والعنف». من الواضح عدم عثورهم على أيّ شيء يمكن أن يؤدّي إلى «رسائل ضدّ إسرائيل، بما في ذلك رسائل معادية للساميّة»، ولكن منذ سنوات، تتعرّض هذه البرامج لهجومٍ مستمرّ، حيث تتهمها الحكومة الإسرائيليّة وحلفاؤها باحتوائها على رسائل معاديةٍ للساميّة.

بموجب مذكّرة تفاهم وُقِّعت مع إسرائيل عام 1967، اهتمّت الأونروا دائمًا بنحو خمسة ملايين لاجئ فلسطيني في الأراضي المحتلة، وهذا خفّف العبء عن إسرائيل – بصفتها القوّة المحتلة. على الرغم من ذلك، تغيّرت الأمور مع «عمليّة السلام» التي انطلقت في مؤتمر مدريد عام 1991.

حتى ذلك الحين، كانت قضيّة اللاجئين قد اختفت من النقاشات العامّة. ولكن، في سياق عمليّة السلام، بدأ الفلسطينيّون يتأمّلون في معنى السلام وفي حلّ الدولتين، ومعنى ذلك... كلاجئين. ظهر كمٌّ وافرٌ من التقديرات، بالإضافة إلى عمليّات إعادة البناء التاريخيّة، وتحليلات قانونيّة وحسابات إحصائيّة واقتصاديّة، وأصبح كلّ ذلك شوكةً في خاصرة إسرائيل، التي كانت تتعامل مع قضيّة اللاجئين كما لو أنّها منتهية، ميتة، وقد تمّ دفنها.

«لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، مَن يفكّر في هذا الأمر الآن؟»، هذا ما أخبرني به قاضٍ إسرائيلي معروف عن موضوع اللاجئين الفلسطينيّين، وعلامات اللامبالاة بادية عليه، وذلك خلال ورشة عمل عام 2017.

إسرائيل لا ترى الفلسطينيّين. لا تستمع إليهم. والأخطر من ذلك أنّها لا «تشعر بوجودهم». بالنسبة إلى معظم الإسرائيليّين الذين يتحدّثون علنًا، وكذلك بالنسبة إلى العديد من أعضاء الشتات اليهودي، هناك منظور واحد فقط هو منظور إسرائيل. كيف تعيش إسرائيل التاريخ، وكيف تشعر بالألم، وفي أيّ سياقٍ تعمل.

يركّز العديد من المثقفين الذين يقدّمون أنفسهم كمعتدلين ومعارضين للاحتلال على إدانة عنف حماس وحسب، بينما يلتزمون الصمت حيال الأعداد الصادمة للضحايا الفلسطينيّين والدمار الذي أحدثه الجيش الإسرائيلي بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023. يكرّرون اتهاماتٍ لا دليل على حدوثها إطلاقًا مثل تلك تحدّث فيها الإسرائيليّون عن الاغتصاب الجماعي، لكنّهم يتجنّبون الاعتراف بالوحشيّة التي يعاني منها السكّان الفلسطينيّون.

عندما يتحدّثون عن الفلسطينيّين، تتغيّر اللغة.

***

فلنعد إلى عام 2010. استعدادًا لعملي مشرفةً على التدقيق، أتيحت لي فرصة زيارة كامل المنطقة المعروفة باسم «قطاع غزّة» لأول مرّة، والعودة إليها عدّة مرّات في الأشهر التالية. خلال إحدى تلك الزيارات، أُقيم معرض للوحات الأطفال في ردهة إحدى المدارس. أتذكّر أنّ بعضها ترك فيّ أثرًا بالغًا. لم تكن على ورق، كغيرها من معظم اللوحات. كانت على قماش. وقد أنجِزت ببراعةٍ وفاضت جمالًا غير متوقع.

– من رسم هذه اللوحات؟ سألت المعلمين.

– فتاة في الصفّ السادس. إنّها بارعة جدًا، أليس كذلك؟

– أودُّ الحصول على إحدى لوحاتها: هذه... قلتُ، مشيرةً إلى صورةٍ ما زالت أمام عينيّ. في اللوحة، فتاتان صغيرتان، بوجهين مستديرين وعيونٍ زرقاء كالسماء خلفهما. وثمّة حمامةٌ كبيرة ببطنٍ منتفخ. «أودُّ أيضًا أن أقابلها، هل هذا ممكن؟»...

في ذلك المساء، قبل خمسة عشر عامًا، التقيتُ بمَلَك مطر، التي كانت آنذاك في الحادية عشرة من عمرها. كان وجهها ممتلئًا تُحيط به ضفيرتان من شعرٍ أسود كثيف. أتذكّرها... جميلة وخجولة. لم تكن تتكلّم الإنكليزيّة بعد، ولكن، من خلال معلميها، أخبرتني بلطفٍ أنّها لا تستطيع بيعي اللوحة التي أعجبتني كثيرًا. أولًا، لأنّ ملكيتها تعود للمدرسة. ثانيًا، لأنّه لم يكن بمقدورها أن تحدّد لها سعرًا. كان عليها أن تسأل إن كان بإمكانها قبول المال، لكن عمّها، وهو رسّامٌ معروفٌ من غزّة، الذي علّمها الرسم، لم يكن موجودًا.

بعد سنوات، وبينما كنت أبحث على الإنترنت عن صورةٍ لأستخدمها في ملصقٍ لمؤتمر، صادفتُ لوحةً تُظهر حمائم بيضاء تحلّق حول شخصيّات بشريّة عيونها واسعة ووجوهها ناعمة. خطرت لي فكرة. «هل هذا العمل لفلسطيني؟»، سألت. جاء الردّ من أحدهم: «نعم، إنّها فلسطينيّة».

– في الواقع، لا بدّ من أنّها من غزّة. صحيح؟ سألت.

– نعم، الرسّامة من غزّة. اسمها مَلَك مطر.

لم يساورني الشك. لا بد من أنّها هي نفسها... تلك الفتاة الصغيرة التي التقيتُ بها لفترةٍ وجيزة قبل سنوات عديدة في إحدى مدارس الأونروا.

كان لا بدّ من وجود أحد أعمالها في الملصق الإعلاني للنشاط الذي كنّا بصدد إقامته، وهكذا كان. كان مؤتمرًا نُظِّم للاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة إدوارد سعيد، المفكّر والكاتب الفلسطيني الكبير، الذي كان أكاديميًّا في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأميركيّة. عُقِد المؤتمر في لندن في 3 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، قبل أيّام قليلة من الحدث الذي سيُغيّر حياة الفلسطينيّين والإسرائيليّين إلى الأبد، وبالتأكيد جميع سكّان قطاع غزّة، بمن فيهم مَلَك وعائلتها.

منذ ذلك الحين، بقينا على اتصال.

مع ذلك، مرّت سنواتٌ عديدة بين لقائنا الأول واللقاء التالي، الذي لم يُعقد في غزّة، بل في لندن، في نهاية عام 2024، وذلك على هامش المؤتمر الرائع الذي حضرته في كليّة لندن للصحّة والمناطق الحارّة، حيث تحدّثتُ إلى جانب غسّان أبو ستة. في ذلك المساء، ومن بين الحشد، تعرّفتُ إلى مَلَك فورًا. وأخيرًا، بعد المؤتمر تمكّنا من العناق.

أخبرتني أنّها غادرت غزّة في اليوم السابق لـ7 تشرين الأول/ أكتوبر تحديدًا، ثمّ انتقلت إلى لندن، حيث تمّ قبولها في برنامج ماجستير الفنون الجميلة في مدرسة سانت مارتينز، إحدى أهمّ مدارس الفنون البصريّة في العالم. أمّا عائلتها، والداها وشقيقاها، فقد بقوا في غزّة. وكانوا يحاولون جاهدين البحث عن ملجأ في مصر. استغرق الأمر شهورًا حتى تمكّنوا أخيرًا من مغادرة غزّة، بعدما نجوا بأعجوبة من القصف وفي ظروفٍ بالغة الصعوبة.

«في البداية، قرّر جزءٌ من عائلتي البقاء في الشمال. فكّروا: هذه الأرض لنا وسنحافظ عليها. يجب أن نحميها من أطماع الاستيطان، لذا سنبقى هنا. فليقتلونا إن أرادوا، لكنّنا لن نغادر. وأيضًا، لأنّ قرار الرحيل أو البقاء بالنسبة إلى الكثيرين، بمن فيهم أنا، كان يحمل معه دائمًا صدمةً قويّة من الماضي. بعد نكبة عام 1948، لم يعد بإمكان الذين غادروا أراضيهم العودة إليها أبدًا»، قالت لي مَلَك.

في صباح أحد الأيّام، وقع ما دفعهم إلى مغادرة حيّ الرِمال، حيث كانوا يعيشون: قُصفت المدرسة الثانويّة التي كانت والدتها تُدرّس فيها، وذلك بعد دقائق قليلة من مغادرتها، بينما كانت لا تزال في السيّارة في طريق عودتها إلى المنزل. انتقلوا. وجدوا الملجأ شمال قطاع غزّة. أولًا في حيّ يُدعى الكرامة، وبعد ذلك بالقرب من مستشفى الشفاء. وطوال هذا الوقت، كان لا بدّ من فصل أعضاء العائلة بعضهم عن بعض. الرجال من جهة، والنساء والأطفال من جهة أخرى. كان وضعًا جنونيًا. وبعد بضعة أيّام، شدّوا الرحال جنوبًا. كانت صافرات الإنذار تتزايد... بحرٌ من الناس يغادرون منازلهم. وكان هناك ضغطٌ متزايد على سكّان الشمال للانتقال إلى الجنوب.

«رحلت عائلتي إلى دير البلح، وسكنتُ في منزل عمّتي لمدّة خمسة أشهر. بالنسبة إليّ، كان كابوسًا. كنتُ قد وصلتُ لتوّي إلى لندن، وفي خضمّ التنقلات التي كانوا يضطرّون إلى القيام بها، لم يكن التواصل معهم ممكنًا. لم تكن لديّ أيّ أخبار عنهم. ولم أكن أعرف حالهم. ولم أكن أعرف حتى إن كانوا على قيد الحياة، أم ماتوا. حاولتُ الاتّصال بهم، لكن لم تكن هناك إشارة. ما كنتُ أسمعه لم يكن سوى صوتٍ بعيد، لرنينٍ خفيف. وصلت متحمّسةً للدورة الجديدة في سانت

مارتينز، التي ستتيح لي التطوّر كفنانة، ولكنّي سرعان ما غرقتُ في حزنٍ عميقٍ لعدم معرفة ما إن كان أقرب الناس إليّ بأمان».

في ذلك المساء، بعد فعاليّة لندن، لم أتمكّن أنا ومَلَك إلّا من تبادل بضع كلمات. واختتمت الحكاية بعد أشهر عديدة... في هذا الوقت تقريبًا من آذار/ مارس 2025، عندما كنتُ أضع اللمسات الأخيرة على الكتاب، وجدتُ نفسي عائدةً إلى لندن. تمكّنتُ من ترتيب عشاءٍ أكثر قربًا وألفةً. وأخيرًا تمكّنت مَلَك من إخباري الجزء الثاني من القصّة المعقدة والمؤلمة... «وعلى أيّ حال، أقلّ بكثيرٍ من كثيرين غيري» أوضحت فور جلوسنا إلى الطاولة، حتى قبل أن تختار ما ستختاره من قائمة الطعام. «في عائلة صديقي أحمد، على سبيل المثال، مات الجميع في الأشهر القليلة الماضية. لم يبقَ له أحد».

لكنّ عائلة مَلَك تمكّنت من النجاة. «بعدما حاولنا بكلّ الطرق الممكنة، أدركنا أنّه لا سبيل لنا سوى جمع ما يكفي من المال لرشوة المصريّين، وقد تطلّب الأمر مبلغًا كبيرًا. خمسة آلاف دولار لكلّ شخص، أي عشرون ألفًا للجميع، لأنّ عائلتي تتكوّن من أربعة أفراد: والديّ وشقيقي وشقيقتي. لحسن الحظ، تمكّنوا من استعادة مدّخراتهم ومغادرة فلسطين واللجوء إلى مصر. أخيرًا، في يوم الإجلاء، ذهبت إلى مصر وتمكّنت من رؤيتهم مرّةً أخرى. كانوا مصدومين، مروّعين. وقد أصيبوا بجروحٍ واضحة عندما قُصف المبنى المقابل لهم. تشظّى زجاج النوافذ وأصاب شقيقتي. لكنّها أخبرتني بنفسها أن أكثر اللحظات رعبًا كانت الرحلة من دير البلح إلى الحدود. امتلأ الطريق بجثث القتلى التي تُرِكَت. كانوا يُصلّون طوال الوقت. وعندما وصلوا أخيرًا إلى مصر، غمرهم طيفٌ من الشعور بالذنب. ذلك الشعور الذي يعقب النجاة. صُدمت والدتي؛ وبقيت تقول: كيف لي أن أترك كلّ هؤلاء الناس خلف ظهري، وخاصّةً مَن استضافوني. وأصدقائي، وأقاربي، وأغراضي وأشيائي...».

لم تستطع تجاوز الأمر حتى الآن.

ثمّ بدأت معركةٌ أخرى – وهي معركةٌ قانونيّة – لأنّ الحكومة البريطانيّة رفضت منح مَلَك تأشيرات للَمّ شَملها بعائلتها، واضطرّوا إلى رفع دعوى قضائيّة لإلغاء القرار.

«حضرنا جلسات استماع لا تُحصى، وظلّ المحامون يقولون: مَلَك، أنتِ تخوضين معركةً خاسرة غالبًا. لكنّني قلت لنفسي: حسنًا، على الأقلّ نحن نخوضها».

استند طعنها في القرار، وطلب استئنافه بالمعنى القانوني للكلمة، إلى مدى إظهار أهميّة وجود عائلتها إلى جانبها، كما تتذكّر مَلَك. وقد دعمت الطلب بشهادات خبراء مختلفين: اختصاصيّون نفسيّين، علماء اجتماع، وغيرهم من أصحاب الاختصاص. تمثّلت العقبة الرئيسيّة بفكرةٍ مفادها أنّ أحبّاءها قد يشكّلون «تهديدًا للأمن»، وفي كلّ جلسة استماع، كان هناك من محامي الطرف الآخر من يشير إليهم كما لو كانوا أشخاصًا خطرين.

استدعى الأمر أن يثبتوا جميعهم علاقتهم بالفنّ وبالمسرح... وكأنّ الذين ليسوا جزءًا من نخبةٍ ثقافيّة لا يستحقون تلك الفرصة. بعد أشهرٍ طويلة، انتصروا. في الأسابيع الأولى من عام 2025، صدرت تأشيرات دخول رسميًا على أساس لمّ شمل الأسرة، وقريبًا جدًا، ستتمكّن العائلة من الانضمام إلى مَلَك في لندن. في تلك المرحلة من قصّتها، تنهّدت ثمّ التقطت شوكتها وبدأت بتناول الطعام.

«نشأ والداي في غزّة لاجئين، بعدما هُجّرت عائلة أمّي وأبي قسرًا من قريتيهما عام 1948. أبي من الجورة ، وأمّي من البطاني الشرقي ، التي لم يبقَ منها شيء يُذكر منذ زمن. ورغم أنّني لم أزر تلك الأمكنة في حياتي، أشعر بأنّني أعرفها جيّدًا. كان أجدادي يتحدّثون عنها كثيرًا. منذ صغري، نشأ لديّ شعور قويّ بالانتماء إلى الأماكن التي تعود جذوري إليها. وبطبيعة الحال، علاقتي بغزّة معقدة للغاية».

لقد مُحيت القرى التي أخبرتني عنها ملك من خريطة التاريخ مع قيام دولة إسرائيل. ولكن في الواقع، لا تزال الأرض، وبقايا المنازل، ومقابر أجداد العائلات الفلسطينيّة النازحة عام 1948، موجودة في إسرائيل.

إذن، ألا تشعرين كأنّكِ في وطنكِ؟ سألتها. «حسنًا...»، أجابت بابتسامةٍ لا تخلو من الدلالة وتابعت: «في الواقع، نعم. أنا لاجئة. وليست غزّة المكان الذي يوجد في تاريخ عائلتي ودارت أحداثه. ولكنّها المكان الذي نشأتُ فيه. هناك بدأتُ أتعلم لغة الفنّ، بفضل عمّي، محمد مُسلّم، وهو فنّان مكرّس عالميًا، عمل أيضًا مدرّسًا للفنون في غزّة. لذا، للإجابة عن سؤالك، يمكنني أن أقول لكِ إنّ غزّة ليست وطني. لكنّني سأختارها اليوم موطنًا. ربّما أكثر من ذلك الآن، بعدما دُمّر

الحيّ الذي نشأتُ فيه تمامًا، ولم يبقَ منه إلّا ذكرياتنا. ذكرياتي العزيزة في غزّة. ورغم كلّ شيء، فهي بالنسبة إليّ مكانٌ يُمكنني أن أحلم فيه. عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، دُعيتُ إلى معرضٍ فنيٍّ في بريستول، في بريطانيا. بالطبع، كنتُ في غاية السعادة. ذهبتُ إلى والدي وسألته: أبي! هل يُمكنني الذهاب؟ هل سيُعطونني الإذن؟ هؤلاء الناس يقولون إنّهم سيدفعون ثمن كلّ شيء؛ يريدون أن أذهب إلى هناك وأن أتحدّث قليلًا عن لوحاتي وحسب». لكنّه أجاب: «هل تعتقدين أنّ إسرائيل ستسمح لك بالسفر إلى الخارج للمشاركة في معرض فنّي، وهي لا تسمح حتى لمرضى السرطان بالمغادرة فيعلقون هنا ويموتون من دون دواء؟». آلمني كلامه كثيرًا، لكن ذلك لم يمنعني من مواصلة الرسم والحلم، وامتلاك طموحات في الحياة. شعرت بالأمر نفسه تجاه جميع أصدقائي. كان لدى كلٍّ منا دافعٌ لتحقيق شيءٍ ما».

هذه سمةٌ لطالما أدهشتني في الفلسطينيّين. حتى في ظلّ الدكتاتوريّة العسكريّة والحصار الحقيقي – الذي خضعت له غزّة بالكامل منذ عام 2007 – وفي ظلّ الحصار (ليس العسكري وحسب)، وفي ظلّ الاحتلال، وفي ظلّ ظروف معيشيّة صعبة للغاية، تمكّنوا من الحفاظ على ذلك الدافع. ذلك الحبّ للحياة الذي يتلألأ في كلّ كلمةٍ ونفسٍ رأيته عندما كانت مَلَك تتحدّث إليّ، والذي رأته، كما تقول هي نفسها، في كثيرٍ من الناس. لم يستسلموا أو يندفعوا باتجاه الانهيار، وهذا يُحدث فرقًا كبيرًا. ذلك أنّك عندما تُكرّس نفسك بكلّ قوّتك لعيش حياةً عادلة وكريمة، لا أحد يستطيع التدخّل أو اتخاذ القرار نيابةً عنك.

***

بعد تخرّجها من المدرسة الثانويّة بتفوّقٍ باهر وحصولها على منحةٍ دراسيّة في تركيا بالنظر إلى أعمالها الفنيّة المتقنة، استغرق الأمر مَلَك عامًا كاملًا للحصول على التصاريح اللازمة للمغادرة. ومن هناك، كان بإمكانها مواصلة دراستها في فرنسا أو في بريطانيا، لكن كلا البلدين رفضا منحها تأشيرة دخول.

أخبرتني أنّها في عامها الأول خارج فلسطين، مُنعت من دخول معظم الدول. تحطّمت فكرة الحريّة التي راودتها طويلًا أمام الواقع. ظنّت أنّها بمجرّد مغادرتها

غزّة، ستكون أخيرًا حرّة، بأجنحةٍ تُحلّق بها أينما تشاء. لكن لم يكن الأمر كذلك. خلال فترة وجودها في تركيا، تعلّمت أنّه لا يكفي مغادرة غزّة جسديًا، إن استمرّ العالم أجمع في اعتبار الفلسطينيّين تهديدًا.

برأس مرفوعٍ وعينين تلمعان، نظرت إليّ وقالت «لقد استغرق الأمر عدّة محاولات، لكنّني الآن أعيش هنا وأسافر كثيرًا لدرجة أنّ صفحةً واحدة فارغة فقط بقيت في جواز سفري. هذه أيضًا مقاومة». واختتمت ضاحكة. «هذا غباء، أليس كذلك؟». «لا أعتقد ذلك»، قلت لها. كنت أبتسم بدوري، لكنّني أردت البكاء وأنا أفكّر في مغامرات مَلَك، وفي الأختام على جوازات سفر طفلي.

تابعت مَلَك: «بالنسبة إليّ، من المهمّ أن أتمكّن من القول للمستوطنين: أتعلمون ماذا؟ سأخرج إلى العالم لأُقدّم فنًّا. هذه هي الروح التي نشأتُ عليها كامرأةٍ وفنّانة في غزّة. تخيّلوا، في أول معرض فنيّ فرديّ لي، عرضتُ لوحةً كبيرةً عن الفساد، وعن ديناميكيّات السلطة، فجاء أستاذٌ مسنّ وقال: لوحتكِ مثيرةٌ للاهتمام، لكنّكِ شابّة، أليس من الأفضل أن ترسمي زهورًا ومزهريّاتٍ وأشياء جميلة، وتتركي السياسة للرجال؟ ربّما كانت هذه التعليقات تحديدًا هي التي شجّعتني، بدلًا من أن تُثبّط عزيمتي. لقد حفّزتني على تحدّي توقعات الآخرين وبذل كلّ ما في وسعي لجعل أصواتنا مسموعةً وواضحة. كانت هذه التجارب محطات أساسيّة في المسار الفنّي الذي سلكته».

أخبرتني مَلَك أن التحدّيات الصعبة حقًا كانت شيئًا آخر. لقد قُصف متجر الفنون الذي كانت تذهب إليه لشراء موادّ الرسم ولم يعد موجودًا. وقد دُمّر المعرض الذي كانت تحلم بعرض أعمالها فيه. قُتل العديد من الأصدقاء الذين كانوا يتردّدون على منزلها للحديث والرسم معًا. هذه هي حقيقة من يصنعون الفنّ في غزّة: العيش والإبداع في ظلّ الاحتلال.

بعينين متّقدتين، أخبرتني أنّها عندما كانت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، تلقّت تكليفًا بإنجاز عملٍ فنّي من الولايات المتحدة، من ولاية تينيسي تحديدًا. لوحة لشجرة عيد الميلاد. ولكن عندما حان وقت إرسالها، سألوها في مكتب البريد: هل هو عملٌ سياسي؟ لطالما واجه أيّ فنّانٍ يعيش في غزّة الرقابة، التي طالت ما يتعلق بما يمكنه أو لا يمكنه رسمه، وما الرموز التي يمكنه أو لا

يمكنه تضمينها في عمله. وإن اعتُبر العمل سياسيًّا، كان الجيش يصادره. إذن، إن كانت أدرجت كوفيّةً في لوحة، فهل كان سيُنظر إليها على أنّها رمز سياسي؟ هل كانوا سيصادرونها؟

هنا سألتها على أيّ درجةٍ من الصعوبة كان الأمر بأن تصبح فنّانةً في ظلّ الاحتلال.

«صعب جدًا»، أجابت بجدّية. «لقد كان الأمر صعبًا للغاية. أتعلمون لماذا يكرهوننا ويريدون تدمير كلّ جانب من جوانب الفنّ؟ لأنّ الفنّ أمل. ولهذا السبب قتلوا رفعت العرعير، الذي بقصائده منح الأمل للكثيرين. إنّ الواقع الأشدّ صلابةً الذي يواجهه الاحتلال هو أنّنا نتحدّث بلغة الفنّ، وهي أقوى لغة في وجه كلّ أشكال تجريد الإنسان من إنسانيّته. إنّ التواصل مع الآخرين بقصيدةٍ أو لوحة فنيّة هو أفضل وسيلةٍ لمحو جميع الصور النمطيّة. لهذا السبب أعتقد حقًّا أنّ الفن خطير»، اختتمت حديثها بابتسامة.

بعد تناول الطعام، ذهبنا في نزهة. تمشّينا في واحدة من تلك الحدائق الصغيرة العديدة المنتشرة في وسط لندن.

نظرتُ إلى وجه مَلَك المشِعّ كقمر. كان رقيقًا جدًا لكنّه يظهر شيئًا من التحدّي، من جرّاء آثار العنف. أخبرتني أنّ الكثير من الأمور صعبةٌ هناك في لندن. على سبيل المثال، تبحث الآن عن منزلٍ يتّسع لجميع أفراد العائلة عندما يتمكّن والداها من الانضمام إليها، لكنّ الإيجارات باهظة. ومع منحتها الدراسيّة، يصبح الأمر معقدًا للغاية. وضعهم رائع لأنّهم جميعًا على قيد الحياة، خاصّةً بالمقارنة مع المعاناة المستمرّة التي شعرت بها مَلَك قبل أن يتمكّن والداها من الوصول إلى مصر، عندما علمت أنّهما لا يجدان الطعام، وأنّهما تحت وابلٍ من القصف، وأنّهما يُخاطران بالموت في كلّ لحظة. ومع ذلك، أخبرتني أنّه في كلّ مرّة يتمكّنان فيها من التحدّث عبر الهاتف، كان لدى والدها سؤالٌ وحيد... «إذن، ماذا ترسمين هذه الأيّام؟».

في البداية، لم تفهم مَلَك... «ولكن ما أهمّية ذلك يا أبي؟».

أوضح لها لاحقًا: «أنتِ هنا لسبب يا مَلَك. عليكِ أن ترسمي حياتنا، كفاحنا، كلّ ما نمرّ به. أنتِ فنّانة، أنتِ صوتنا».

قالت لي إنّها لن تنسى تلك الكلمات أبدًا. وكان سماع أحد الناجين من الإبادة الجماعيّة يطلب منها أن تُعبّر، من خلال الرسم، عمّا يمرّ به شعبه، مسؤوليّةً جسيمة. لكنّه كان شرفًا لها أيضًا. ومن هنا تبلورت فكرة عملٍ فنيٍّ ضخم: لوحةٌ بطول خمسة أمتار وعرض مترين تقريبًا، حاولت فيها أن تُعبّر عن كلّ ما عجزت عن قوله بالكلمات. أُطلقت عليها اسم «غِرنيكا غزّة»، على الرغم من أنّ عنوانها الحقيقي هو «انتهت الكلمات». إنّه عملٌ وُلِدَ من قلب الإبادة الجماعيّة المستمرّة، وهو بالأبيض والأسود تمامًا. وذلك لأنّه، كما أوضحت في مقابلة، «الأسود وحده يعكس الواقع، واقعٌ مروّع يُسكتنا». لا ألوان تراها مَلَك عندما تنظر إلى وطنها.

على الجدران، رسوم وغرافيتي. كتاباتٌ باللغتين العربيّة والإنكليزيّة: «غزّة ستعيش إلى الأبد» و«غزّة ستطاردكم». في اللوحة، تُرى حيواناتٌ تتغذى على الجثث التي تُرِكت لتتعفّن. في الوسط، رجلٌ مذهولٌ يمتطي حمارًا. وفمه مفتوحٌ من الألم والصدمة والشعور بالخيبة. حوله، جثثٌ وأنقاض. نساءٌ، رجالٌ، أطفال. التركيبة كثيفةٌ بتفاصيلَ صارمة، عنفٌ يُغرِق المكان. المنازل، المدارس، المساجد، المراكز الثقافيّة. كلّ شيءٍ مُدمّر. لم يعد أحدٌ يجد الكلمات، كما يشير عمل مَلَك.

رسمت مَلَك الصمت. رسمت اختفاء الصحافيّين والفنانين والشعراء والمثقفين. إنّه عملٌ يجعل الدماء تتجمّد في العروق. مَلَك تدرك ذلك.

لكنّ ما تقدّمه من فنّ يبقى تعبيرًا نقيًّا لا يخضع للفلاتر. سواءٌ عندما ترى العالم بالأبيض والأسود، أو عندما تستخدم الألوان بطريقتها الفريدة: كما في اللوحة التي تُصوّر غلاف هذا الكتاب الذي تحمله بين يديك. إنّه جزءٌ من سلسلة أعمالٍ ألهمت العنوان أيضًا... «عندما ينام العالم».

بينما كنّا نتعانق في لحظة الوداع، أخبرتني مَلَك بحزنٍ لكن بابتسامةٍ مؤثرة: «يبدو أنّ الناس مهتمّون برؤية ألم غزّة مرسومًا. لكن لا يوجد ما يكفي من الطلاء لرواية كلّ شيء».

غابور

أن يحافظ شعبٌ على ذاكرته...
لماذا الأمر مهمّ إلى تلك الدرجة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

نايتيري: «أهل السماء لا يمكنهم التعلّم، وأنتم لا ترون». جايك: «علّميني كيف تكون الرؤية إذن».

أڤاتار

«قبل شهر من تحرير بودابست، وبينما كنّا نسير في الشارع، وبعدما فقدت الثقة بقدرتها على ضمان بقائي على قيد الحياة، عهدت بي أمّي إلى امرأةٍ غريبة تمامًا. كان اليهود يُرحّلون مجدّدًا ويقتلهم النازيّون المجريّون. لم يكن لديها أدنى فكرة متى سيأتي الدور علينا. لذلك، في ذلك اليوم، وضعتني في أحضان امرأةٍ غريبة التقت بها في الشارع».

هذه ذكرى أساسيّة في قصّة غابور ماتيه Gabor Maté، الطبيب والمعالج النفسي الكندي صاحب الأصول المجريّة. اليوم، يعمل غابور على معالجة الصدمات النفسيّة والشفاء منها، مستعينًا بآلامه الخاصة ليقدّم للآخرين شيئًا هامًا. إنّه يبثّ الأمل في الناس عبر كلماتٍ حكيمة وعقلانيّة، ودائمًا بأسلوبٍ مبسّط. خلال فعاليّةٍ ناقشنا خلالها الوضع في فلسطين، سمعته يجادل بصراحة، ولكن بصوتٍ هادئ كالملاطفة: «يجب أن تكون جاهلًا حقًا حتى لا تعرف، حتى لا تفهم، حتى لا ترى الاستعمار في فلسطين، أو حتى تنكر أنّ الفلسطينيّين مضطهَدون والإسرائيليّين يضطهدونهم». يتابع غابور: «ثمّة خطبٌ ما في أولئك الذين لا يرون كيف تُستغلّ اليهوديّة (ديانته) باسم قوميّة عرقيّة، فرضيّتها الأساسيّة ليست سوى أيديولوجيا قائمة على التمييز».

بالنسبة إليّ، يجعله هذا أكثر من شخصٍ يقدّم العلاج للفرد، فهو يقدّمها للجماعة. أعتقد أنّ هذا هو سبب استماع الكثيرين إليه.

الصدمة، وفقًا لغابور ماتيه، ليست ما يصيب الفرد من الخارج بل ما يحدث في داخله استجابةً لحدثٍ مؤلم. يُحدث هذا جرحًا حميمًا سيظهر عاجلًا أو آجلًا ولا محالة إلى الخارج، بما يُهدّد بتقييدٍ دائم لقدرات الشخص العاطفيّة والنفسيّة والعلائقيّة. مع ذلك، عندما يستطيع المرء تنمية الوعي والتعاطف، فمن الممكن الشروع بعمليّة شفاء.

إنّ الانفصال عن الذات وعن الآخرين، الذي يصفه ماتيه بأنّه نتيجة حتميّة لأيّ صدمة، لا يؤثّر على الفرد وحسب. وقد يشعر الشخص بالعزلة، وبانعدام الثقة وبالانفصال، وفي النهاية تتجسّد المعاناة في جسده. لكنّ الشعور نفسه يمكن أن ينشأ من الصدمات التاريخيّة. وقد يُولّد تجارب مشتركة تؤثر على العائلات أو المجتمعات أو على شعوبٍ بأكملها، ما يؤثّر على الروابط والهويّات الجماعيّة.

في الواقع، كما يشدّد، يمكن أيضًا تفسير انتقال الصدمة – وخاصّةً عندما تحدث بسبب نقص التنظيم العاطفي – من منظور جيلي أو جماعي. عندما يمتلك البالغون في مجتمعٍ ما تجارب مؤلمة تركت ندوبًا عميقة، فإنّ ذلك يمنح صدمتهم القدرة على الانتقال ثقافيًا إلى الأجيال الجديدة. يمكن لندوب الأسلاف الخفيّة أن تؤثّر على نظرة الشباب إلى أنفسهم وإلى العالم، مُكرِّسةً دوّامةً من المعاناة والانفصال التي تستدعي جهدًا واعيًا للتخلص منها وكسرها، بل يمكنني أن أضيف... جهدًا عاطفيًا.

وفقًا لغابور ماتيه، الصدمة هي «تحوّلٌ في النظرة إلى العالم».

عندما تطوّر مجموعات بأسرها رؤيةً للحياة على وقع صدماتها وخوفها، فإنّ هذا يُغذّي شعورًا مستمرًا بالتهديد وانعدام الثقة، ويؤثر على نظرتها الجماعيّة إلى العالم الخارجي. ليس من الصعب تخيّل مدى أهمّية هذه الديناميكيّات بالنسبة إلى الشعوب التي عانت من القمع والحرب والاضطهاد والنفي والإبادة. وهنا تكمن نقطة التلاقي الأبديّة بين اليهود والفلسطينيّين.

فكرة أنّ الصدمة تُشكّل جوهر التجربة الجماعيّة لكلّ من اليهود والفلسطينيّين كانت موضوعًا خاض فيه باحثون أعزّاء على قلبي، مثل عاموس غولدبرغ وبشير بشير. في الكتاب الذي أشرفا على تحريره، «المحرقة والنكبة: سرديّات بين التاريخ والصدمة»، يُسلّط غولدبرغ وبشير الضوء على كيف أنّ هذه الأحداث –

بما اتسمت به من ألم جماعي وخسارة وحيرة، وبمعزلٍ عن اختلافاتها الجذريّة – قد وصمت هويّات الشعبين وذكرياتهما. هكذا، ومع انتقالها من جيلٍ إلى جيل، أصبحت عناصر محوريّة في تاريخهما، إذ لم تُشكّل تجارب الماضي وحسب، بل شكّلت أيضًا علاقاتهما بالحاضر ونضالاتهما من أجل الكرامة والعدالة. إنّ حفظ الذاكرة أمرٌ أساسي، تحديدًا لأنّ الصدمة – كما يؤكّد غابور ماتيه ويشرحها غالبًا في أحد أكثر كتبه تأثيرًا **«أسطورة الحالة الطبيعيّة»** – لا تقتصر على ما حدث على المستوى الشخصي والجماعي وحسب، بل تتعلق تحديدًا، وقبل كلّ شيء، بما يحدث ويستمرّ في الحدوث «داخل» الأشخاص استجابةً لتلك التجربة. يتّخذ الأمر طابعًا تطبيقيًا على نحوٍ خاصّ عندما يتعلق بشيء مؤلم للغاية. على سبيل المثال، إبادة اليهود خلال المحرقة، وإبادة الشعب الفلسطيني التي بدأت في غزّة وتُرتكب أمام أعين العالم.

وفقًا لغابور ماتيه، فإنّ الشفاء الحقيقي يتطلّب شجاعة مواجهة الألم الذي يحمله صاحبه في داخله. ذلك أنّ المعتقدات النمطيّة والعميقة التي يطوّرها أصحاب المعاناة الناتجة عن الصدمة، مثل المقولة الكلاسيكيّة «ثمّة خطبٌ ما بداخلي»، ليست مجرّد أفكارٍ سلبيّة، بل إنّها تسري في أعصابنا، مشكّلةً أنساقًا فعليّة من العمليّات العقليّة المتداخلة والمتّصلة بعضها ببعض. عندما نحاول تجنّب ذكرى الألم – بإنكارها، أو إخفائها لاشعوريًا تحت وطأة الشعور بالذنب، أو إضعاف الذات، أو كراهية الذات – فإنّنا في الواقع نعوق عمليّة الشفاء. في المقابل، فإنّ تنمية الذاكرة العاطفيّة هي فعلٌ نستعيد عبره الحقيقة لذاتنا أو لشعبٍ بأكمله مجروح وقد تعرّض للإهانة. للشروع في عمليّة التعافي من الجروح، يجب الاعتراف بوجودها قبل كلّ شيء.

كما ذكّرتني زميلةٌ إسرائيليّة ذات مرّة، منذ فترة، أتيحت لليهود، وليس فقط أولئك الذين يعيشون في إسرائيل، فرصٌ عديدة لمواجهة صدمتهم الجماعيّة والشفاء منها، نتيجة قرونٍ من الاضطهاد، بلغت ذروتها في واحدة من أفظع عمليّات الإبادة الجماعيّة في التاريخ. تجسّدت هذه الفرصة في لحظات من التعاطف والحزن الجماعيّين، عُبِّر عنها من خلال أيّام الذكرى والمتاحف والنصب التذكاريّة حول العالم. في المدارس – أو على الأقلّ في مدارس أوروبا، حيث

ارتُكبت المحرقة – يُدرّس تاريخ إبادة اليهود بجدّيةٍ واحترام، وهو ما يتيح للأجيال الجديدة فرصة التأمّل في ذلك الماضي المؤلم ومواجهته.

ومن المثير للاهتمام، بالطبع، قلّة الحديث عن إبادة الغجر والسنتي – أي البورايموس*، التي تعني في لغة شعوب الروما «الإبادة الكبرى»، أو ساموداريبين، أي «قتل الجميع» – التي وقعت خلال الحرب العالميّة الثانية، على أيدي النظام النازي بصورةٍ رئيسيّة. طالت الإبادة مئات الآلاف من أبناء هذه المجتمعات، الذين لا يزالون يعانون من التمييز في أجزاءٍ كثيرة من أوروبا حتى اليوم.

حتى الفلسطينيّون ما زالوا محرومين من هذه الفرصة. لم يتمكّنوا اطلاقًا من طيّ صفحة الماضي، ومعالجة الحزن الجماعي الناتج عن فقدان الأرض والمنازل والحياة المجتمعيّة التي عاشوها حتى عام 1948. لم يقتصر الأمر على عدم الاعتراف بحقوقهم ومطالبهم المشروعة بالعدالة لكلّ ما عانوه في الماضي؛ بل غالبًا ما تُفسَّر معاناتهم على نحوٍ خاطئ، وتغفلها إسرائيل والنظام السياسي الغربي بأكمله، ذلك الذي يتّخذ القرارات في نهاية المطاف، وهذا برغم الظلم الذي يعانونه في أيّامنا.

الإبادة الجماعيّة الجارية حاليًا في غزّة دليلٌ على ذلك.

في النقاش الغربي السائد، يبدو الأمر كما لو أنّه لا يمكن للمرء مناقشة العنف الذي يتعرّض له الفلسطينيّون يوميًا، من دون النظر أولًا إلى إسرائيل، وحقها في الدفاع حتى عندما يُطالب بحقٍ مثل هذا على أرضٍ قليلة بقيت للفلسطينيّين لكي يقيموا عليها دولتهم... وبالتالي فإنّ المطالبة بحقّ دفاعٍ كهذا ليست أمرًا شرعيًا. بالطبع، كأيّ دولةٍ عضو في الأمم المتحدة، لإسرائيل الحق في استخدام حق الدفاع عن النفس المنصوص عليه في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة، عند استيفاء الشروط: أي عند تعرّضها لهجومٍ من دولةٍ أخرى أو عند وجود تفويض من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. من دون هذه الشروط، يكون استخدام القوّة بمثابة شنّ حرب، وتاليًا ليس مشروعًا. واستخدام القوّة، في حالة غزّة وفي بقيّة فلسطين

* حسب المصادر هو مصطلح روماني يعني «الابتلاع» أو «الالتهام»، وهو الاسم الذي يطلقه شعب الروما على جريمة الإبادة الجماعية التي تعرّضوا لها على أيدي النظام النازي في ألمانيا وحلفائه خلال الحرب العالمية الثانية. وهي سردية مهمّشة غالبًا في التأريخ الحديث، بالمقارنة مع جرائم النازية الأخرى.

المحتلة، ليس مشروعًا. وتاليًا، وبوصفها سلطةً قائمة على الاحتلال كما تُذكّرنا محكمة العدل، إنّ إسرائيل لا تستطيع مهاجمة السكّان الذين تحتلّهم عسكريًا. هذا المنطق الصرف معبّرٌ عنه بوضوحٍ في القانون. (ولكن، للمناسبة، هل ينسحب الحق بالدفاع عن النفس أيضًا على الفلسطينيّين... نعم أم لا؟)

بالإضافة إلى ذلك، يبدو من المستحيل مناقشة الوضع الراهن في فلسطين من دون أن تشكّل الأحداث المخيفة للسابع من تشرين الأول/أكتوبر 2023 نقطة انطلاق، كما لو أنّ عقودًا من العنف المروّع الذي ارتكبته إسرائيل ضدّ الفلسطينيّين قبل ذلك التاريخ – فضلًا عن الألم الذي عانى منه المدنيّون الإسرائيليّون في مناسبات أخرى، مثل موجة الهجمات الانتحاريّة خلال الانتفاضة الثانية – لا قيمة لها.

هذه القراءة الانتقائيّة للتاريخ تترك أجيالًا بأكملها في حالة من الصدمة التي لا تبقى عالقة وحسب بل تستمرّ أيضًا. صدمة تتجدّد كلّ يوم، مع إنكار قيمة معاناتهم ومع استمرار – بل تكثيف – العنف الذي لا تزال تلك المعاناة تسبّبه.

إنّ الجهل شبه التامّ بحقوق الفلسطينيّين غالبًا ما يجعلهم غير مرئيّين، في الحياة وفي الموت. يجعلهم مُجبرين على الخضوع الحتمي لمنطق إسرائيل ومطالبها. وهي دولة تبتلع، يومًا بعد يوم، المزيد والمزيد من أرض شعب آخر. ورغم ذلك، فإنّها تنجح باستمرار في تحريك النقاش حول حقها المقدّس في الوجود. هي، هي وحدها. أينما شاءت، وكيفما شاءت، وبأيّ وسيلة تراها مناسبة.

لقد أثبت العالم المعاصر هذا ألف مرّة: لا يكتفي الاستعمار بفرض سيطرته على شعبٍ ما. يبيد أيّ مستقبلٍ ممكن، بل يُكمل عمله بمحو ذاكرة ذلك الشعب أيضًا. إنّ محو آلام الإبادة الجماعيّة أو التقليل من شأنها، هي وغيرها من الفظائع، يعني إضافة حجر آخر فوق صدور أولئك الذين تأثّروا بالصدمة، يمنعهم من الشروع بأيّ طريقة في عمليّة التعافي.

أجد أنّ من المُريح أن يتحدّث شخصٌ مثل غابور عن هذه القضايا بعباراتٍ قويّة وواضحة. فهو، بصفته يهوديًا، عانى بنفسه من آثار صدمة تاريخيّة وشخصيّة، خلّفت فيه ندوبًا عاطفيّة طوال حياته. يعيش غابور الآن في كندا، كجزءٍ من «مجتمع استعماري» على أرضٍ سكنتها شعوبٌ أخرى قبل وصول الأوروبيّين للاستقرار فيها،

فارضين سلطتهم السياسيّة ومجبرين السكّان الأصليّين على الاندماج ثقافيًا في لغتهم وفي عاداتهم.

لم يُحرم السكّان الأصليّون مِن حقهم في تقرير المصير خلال قرونٍ من الاستعمار وحسب، بل لا يزالون يُمنعون من الحفاظ على ذاكرتهم الجماعيّة والثقافيّة. الإبادة الجماعيّة، بمعناها الأوسع، تشمل هذا الأمر هو الآخر.

***

في آخر زيارةٍ لي لكندا، في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 2024، كنت أعرف غابور ماتيه بالفعل، لكنّنا حتى ذلك الوقت لم نكن التقينا وجهًا لوجه بعد. في تلك اللحظة، كان الإرهاق قد تمكّن من جسدي، وقد حلّ بي تعب من جرّاء الهموم والقلق. في تلك الأيّام، وعلى الجانب الآخر من العالم، كانت والدتي التي فتك بها المرض لسنوات تمرّ بفترةٍ عصيبة. تشابكت الأعباء بداخلي. عرفت شعورًا مزدوجًا بالذنب – عدم وجودي بجانبها وترك بقيّة عائلتي الأولى تواجه الأمر بدوني – تزامنًا مع مشكلةٍ صحيّة مفاجئة أصابت زوجي. كنت منهكةً عاطفيًّا وجسديًّا. وكما يحدث غالبًا في لحظات الإرهاق، عانيت من آلام شديدة في الظهر رافقها صداعٌ وغثيان. أتذكّر أنّني قضيت الرحلة بأكملها في السيّارة بين أوتاوا وتورنتو وأنا أحاول التأمّل، لاستعادة الأوكسيجين والهدوء عبر ممارسة التمارين الذهنيّة... لعلّ ذلك يسكّن آلام ظهري. بيد أنّ ما بقي لي من طاقة كان ضئيلًا. في تلك الظروف، ذهبت في اليوم التالي للقاء وفدٍ من الأكاديميّين من مركز دراسات السكّان الأصليّين في جامعة تورنتو.

في أوروبا أو إيطاليا، يبدو أنّ قلةً من الناس تعرف أنّ كندا كانت مسرحًا لإبادة جماعيّة هائلة للسكّان الأصليّين.

منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى تسعينيّات القرن العشرين، طبّقت الحكومات الكنديّة سياسات وممارسات منهجيّة لتعقيم السكّان الأصليّين* أو دمجهم قسرًا في الثقافة السائدة. وحدث هذا الدمج في المقام الأول من خلال

* في السياقين الأنتروبولوجي والتاريخي، ما تقصده الكاتبة هو الإجراءات القسريّة التي اتُّخذت للحدّ من قدرة السكّان الأصليّين على الإنجاب، كجزءٍ من سياسات إبادة أو اضطهاد منهجية.

نظام المدارس الداخليّة، المصمّم لفصل الأطفال عن عائلاتهم، وإجبارهم على تبنّي اللغة والقيم الأوروبيّة. وقد أدّى تبنّي العائلات غير الأصليّة للأطفال إلى قطع صلتهم بجذورهم، سواءٌ كانوا من الإنويت* أو الميتيس** أو من الأمم الأولى. وقد عانى العديد من هؤلاء الأطفال من سوء المعاملة وواجهوا اعتداءات جسديّة وجنسيّة، وقد تُوفّي الكثير منهم في ظروفٍ لا تمتّ إلى الإنسانيّة بصلة. وقد سلّطت التحقيقات والأبحاث الحديثة الضوء على مقابر جماعيّة وشهادات تُبرز فظاعة سياسات تلك الإبادة الجماعيّة. لقد كان لهذه العمليّة أثرٌ مدمّر على مجتمعات السكّان الأصليّين. أدّت إلى فقدان لغاتهم وثقافاتهم وهويّاتهم، وتركت جروحًا عميقة لا تزال تؤثر عليهم. في كندا اليوم، يُعترف بالإبادة الجماعيّة. ولكن على الرغم من وجود عمليّة مصالحة جارية، لا تزال العدالة الحقيقيّة للسكّان الأصليّين في هذا الجزء من جزيرة السلحفاة (الاسم الذي تُطلقه العديد من الجماعات العرقيّة الأصليّة، بما في ذلك الإيروكوا*** والأنيشينابي****، على أميركا الشماليّة) بعيدة المنال. ولأنّني أعمل على قضيّة فلسطين، شعرتُ بأنّ من واجبي، في أميركا الشماليّة وأوستراليا ونيوزلندا، مقابلة ممثلي المجتمعات الأصليّة.

---

* الإنويت (Inuit) من الشعوب الأصيلة التي كانت تسكن المناطق القطبية الشمالية في كندا، ويشكلون جزءًا من شعوب إنويت نوناغات التي تشمل نونافوت ونونافييك ونوناتيابوت. على الرغم من تاريخهم الطويل من التكيّف مع قسوة البيئة، تعرّضوا منذ الاستعمار الأوروبي للتمييز، والتهجير القسري، ومحاولات مسّ لغتهم وثقافتهم التقليدية. اليوم، لا يزال الإنويت يكافحون للحفاظ على هويتهم ولغتهم الإينكتوت، بينما يسعون لمواجهة إرث سياسات الاستعمار التي حاولت تهميش مجتمعاتهم التقليدية، مع الحفاظ على قيمهم التي تقوم على الاحترام والتعاون والمشاركة.

الميتيس [Métis] هم شعب أصلي نشأ من تزاوج شعوب الأمم الأولى مع المستوطنين الأوروبيّين، لا سيما الفرنسيّين والاسكتلنديّين، خلال تجارة الفراء في القرن الثامن عشر. هذه الجماعة الفريدة تحمل هوية ثقافية وعرقية متميزة، لكنها تعرّضت للتمييز والنفي القانوني والإقصاء من أراضيها التقليدية على أيدي السلطات الاستعمارية الكندية. رغم الاعتراف القانوني المعاصر بهم كواحدٍ من ثلاثة شعوب أصلية في كندا، لا تزال الميتيس تواجه تحديات في استعادة حقوقها والحفاظ على تراثها، في ظل إرث طويل من الاستعمار ومحاولات طمس هويتهم الثقافية.

*** الإيروكوا [Haudenosaunee] أو «شعب البيت الطويل»، هم اتحاد من ستة أمم أصلية في أميركا الشمالية، بما في ذلك الموهوك، الأونيدا، الأونونداغا، الكايوغا، السينكا، والتوسكارورا. على الرغم من قوتهم السياسية والاجتماعية، تعرضوا للاستعمار الأوروبي الذي أدّى إلى تدمير أراضيهم، وتدمير ثقافاتهم، وفرض سياسات تهدف إلى محو هويتهم. اليوم، لا يزالون يكافحون لاستعادة حقوقهم، والحفاظ على لغاتهم، وإحياء تقاليدهم في مواجهة إرث طويل من التهميش والاضطهاد.

**** الأنيشينابي [Anishinaabe]، الذين يشملون شعوب الأوجيبوي، الأوداوا، والبوتاواتومي، هم من أقدم الشعوب الأصلية في منطقة البحيرات العظمى في أميركا الشمالية. من خلال تحالف «ثلاثة نيران»، تعاملوا مع المستوطنين الأوروبيّين في تجارة الفراء، لكن الأخيرين سلبوا أرضهم، وعملوا على تدمير ثقافتهم تدميرًا تامًا. يناضل الأنيشينابي اليوم لاستعادة كلّ ما فقدوه.

هكذا، وفي جامعة تورنتو ذلك اليوم، جلست أنا وزميلي مع عشرين شخصًا إلى طاولة. لبضع لحظات، ساورني شعورٌ بالحرج، إذ لم أكن جزءًا من تلك المجموعة. ولم أكن متأكدة من كيفيّة بدء المحادثة، وما البروتوكول الذي يجب اتّباعه. كيف نلقي التحيّة؟ مَن المسؤول عن كسر الجمود؟

لم يدم التردّد طويلًا.

الصلة التي نشأت بعد ذلك مباشرةً، والطاقة المشتركة والانفتاح المتبادل، حوّلت ذلك اللقاء إلى تجربةٍ لا تُنسى، وقد كانت مشبعةً بالألفة والمحبّة.

رحّب بي العلماء في الحوار، مُردّدين التحيّة بلغاتهم الأصليّة. دعاءٌ مصحوب بكلمات امتنانٍ موجّهة في المقام الأول إلى الطبيعة، وتوقّر العناصر الأساسيّة فيها: الماء والأرض والنار والهواء. تصوّرٌ للوجود في العالم يرسم أفقًا لا يتمركز حول الإنسان، بل يمثّل الأخير في هذا الوجود خيطًا في نسيج الوجود الواسع، فلا يكون البشر محوره. إنّه تصوّر يعيدنا إلى أبعادٍ منسيّة، ويعيدنا إلى حكمةٍ قديمة برمزيّتها السحريّة... وحيٌ يملك في اللحظة التاريخيّة القدرة على همس حقائق طال سكونها.

تصوّرٌ للوجود في العالم يدعو إلى التأمّل.

افتتح أحد العلماء الأصليّين، وهو أيضًا موسيقي، الاجتماع بالغناء. ترنيمةٌ قديمةٌ بصوتٍ جهوري. ازدادت حدّتها شيئًا فشيئًا. كانت من ذلك النوع الذي يهزّك من الداخل. وهناك، في الفصل الجامعي، بدا الأمر كما لو أنّ النوافذ تهتزّ. كانت معزوفةً قويّة ومشحونةً بالمعنى، لدرجة أنّني، في لحظةٍ ما، شعرتُ بالخوف تقريبًا. لكنّه كان خوفًا مقدّسًا، لأنّنا لم نعد في مجرد غرفة. لقد نقلنا صوته إلى مكانٍ آخر، إلى زمنٍ آخر.

في تلك اللحظة، وأنا أنصت إلى الترنيمة، انصرف عنّي الألم. بدا الأمر كما لو أنّه لوهلة، إلى جانبي وإلى جانب جسدي المتألم، كان ثمّة شيءٌ أعظم يجتازني ويعبرني كنهر. ثمّ بدأوا يُمرّرون التبغ. يأخذ كلٌّ منهم قليلًا ويتركه في راحة يده. بعد ذلك بوقتٍ قصير، شرحوا لي أنّ هذا يُساعد على امتصاص الألم. لقد تُوفّي أحد قادتهم، وساعدتهم تلك اللفتة على التركيز، والدخول في مساحةٍ من التواصل العميق قبل التحدّث إلى الآخرين. كان كلّ منهم يقبض على كومة الأوراق المجفّفة

بين يديه، كما لو أنّه يشدّ العزم. عندها شرعوا في رواية قصصهم. قصص قاسية ومؤثرة. كثيرٌ منهم ينحدرون من عائلات مختلطة. إن لم يصبهم الأمر هم أنفسهم، فقد يكون أصاب عائلاتهم. وقد يكون أحد والديهم – أو كلاهما – أُخذ من المنزل، ووُضعوا في مدارس أو أسر حاضنة للكنديّين البيض. انتُزِع الأطفال من آبائهم الأصليّين لقطع السلالة، وتدمير التراث الثقافي، ومحو الهويّة.

مع ذلك، واحدًا تلو الآخر، يستعيد هؤلاء الناس – مثلهم مثل المجتمعات الأصليّة التي ينتمون إليها – مساحةً لعيش هويّتهم الخاصّة. عمليّة التحرير هذه التي تهدف إلى إعادة تأكيد الهويّة والثقافة والسياسة ليست بدايةً جديدة. ولكنّها تبدو مدفوعةً بقوّةٍ جديدة. جعلني كلّ هذا أتأمّل على نطاقٍ واسع في ما يحدث معنا جميعًا.

منذ مدة وأنا أشعر بنوعٍ من رغبة في التجديد تنفلش في كلّ مكان. كما لو أنّ بذور ثورةٍ تستعد للتمرّد بدأت تزهر. وكما يحدث في الجسد المريض، عندما تُنشَّط الأجسام المضادّة لضمان مساعدة الخلايا السليمة لمن يواجهون صعوباتٍ في مكافحة المرض، فإنّ بذور المقاومة التي تتفاعل وتحشد في وجه الظلم، في بعض البلدان، وخاصّةً الغربيّة، هي الأجسام المضادّة في المجتمع السليم. هذا الدافع موجودٌ أيضًا بين مختلف شعوب الأرض، ويؤكّده تضامن الشعوب الأصليّة ومختلف دول العالم مع فلسطين.

للأسف، فإنّ القشرة التي يجب انتزاعها سميكة وبالغة القِدم.

في ذلك اليوم، أخبرني الباحثون أنّ المبنى الجامعي الذي اجتمعنا فيه يقع على نهرٍ مقدّسٍ لديهم. قالوا: «يكتم الاسمنت أنفاسه. دمّروا الأشجار وأخذوها. لكنّنا ما زلنا نسمع أصواتها». عبّروا عن أنفسهم بوعيٍ حادّ؛ كما لو أنّ الأرض تتحدّث من خلالهم.

من بين الأكاديميّين والأكاديميّات الجالسين إلى تلك الطاولة، كان بينهم من أثّروا فيّ. أخبرتنا امرأةٌ في الثلاثينيّات من عمرها أنّ عائلةً يهوديّة صهيونيّة تبنّتها. وقد سبّب لها الأمر عذابًا مزدوجًا... تمزّق في هويّتها لا يُشفى بسهولة. كانت تجلس بجانبي امرأةٌ أخرى من السكّان الأصليّين. كانت ضئيلة الحجم، لكنّ حضورها كان مهيبًا. أخبرتنا أنّها كانت «طفلةً مُخبّأة»، أي طفلةً أُخفيت كي لا

تُنتزع مِن عائلتها الأصليّة. في الواقع، كانت تتحدّث لغة شعبها بإتقان، تلك التي يجب على الآخرين استعادتها لتُصبِح ملكًا لهم مجدّدًا. مثلها، كان جميع الحاضرين في تلك الغرفة يجتمعون على رابطٍ متين بالأرض، بالإضافة إلى جرحٍ عميقٍ حيّ... صدمةٌ يحملونها في داخلهم ولا يُمكن أن تُشفى إلّا إذا التزموا الحفاظ على ذكراها.

أحيانًا، يبدو لي أنّه في العديد من الدول الغربيّة، يصعب على الكثيرين فهم ماهيّة الاستعمار الاستيطاني وما ينطوي عليه. فمعظم الكتب المدرسيّة التي يدرسها الأطفال الإيطاليّون والغربيّون عمومًا، على سبيل المثال، تتحدّث بحياديّةٍ مطلقة – إن لم تكن تميل إلى اعتبار الأمر بطوليًا – عن أفعال الاستعمار العنيفة التي قامت عليها الحضارتان اليونانيّة والرومانيّة على أرض بلادنا، والتي أبادت شعوبًا بأكملها، ومحت ذاكرة ثقافاتها، ولغاتها الأصليّة، وجميع معارفها. هذه خطوات تُعدّ أمرًا مسلّمًا به، ولا يشعر أحد بضرورة الإنتباه إليها. وينطبق الأمر نفسه على الاستعمار الأحدث، الذي بدأ بقوارب الكاراڤيل* التي قادها كريستوفر كولومبوس المنحدر من جنوى. وهو حدثٌ غالبًا ما يُوصف على هذا النحو: «اكتشاف أميركا». لم يكن ذلك في الواقع سوى بداية حقبةٍ من الاستعمار والاستغلال، أدّت إلى هلاك عشرات الملايين من السكّان الأصليّين في جميع أنحاء الأميركيّتين. غالبًا ما تُغفَل هذه التحوّلات التاريخيّة، إلّا أنّها خلّفت عواقب وخيمةً ودائمة.

أتساءل أحيانًا كيف يُمكننا فهم ما يحدث عندما يُدمَّر شعب، وعندما يُمزَّق جسمٌ جماعيٌّ ويُهجَّر من دون اعترافٍ بوجوده، هكذا من دون أن يُلاحَظ، وهذا ما يُسبِّب جروحًا داخليّةً وصدماتٍ تتجسّد وتتردَّدُ في آلام أجيالٍ عديدةٍ مقبلة، كما يُوضِّح غابور. في الوقت نفسه، يزدهر اليوم وعيٌ جديد مصحوبًا بالتزامٍ ملموس. وكما هي الحال في كندا، تظهر في عدة بلدان أخرى أو تتوطَّد دراساتٌ حول الثقافات والحركات الأصليّة التي تُنمّي الذاكرة، وتسعى لترميم الجروح العميقة ومساعدتها على الالتئام.

---

* قوارب شراعية أوروبية صغيرة وسريعة، استُخدمت كأدوات للاكتشاف البحري. لكنّها لم تكن مجرد وسيلة استكشاف، بل استُخدمت في الاستعمار والهيمنة. عبرها وصل المستعمرون إلى الأراضي الجديدة، ونهبوا الموارد، وفرضوا سيطرتهم على الشعوب الأصلية. تمثّل هذه القوارب رمزًا لبدء الحقبة الاستعمارية الحديثة وطريقة لتوطيد النفوذ الأوروبي على العالم.

***

مباشرةً قبل أسابيع قليلة من السفر إلى كندا، كنت قد نظمّت فعاليّةً عامة في واشنطن، في إحدى المكتبات المستقلة التابعة لسلسلة «Busboys and Poets». لطالما استضافت تلك المساحات أصواتًا متمرّدة، وعرضت أدبًا أميركيًا من أصل أفريقي ونصوصًا للمقاومة. بوجودها هناك، تمثّل نقيضًا فعليًا لعالم جماعات الضغط الذي تعجّ به شوارع العاصمة الأميركيّة. خلال السنوات التي عشتُ فيها في واشنطن بعد مغادرتي فلسطين، شكّل «Busboys and Poets» ملاذًا لي. كنتُ أرتاد المكان كثيرًا لحضور الاجتماعات والمناقشات وعروض الكتب، وللاستمتاع بقراءة وفنجان قهوة في أيّام المطر والثلج بصحبة ليلى، التي كانت في صغرها تصحبني في سفري أينما ذهبت، مِن عربتها الصغيرة المخصّصة للأطفال.

في ذلك المساء، وفي «Busboys and Poets» تحديدًا، الواقع في 237 – شارع 14 – القطاع الشمالي الغربي (NW) بواشنطن العاصمة، كانت هوپ حاضرة. إنّها امرأةٌ تنتمي إلى شعب پيسكاتاواي [Piscataway]، أحد الشعوب الأصليّة العديدة التي أبادها المستوطنون الغربيّون خلال عمليّة تشكّل ما يُعرف الآن بالولايات المتحدة. افتتحت هوپ الأمسية بتقديم نفسها باسم «فاير ستارتر»، أي «مشعلة النار». قدّمت لنا قرابين شعبها وتحيّة بلغة لِناپِه [Lenape]، ثمّ ترجمتها لنا. لقد فُقدت لهجة پيسكاتاواي. لكن لغة لِناپِه تشترك معها في الجذور. كانت القصيدة من تأليف نورا تومسون دين Nora Thompson Dean – واسمها بلغة لِناپِه هو وينشيپاكيهيلكسكوي Weènchipahkihëlèxkwe، أي «المرأة التي تلمس أوراق الشجر» – وكانت من آخر المتحدّثين بلهجة أونامي Unami الجنوبيّة بطلاقة. لقد كرّست حياتها لتوثيق وتدريس ونقل التقاليد الروحيّة والثقافيّة لشعبها، بالتعاون مع الباحثين والمؤسّسات للحفاظ عليها لأجيالٍ مقبلة.

Kuxëna Kishelëmienk,
wanìshi tili nkàski nipain yushe tali, òk wèmi weltëk
kèku ènta milian, wanìshi, mpi òk yu ènta kishux pèchi
òxekamakuna yushe xkwithakamika.
Milinèn weltëk tëmakàn tìlìch kàski ikalìchi pèchi

pètawsinèn yushe ènta xkwithakamika.
Punelìntàmainèn wèmi ènta ahchanilan òk ènta ahchanaptunhe.
Wanìshi Nuxati, wètënëmai winëweokàn.
Na në lekèch.

يا أبانا الذي خلقنا،
أشكرك لأنّك سمحت لي بأن أكون هنا في هذا المكان، وعلى كلّ الخير الذي وهبتني إيّاه. أشكرك على الماء وعلى الشمس التي تشرق علينا، فوق هذه الأرض.
اهدنا طريقًا صالحًا، لنعيش حياةً أطول، هنا على هذه الأرض.
اغفر لنا ما نفعله من أخطاء، وعندما نقول شيئًا خاطئًا. أحمدك يا أبانا العزيز، وتقبّل منّي هذه الصلاة.
آمين.

كان الاستقبال مؤثرًا للغاية، ورأيت أنّه كان مفيدًا أيضًا لمئات الأشخاص الذين حضروا للاستماع إلى النقاش. هذا بالضبط ما يجب علينا فعله... اغتنام كلّ فرصة لنتعلم كيف نرى الأمور على نحوٍ أفضل، لنفهم ونحفظ ونكرّم ذكرى ما اندثر. لنناضل جنبًا إلى جنب مع الذين يقاومون، ونتساعد معًا في مداواة جراح الشعوب المظلومة.

إنّ توحيد مختلف النضالات من أجل تقرير المصير، الذي لا يزال مشروعًا غير مكتمل، هو مسارٌ يُبنى عبر العديد من الأفعال، عمليّة ورمزيّة، للقطيعة مع الماضي. تلك الأفعال التي يجب أن نتعلم دمجها في حياتنا اليوميّة كلما سنحت لنا الفرصة.

وكما سألتُ في كلمتي الافتتاحيّة خلال النشاط الذي كان بضيافة «Busboys and Poets» كيف يُمكننا أن نجتمع لعقود في أميركا الشماليّة للحديث عن فلسطين، من دون إشراك السكّان الأصليّين الذين عاشوا – وما زالوا يعيشون – في تلك الأراضي ذاتها تجربة الاستعمار والإبادة الجماعيّة؟

لذلك، وبعد أيّام قليلة من ذلك الاجتماع في المكتبة، عندما وجدتُ نفسي أُقدّم تقريري إلى الأمم المتحدة، بدأتُ خطابي هكذا: «نجتمع اليوم على أرض أمّة پيسكاتاواي، التي ما زالت ملكًا لهم...»، وحيّيتُ الأرض كما تعلمتُ من هوپ.

دُهشتُ من قلّة الأهميّة التي أعطيت لهذا السطر الافتتاحي من خطابي. كان من المهمّ جدًا ألّا يلاحظ أحد، أنّه في ذلك المبنى البرّاق الذي تُعقد فيه الاجتماعات الرسميّة للأمم المتحدة، بطوابقه المتعددة وواجهاته الزجاجيّة والفولاذيّة المهيبة التي تعكس السماء والمدينة المحيطة، أحدٌ ما ردّد الآتي... «اليوم نجد أنفسنا على أرضٍ كانت ملكًا لشعب – السكّان الأصليّين لأميركا – وقد كان أهل هذا الشعب ضحايا إبادة جماعيّة ارتكبها أحد الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن». في تلك القاعات، يتجلى تناقضٌ واضحٌ بين هيبة مزعومة يجسّدها تمدّد الاسمنت، وبين الأرض الواقعة في الأسفل... تلك المزيّنة بطبقاتٍ من التاريخ والمعاناة والنضال، والتي طواها النسيان.

لا أحد حرٌّ حتى يتحرّر الجميع. **الجميع.**

كلّ الذين صاروا غير مرئيّين على هذه الأرض؛ كلّ الشعوب التي اختُزلت ذاكرتها وتقاليدها وثقافتها إلى فولكلور؛ وكلّ من لا يزال يدرك معنى التحرّر من الظلم ويريده كأفقٍ دائمٍ لا كحاضرٍ للاستهلاك. في أميركا، توجد الآن متاحف للأميركيّين الأصليّين، مثل متحف سميثسونيان Smithsonian الوطني للأميركيّين الأصليّين في واشنطن، حيث تُعرض الملابس التقليديّة والخيام المُعاد بناؤها، إلى جانب أغطية الرأس التقليديّة المصنوعة من الريش، ونسخ من شمع لمشاهد من العصر الذي عاشت فيه القبائل حياتها الحرّة، عندما كانت منغمسةً في الطبيعة، محاطةً بالبيسون*. أمّا في ما يخص التاريخ، فإنّ ما نستخلصه من الأساطير المصاحبة للصور المتنوّعة يبقى ضئيلًا جدًا. يبدو الأمر كما لو أنّ هؤلاء السكّان الأصليّين انقرضوا من تلقاء أنفسهم، لا بسبب سلسلة من السياسات والإجراءات المدمّرة التي اتخذها المستَعمِرون الأوروبيّون وحملاتهم التي شرعت في استيطان «العالم

* البيسون هو حيوان ضخم من فصيلة الثدييّات، يُعرف أيضًا باسم الجاموس الأميركي، وكان يشكّل جزءًا أساسيًا من النظام البيئي في أميركا الشمالية قبل استعمارها. بالنسبة إلى الشعوب الأصلية، كان مصدرًا للغذاء والملبس والأدوات، وكان له دورٌ أساسي في ثقافة تلك الشعوب وفي اقتصادها.

الجديد» بدءًا من القرن السادس عشر. لاحقًا، وبدءًا من القرن السابع عشر، أدّت البؤر الاستيطانيّة التي أنشأها المستعمِرون، والتوسّع التدريجي في احتلال الأراضي بهدف استغلال الموارد الطبيعيّة، إلى صراعات مختلفة مع السكّان الأصليّين، الذين غالبًا ما أُجبروا على التنازل عن أراضيهم. أسهمت الحروب وانتشار الأمراض الأوروبيّة، التي لم يكن السكّان الأصليّون طوّروا أيّ مناعة ضدّها، بانخفاض حادٍّ في عدد السكّان. وتفاقم هذا الوضع بسبب سياسات المجاعة والتهجير القسري، مثل حادثة «درب الدموع»* السيّئة السمعة في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر، التي أدّت إلى نزوح وموت العديد من القبائل بما في ذلك قبيلة شيروكي.

على الرغم من الاعتراف الفيدرالي بالعديد من القبائل، لا تزال الحياة في المحميّات صعبةً للغاية. بعد قرونٍ من العنف وتدمير مئات القبائل، لا تزال المجتمعات الأصليّة تواجه مشاكل خطيرة. فالوصول إلى الموارد الطبيعيّة محدود للغاية. ولم تعترف حكومة الولايات المتحدة رسميًا بالإبادة الجماعيّة – أو بالأحرى، الإبادات الجماعيّة – التي ارتُكِبَت بحق السكّان الأصليّين.

إن غياب العدالة التاريخيّة يضع أحفاد الناجين في موضعٍ هشّ. يُجبرون على مواجهة تحديات يوميّة كالفقر والبطالة وصعوبة الحصول على الخدمات الأساسيّة.

في كندا، ثمّة تقدّمٌ طفيف عمّا هو عليه الأمر في الولايات المتحدة، إذ ثمّة اعترافٌ بالإبادة الجماعيّة على الأقلّ. في جميع المناسبات العامّة، من المعتاد الإشارة إلى أنّ المرء موجود على أراضٍ كانت ملكًا لشعوب أصليّة لم تتخلَّ قطّ عن

---

* درب الدموع مصطلح يُستخدم للإشارة إلى سلسلة من عمليّات التهجير القسري التي نفذتها الحكومة الأميركية في القرن التاسع عشر ضدّ الشعوب الأصلية، خاصّةً قبائل شيروكي، تشوكتاو، شيكاسو، موسكوغي (كريك)، وسيمينول. تُعدّ هذه الحادثة مثالًا عمليًا على عمليّات التطهير العرقي والاستعمار الداخلي، حيث أُجبر ما يقارب 60 ألف شخص من هذه القبائل على مغادرة أراضيهم التاريخية شرقي نهر المسيسيبي، والانتقال إلى ما يُعرف اليوم بـ«إقليم الهنود» في اللغة الاستعمارية، (الذي أصبح لاحقًا ولاية أوكلاهوما) بين عامي 1830 و1850. في عام 1830، وقع الرئيس الأميركي أندرو جاكسون على قانون يحمل اسمًا استعماريًا هو الآخر، حمل اسم إزالة الهنود (Indian Removal Act)، وسمح للحكومة الأميركية بنقل القبائل الأصلية بالقوّة إلى أراضٍ غربيّ نهر المسيسيبي. على الرغم من حكم المحكمة العليا في قضية وورسيستر ضدّ جورجيا الصادر بتاريخ 1832، والذي أكد حقوق قبيلة شيروكي في أراضيها، تجاهلت الحكومة الأميركية الحكم وواصلت تنفيذ عمليّات التهجير. وقد استمرّت رحلة التهجير من تشرين الأول/ أكتوبر 1838 إلى آذار/ مارس 1839، وكانت حافلة بالمآسي. وقد تُوفي الآلاف من قبيلة شيروكي بسبب الأمراض والجوع والظروف القاسية أثناء الرحلة. وقد أُجبروا على السير لأميال طويلة، عبر تسع ولايات أميركية (اليوم)، بما في ذلك تينيسي، وكنتاكي، وإلينوي، وميسوري، وأركنساس، وصولًا إلى إقليم أوكلاهوما.

أرضها وثقافتها. نكنّ لهم التقدير، لأسلافهم وقادتهم، في الماضي والحاضر وفي المستقبل. لكن يجب أن نضمن ألّا يكون هذا الاعتراف مجرّد شكلٍ من أشكال التمثيل، وأن يكون هناك التزامٌ حقيقي بالقضاء على التمييز ضدّ السكّان الأصليّين. تُقدَّم هذه الإشادة علنًا، ومع ذلك يستمرّون في سياسات سرقة الأراضي والموارد، كما يحدث في كندا، وأيضًا في أوستراليا ونيوزلندا. وفي فلسطين.

عندما أفكّر في المقدمة التي أدّتها هوپ لاجتماعنا في «Busboys and Poets»، أخشى ما قد يحدث في فلسطين إذا ما سُمح للحكومة الإسرائيليّة الحاليّة، المدعومة من إدارة ترامپ، بتطبيق خطّتها. بعد أربعين عامًا من الآن، قد يجد أحدهم نفسه في مكانٍ كان يُعرف سابقًا بفلسطين... ربّما في قاعة محاضرات جامعيّة تحمل اسم دونالد ترامپ وهو يُقدِّم تحيّة «للفلسطينيّين، سكّان هذه الأرض القدماء...»، ولكن عندها لن تكون فلسطين، بل ما بقي منها.

لهذا السبب، من المهمّ جدًا أن نناضل معًا من أجل الفهم والمعرفة وحفظ الذاكرة، والدفاع عن الباقين.

ولهذا السبب، تؤدّي حقوق الإنسان دورًا علاجيًا يُشبه التوازن. تُذكِّرنا بأنّنا بشر أيضًا، حتى إن صودف أنّنا وُلدنا في صفٍّ واحد مع الأقوياء. نعلم جيّدًا أنّ البشر بطبيعتهم ضعفاء ومعقّدون ومتصدّعون. وهذه الهشاشة تنعكس حتمًا على المُستعمِر، الذي غالبًا ما نجد فيه جانبًا من مأساة المُستعمَر. كيف ننسى المأساة التي حلّت بأيرلندا في منتصف القرن التاسع عشر، عندما لقي ما يقرب من مليون أيرلندي حتفهم، في أقلّ من خمس سنوات، بسبب الجوع والتيفوس والكوليرا، بينما أُجبر ما يقرب من مليوني شخص على الهجرة؟ اليوم، يُشكّل أحفاد هؤلاء المهاجرين 20% من السكّان الأميركيّين البيض. يشير هذا إلى أنّه، بينما كان الأيرلنديّون يحاولون إعادة بناء حياتهم في أميركا، أسهموا بدورهم، بوعيٍ أو بغير وعي، في النظام الاستعماري القائم في منطقة أميركا الشماليّة.

أتذكّر عندما شاهدت فيلم «أڤاتار» لأول مرّة، في القدس. غادرت السينما بفكرةٍ واضحة جدًا: «يا له من تحوّل لفلسطين، هذا الفيلم!» كانت تلك القصّة تحمل كلّ شيء: الغزو، استنزاف الموارد، الارتباط بالأرض، المقاومة، واستناد الشعب المظلوم إلى مقاومةٍ روحيّة.

خارج السينما، دُهشتُ بشدّة من مغادرة هذا العدد الكبير من الإسرائيليّين وهم يبكون. استغرق الأمر منّي بعض الوقت لأفهم، وأنا أستمع وأتحدّث مع المارّة، أنّهم لم يكونوا يبكون بسبب ما رأيته، بل لأنّهم شعروا هم أيضًا بأنّهم جزء من شعب ناڤي*. لقد تماهوا مع المضطهَدين، مع أولئك الذين طردتهم من أرضهم قوّةٌ عسكريّة لا تُقهر، قوّة فوق الطبيعة.

فتح هذا عينيّ على حقيقة أنّه، بسبب الاضطهاد الذي عانوه لقرون في أوروبا وروسيا، يحمل العديد من الإسرائيليّين معهم شذرات من ذكريات أليمة، تمامًا مثل تلك التي يتحدّث عنها غابور ماتيه... شكل من أشكال الانفصال العاطفي الذي قد يكون لاشعوريًا، لكنّه مع ذلك يترك آثارًا. سواءٌ كان حقيقيًا أو مُتوقعًا، فإنه يبقى في الجسد، في اللغة، وفي الخيال. إنّ فهم هذا التعقيد، في رأيي، يجعل الوضع الذي نمرّ به أقلّ بساطةً وسطحيّة.

عندما يُدعى الناس إلى الالتزام بحقوق الإنسان، أعتقد أنّه يجب عليهم القيام بذلك من منظور إنساني جذري. ولكن منظور يكون أيضًا منفتحًا على نحوٍ جذري، حيث يُمكن بالتأكيد أن تكون هناك أفعالٌ صائبة وأخرى خاطئة، من دون الحاجة إلى فصل «الخير» عن «الشرّ». وعندها، من الممكن تقبّل الجميع كبشر. **الجميع.**

في داخل أولئك الذين لا يدركون إنسانيّة الآخرين، شيءٌ مشوّه بعمقٍ شديد.

بالنسبة إلى العديد من الإسرائيليّين، يعني هذا عدم القدرة أو عدم الرغبة في رؤية الفلسطينيّين كبشر. وينطبق الأمر نفسه، على العكس من ذلك، على أولئك الفلسطينيّين الذين يُكافحون من أجل إدراك إنسانيّة الإسرائيليّين.

لحسن الحظ، حتى إن كانوا لا يزالون قلّة، هناك مواطنون إسرائيليّون ويهود في الشتات يناضلون بشراسة من أجل الحقوق الفلسطينيّة. هذا هو بالضبط معنى شعار **«حرّر عقلك من الاستعمار»**. تحرير العقل من الاستعمار يعني تحطيم الحدود والحواجز، وبذل قصارى الجهد لتحرير أنفسنا، على كلا الجانبين، من البنى الفوقيّة التي تمنعنا من البقاء على اتّصالٍ بما هو أكثر إنسانيّةً وصدقًا مشتركًا

* ناڤي هو اسم الشعب المتخيّل في فيلم أڤاتار، من إخراج جايمس كاميرون.

بيننا، على هذه الأرض التي نتشاركها. الأمر، الذي هو، في نهاية المطاف، الشيء الوحيد المهمّ حقًا.

تقول نايتيري في «أڤاتار»: «الأمّ العظيمة لا تنحاز لأحد. إنّها تحمي التوازن في الحياة وحسب».

إنّ الحفاظ على إنسانيّة الآخر، والسعي إلى مواصلة إدراك تفرّده كما هو، من دون تطبيع هذا التفرّد أو تسطيحه، يشكّل بحدّ ذاته مساهمةً في مكافحة الإبادة الجماعيّة. جميع المستعمِرين وكذلك جميع أدوات الإبادة الجماعيّة، لا يعملون على قتل الناس جسديًا وحسب، بل أيضًا على محو هويّة الشعب المُستَهدَف.

ما معنى الرقم الذي كان يوشم على ثياب المُعتقَلين وعلى أجسادهم في معسكرات الاعتقال، إن لم يكن هذا هو المعنى؟ في تلك الفترة، لم يعد لأسمائهم أيّ معنى. وقد تَمَثَّل جزءٌ من نضالهم من أجل البقاء بذلك الفعل الثمين تحديدًا، في تذكّر هويّتهم ومن كانوا، والحفاظ على الشعور بأسمى ما في الإنسان، حتى في مواجهة نقيض ذلك الأمر تمامًا.

كورديليا إدواردسون Cordelia Edvardson، التي رُحِّلت في سنّ الخامسة عشرة إلى تريزنشتات*، ثمّ إلى أوشفيتز تحت الرقم A3709، ثمّ عملت مراسلةً في القدس لعقود لإحدى الصحف السويديّة الرائدة. وكانت من أوائل الأصوات اليهوديّة التي شجبت الفظائع التي ارتكبتها دولة إسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني. في كتابها «أميرة الـظِلال»، تحدّثت عن تجربتها داخل معسكر الاعتقال. من قصصها، التي تستحضر ذكريات فتاة صغيرة، لم تتجاوز طفولتها بعد، يتّضح جليًّا مدى أهمّية تشبّثها بالثقافة والمعرفة والشعر، لمواصلة رؤية نفسها كإنسانة بالمعنى الحقيقي والنبيل للكلمة. لذلك فإنّ قصّة ديميترا وپروسِرپينا** – الأميرة

---

* معسكر اعتقال نازي يقع في مدينة تيريزين في جمهورية التشيك الحالية، وقد أُنشئ في تشرين الثاني/ نوفمبر 1941. خُصّص في البداية لليهود المسنّين والمثقفين والفنّانين، وكان يُستخدم كواجهة دعائية لتضليل المجتمع الدولي حول معاملة النازيّين لليهود. على الرغم من الظروف المأساوية، شهد المعسكر نشاطًا ثقافيًا، وذلك في محاولة لإظهار «حياة طبيعية» للمعتقلين. ومع ذلك، تُوفّي آلاف الأشخاص في المعسكر، ورُحّل أكثر من 90 ألفًا آخرين إلى معسكرات الإبادة مثل أوشفيتز. حرّر المعسكر في أيار/ مايو 1945 الجيشُ الأحمر السوفياتي.

** ديميترا هي إلهة الزراعة والحصاد في الأساطير اليونانية، أمّا پروسِرپينا فهي ابنتها، وتُعرف في اليونان باسم پرسيفون Persephone. تقول الأسطورة إن پروسِرپينا تعرّضت للاختطاف من هادِس، إله العالم السفلي، لتصبح زوجته. وحزنًا على اختفاء ابنتها، توقفت ديميترا عن العمل في الأرض، فتوقفت المحاصيل وجفّت الأراضي. وبعد مفاوضات مع الآلهة، تمّ

التي تدخل ظلال الأرض كبذرةٍ لتخرج في الوقت المناسب مع زهرتها وثمرتها – ليست مجرّد أسطورةٍ جميلة، بل هي وعدٌ بالولادة الجديدة التي تغذي القلب بتذكيرنا بمن نحن، ومن يمكننا أن نكون.

من هنا، قامت مجموعة الكُتّاب الفلسطينيّين الناشئين «لسنا أرقامًا» على وعيٍ مفاده أنّ الضحايا في ساحات الحرب والإبادة يتعرّضون لمخاطر متعدّدة الجوانب، بما في ذلك فقدان الهويّة تحت وابلٍ من البيانات الإحصائيّة، وطريقة تعداد القتلى كأرقام مجرّدة في إحصاءات. هذا الأمر الذي ما انفكّ يتكرّر منذ زمنٍ طويل في مكانٍ مثل غزّة. ينتهي الأمر بالضحايا إلى فقدان وجوههم وقصصهم وأسمائهم. لقد أصبحت هذه القصص وهذه الأرواح أرقامًا في نشرات الحرب، التي يبدو أنّ الناس اعتادوا عليها يومًا بعد يوم.

في عام 2015، وفي غزّة التي فتك بها الحصار، أراد الشاعر رفعت العرعير، الذي لطالما آمن بقوّة الكلمات كشكلٍ من أشكال المقاومة والشفاء، أن يقلب هذا المنطق رأسًا على عقب من خلال تدريس الأدب والشعر، ومساعدة العديد من الشباب في غزّة، إيمانًا منه بقوّة الكتابة الإبداعيّة. إلى جانب نشطاء وكتّاب ومنظمات أخرى، التزم رفعت التزامًا عميقًا بدعم مبادرة «لسنا أرقامًا». عبر بناء سرديّتهم الخاصّة للأحداث، تهدف هذه المنظمة إلى إعادة الاعتبار والكرامة إلى الضحايا وبقيّة الناجين من كلّ جريمة إسرائيليّة في غزّة، بدءًا من الحصار وصولًا إلى الحروب المتعدّدة. ومن خلال ورش الكتابة، تمكّن العديد من الشباب الفلسطينيّين من سرد حياتهم وأحلامهم وما فقدوه وما بقي لهم من أمل. أكّدوا وجودهم كبشرٍ كاملين، متجاوزين بذلك تصنيفات الأخبار وأرقامها.

في 6 كانون الأول/ ديسمبر 2023، استُشهد رفعت العرعير بقصفٍ إسرائيلي. استُشهد مع شقيقه وشقيقته وأطفالها الأربعة. آخر فيديو بقي لهذا الأستاذ الذي أحبّ شيكسبير، وتعلّم العبريّة، واعتبر إعادة تأهيل الإسرائيليّين حجر الزاوية في رسالته لأصدقائه وطلّابه، لا يتجاوز الدقيقة. احتلت ملامح الحزن الشديد وجه

الوصول إلى حلّ، قضى بأن تنفق پروسرپينا جزءًا من السنة مع والدتها على الأرض، والجزء الآخر مع هاديس في العالم السفلي. وللقصّة أبعاد رمزيّة، إذ يمثّل الوقت مع ديميترا الربيع والصيف عندما تزدهر الزراعة، ومع هادِس الخريف والشتاء، حين يحلّ الجفاف وتموت النباتات.

رفعت، بينما كان يحاول جاهدًا كبت دموعه. لكنّه تمكّن من الحفاظ على صوتٍ ثابت وواضح وهو يقول هذه الكلمات: «نعلم أنّ الوضع مظلم للغاية، يائس، ولا مخرج منه. إن لم يكن هناك ماء، وإن لم نتمكّن من الخروج من غزّة، فماذا نفعل؟ هل نلقي بأنفسنا جميعًا في البحر ونغرق؟ هل ننتحر جماعيًا؟ هل هذا ما تريده إسرائيل؟ حسنًا، لن نفعل ذلك. قبل أيّام كنت أقول لبعض أصدقائي: أنا أكاديمي، ولعلّ أخطر ما أحتفظ به في منزلي هو قلم ملوّن. لكن إذا غزانا الإسرائيليّون، ودخلوا بيوتنا واحدًا تلو الآخر ليذبحونا، فسأستخدم القلم، سأرميه في وجوههم. حتى لو كان ذلك آخر شيءٍ أستطيع فعله في حياتي. هكذا نشعر هنا جميعنا. نحن في حالةٍ من العجز التامّ، ليس لدينا ما نخسره». مات بعد أيّام قليلة، وكان عمره أربعة وأربعين عامًا.

يمكننا اليوم أن نتذكّره بنشر الوعي، كلٌّ بقدر استطاعته، فنشير إلى ما يحلّ بالشعب الفلسطيني. ذلك أنّ المعرفة جوهريّة والذاكرة لا غنى عنها في أيّ عمليّة شفاء، كما يعلّمنا غابور ماتيه.

يمكننا أن نتذكّره بمقتطفٍ من مقدمة كتاب جمع فيه رفعت قصص العديد من الفتيان والفتيات الفلسطينيّين، تحت عنوان: «غزّة تردّ بالكتابة، تردّ الضربات بالكتابة».

غزّة تردّ بالكتابة.

يمكن للمرء أيضًا أن يتفاعل مع الفظائع التي عانى منها بسلاح القصّة، أو القلم.

«غزّة تردّ بالكتابة» لأنّ سرد القصص يساعد على بناء الهويّة الفلسطينيّة والوحدة الوطنيّة. غزّة تردّ بالكتابة لأنّ ثمة فلسطين تحتاج إلى استعادة، على الأقلّ بالكتابة، في وضعها الراهن. غزّة تحكي القصص لأنّ القوس السردي للقصّة القصيرة كافٍ للحديث عن فلسطين. غزّة تروي حتى لا ينسى الناس. غزّة تردّ بالكتابة لأنّ قوّة الخيال وسيلةٌ إبداعيّة لبناء واقع جديد. غزّة تردّ بالكتابة لأنّ الكتابة واجبٌ وطني، وواجب تجاه الإنسانيّة، ومسؤوليّة أخلاقيّة.

جميع الفلسطينيّين، وليسوا وحدهم، يحبّون تخليد ذكرى رفعت بالطائرات الورقيّة البيضاء: تكريمًا لقصيدته «إن كان عليّ أن أموت»...

إن كان عليّ أن أموت،
فعليك أن تعيش
لتروي
قصّتي
لتبيع أشيائي
لتشتري القليل من الورق
وبعض الخيوط،
فتصنع طائرةً ورقيّة
بيضاء بذيلٍ طويل
ويبصرها طفل،
في مكانٍ ما في غزّة،
يضع عينيه في عين السماء
ينتظر والده الذي
ابتلعه اللهيب
قبل أن يودّع أحدًا
ولا حتى جسده
ولا حتى نفسه
يرى الطائرة الورقيّة،
طائرتي الورقيّة التي صنعتها،
تحلّق في السماء
ويفكّر للحظة:
ثمّة ملاك
يستعيد الحبّ.
إن مُتُّ، فليبقَ الأمل حيًّا
فليكن موتي قصّة!

خاتمة

الأمل شغفًا وعادةً

منتصبَ القامة أمشي
مرفوعَ الهامة أمشي،
في كفّي قصّفة زيتونٍ
وعلى كتفي نعشي
وأنا أمشي، وأنا أمشي...
قلبي قمرٌ أحمر
قلبي بستان،
فيه العوسج، فيه الريحان
شفتاي سماءٌ تمطر
نارًا حينًا
حبًّا أحيان.
في كفّي قصفة زيتونٍ
وعلى كتفي نعشي...

سميح القاسم – منتصبَ القامة

عندما ينام العالم، تخرج الوحوش.

تعيش العديد من الوحوش بيننا. وأولها، لامبالاتنا.

كما تقول مريم كابا Mariame Kaba، المعلّمة والناشطة الأميركيّة من أصلٍ أفريقي، الأمل انضباط. يمكن أن أضيف: الأمل يمكن، بل ينبغي، أن يصبح أيضًا استعدادًا متواصلًا. شيءٌ نعتاده ونعتبره لا غنى عنه. نتعلّق به بشدّة لدرجة أنّنا لا نستطيع الاستغناء عنه، وأن يكون فوق المنطق ولا يحتاج إلى تبرير.

حتى إن كان القول أسهل من الفِعل في هذه الحالة.

شباط/ فبراير 2025. عدتُ إلى منزلي في تونس، بعد تجربةٍ صعبة في ألمانيا. بسبب خوفي من الاعتقال، ومن ثمّ الاضطرار إلى الابتعاد عن عائلتي لفترةٍ لا أعلم متى تنتهي، وإدراكي لخطورة ما يحدث في أوروبا، شعرتُ باضطرابٍ في داخلي أعتقد أنّي لم أعرف له مثيلًا في حياتي. شعرتُ كأنني أعيش حالةً من اضطراب ما بعد الصدمة. وربما كنتُ كذلك بالفعل. في الحقيقة، كانت أعصابي متوتّرة. كنتُ أنفجر غضبًا من كلّ شيء، ووجدتُ نفسي أتجادل مع طفلي، وأرفع صوتي على أشياء تافهة.

لم أعد نفسي.

كان أفراد عائلتي ينظرون إليّ من دون أن يروني، من دون أن يجدوني.

ثمّ حدث أمرٌ ما. بينما كان زوجي يحمل الطفلين آخذًا إيّاهما في نزهة، وبينما كنت أواصل التجوال في المنزل جيئةً وذهابًا كلبوةٍ في قفصٍ تحاول استعادة هدوئها، لفت انتباهي كتابٌ صغيرٌ أثناء مروري أمام المكتبة في غرفة النوم. «السلام في كلّ خطوة»، للراهب الڤيتنامي ثيتش نات هانه Thich Nhat Hanh.

بدأتُ أُقلّب صفحاته بلا وعي، وشعرتُ بالأفكار تنساب داخل رأسي، كما لو أنّ تلك الصفحات راحت تُخاطبني فجأةً. حتى وإن قرأوه، قد لا يفهم الكثير من أصدقائي المقرّبين حماستي، لأنّه كُتِبَ بلغةٍ شديدة البساطة، التي قد تعرّضه للتلقّي ككتابٍ بسيط. لقد لامستني تلك الكلمات تحديدًا لأنّها كانت جليّة وساطعة. وتحدثت إليّ عن شيءٍ كان في تلك اللحظة مستحيلًا ولكنّه ضروري: فكرة استعادة ذلك السلام الذي أُناضل من أجله كلّ يوم. أُذكّر نفسي بأنّه قبل كلّ شيء، يجب أن تكون التغيير إن كنتَ ترغب في ذلك. وأنّك لا تستطيع تغيير أيّ شيء إن لم تُغيِّر نفسك. وأنّك لا تستطيع العمل من أجل السلام في العالم إن لم تتمتّع أولًا بالسلام الداخلي. إن لم تكن صانعًا للسلام بكلّ ما تعنيه الكلمة.

إنّه مفهومٌ مألوف لديّ، بل وعزيزٌ عليّ، نظريًّا على الأقل. في الواقع، أثناء قراءتي لهذا الكتاب، تذكّرتُ خطابًا ألقيته عام 2023 في افتتاح مسيرة السلام

في أسيزي*، حيثُ دعاني صانعو وصانعات السلام، وقلتُ ما معناه: «إن لم نبدأ بأنفسنا، فماذا يبقى لنا؟ يُبنى السلام بالسلام، لا بالتفكير في الحرب، لذا يجب أن نغيّر طريقة عيشنا ورؤيتنا للأمور. لماذا يُعلّم الأطفال إدارة الصراعات بدلًا من استعادتها؟ لماذا يجب إدارة الصراعات بدلًا من تجنّبها؟ ماذا حدث للدبلوماسيّة؟ أين ذهبت؟».

بيد أنّ إحلال السلام في حياتنا اليوميّة، وجعل هذا الأمل شغفًا، هو أعظم التحدّيات: وفي هذا – كما يشرح الكتاب الصغير الذي استولى على انتباهي ببراعة في ذلك اليوم العصيب – لا يوجد، ولا يمكن أن يكون مِن تمييزٍ بين نشاطنا السياسي وحياتنا في هذا العالم.

أغرقتني كلمات ثيتش نات هانه في الأفكار. كيف كان وقع خطواتي على أرض غرفة الجلوس في تلك اللحظة تحديدًا؟ بأيّ غضب، وبأيّ عنفٍ كنتُ أضرب الأرض التي تحملني؟ لأول مرّة منذ أيّام طويلة جدًا، تذكّرتُ تمرين اليوغا وأخذتُ نفسًا عميقًا. أسندتُ كتفيَّ إلى الأريكة، وأغمضتُ عينيّ للحظة، ثمّ عدتُ إلى القراءة.

عندما كنت أعيش في ڤيتنام، قُصفت العديد من قرانا. وكان عليّ، مع إخوتي وأخواتي في مجتمعي الرهباني، أن نقرّر ما يجب فعله. هل نستمرّ في ممارسة التأمّل في أديرتنا، أم نغادر قاعات التأمّل ونساعد ضحايا القصف؟ بعد تفكيرٍ عميق، قرّرنا القيام بالأمرين معًا. الخروج إلى العلن لمساعدة الناس، والتركيز على وعيٍ ما سنقوم به. أطلقنا على ذلك اسم «البوذيّة المشتبِكة». يجب أن يكون الوعي جزءًا من الأمر. بعد الرؤية، يجب على المرء أن يعمل. وإلّا، فما فائدة الرؤية؟ يجب أن ندرك المشاكل التي يُبتلى بها العالم. عندها، سيساعدنا الوعي في فهم ما يجب فعله، وما لا يجب فعله، ليكون عملنا ذا منفعة. إذا ركّزنا على تنفسنا، وواصلنا الابتسام كممارسة، حتى في الأوقات الصعبة، فسيستفيد الكثير من الناس والحيوانات والنباتات من أفعالنا.

* مسيرة السلام في أسيزي هي فعالية سنوية تجمع آلاف المشاركين من مختلف أنحاء العالم، بهدف تعزيز قيم السلام، الحوار بين الأديان، والتعايش السلمي. تنطلق المسيرة من مدينة أسيزي التاريخية التي ترمز إلى السلام بفضل تراث القدّيس فرنسيس الأسيزي.

هل تدلّك أمّنا الأرض كلّما لمستها بقدميك؟ هل تزرع بذور الفرح والسلام؟ أحاول القيام بذلك في كلّ خطوة. وأعلم أنّ أمّنا الأرض تكنّ لذلك تقديرًا عميقًا. السلام في كلّ خطوة. هل نحن مستعدّون لمواصلة الرحلة؟

السلام هو أيضًا الوعي بما نفعله في كلّ لحظة. عندما نأكل، عندما نتحرّك، عندما نفكّر، عندما نكون مع أطفالنا. كم مرّةٍ يسقط الحاضر مِن أفعال يومنا؟ كم مرّةٍ نندفع بلا هدف، أو نترك أنفسنا ضحيّةً لتشتّت الانتباه بشيءٍ يبدو أهمّ ممّا نفعل؟ هذه هي الأسئلة التي أعادني إليها الكتاب الصغير. وجدته يدعوني، ولو لمجرّد أخذ بعض الأنفاس من دون عناء. أعاد انتباهي إلى الهواء الذي يدخل جسدي ويخرج منه.

في تلك اللحظة، تذكّرت أمسيةً شاركت فيها قبل بضع سنوات، عندما كنت في روما لحضور مؤتمر. في ذلك الوقت – كانون الأول/ ديسمبر 2023 – كانت الإبادة الجماعيّة جاريةً بالفعل، وبمواجهة خوفي، قلت: «سيحلّ السلام يومًا ما في فلسطين، ولكن بأيّ ثمن؟ أنا مرعوبة من الآتي. مع كلّ ما يعانيه الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وغزّة، لا أجرؤ على تخيّل العنف الذي قد يُطلق ضدّ الإسرائيليّين». رفع رجلٌ من الحضور يده طالبًا الكلام.

كان وسيم دبش، وهو بروفسور إيطالي من أصل فلسطيني، وأستاذ التاريخ في جامعة «لا ساپينزا» بروما، هو من أجابني: «لا. لن يكون هناك عنف. إن توقّف كلّ هذا، وعندما يتوقّف، وإن لم يعد هناك عنف، فلن يستتبع ذلك عنفًا. لأنّنا نحن الفلسطينيّين لسنا مدفوعين برغبة في الانتقام، بل بالعدالة. منذ عام 1948 حتى اليوم، حاولنا، كما فعلنا من قبل، العودة إلى فلسطين والعيش بسلام. ومن الواضح أنّه كانت هناك ردود فعل على القمع، وأعمال مقاومة، عندما فاضت الكأس تمامًا. لكن غالبيّة الفلسطينيّين لم يشاركوا إطلاقًا في أعمال عنفٍ ضدّ الإسرائيليّين. بالنسبة إلى معظمنا، أن تكون متديّنًا لا يعني أن تكون متعصّبًا؛ بل يعني، بدلًا من ذلك، أن يكون الله في داخلنا، أي حبّ الحياة، مع احترام ما بقي منها وما فات، بوصف هذا الحبّ أمرًا يجب أن نحمله في هذه الحياة، لا كشيءٍ قد يرغب المرء في الموت من أجله».

بالنسبة إليّ، كان ذلك كشفًا بالغ الأهمّية. أتاح لي فرصةً لأفهم أنّه حتى هناك، في ذلك المؤتمر، ومن دون أن أُدرك ذلك، كنتُ قد أحضرت عدستي الغربيّة المُعتادة على التفكير من منظور قانون الانتقام. إلّا أنّ كلمات ذلك المعلم الحكيم طمأنتني، وعلّمتني أيضًا شيئًا مهمًّا عن معنى الأمل.

شيءٌ آمل أن أكون نقلته أيضًا إلى أولئك الذين قرأوا هذا الكتاب، مقدّمةً تدعو للتفكير بأنّ كلّ واحدٍ منا يُمكن أن يكون صوتًا يحمل الأمل، ويتبنّاه يومًا بعد يوم كموقف. أن يصير هذا الأمل عادةً حميدة لا نستطيع الاستغناء عنها.

يمكنك أن تكون صحافيًا، أو خبّازًا، أو محاميًا. لا يهمّ ما تفعله، بل كيف تفعله، وكيف تُقدّم نفسك. ذلك أنّه – كما يكتب ثيتش نات هانه – ما فائدة الرؤية إن لم يتبعها فِعل؟

الآن، وقد التقى كلّ من سيقرأ هذه الصفحات بالأشخاص الذين علّموني أن أفتح عينيّ لكي أرى الأمور بوضوح، وأن أتحرّك لأجل فلسطين، آمل أن يبعث الكتاب على الأمل. وأن يتبنّى كلّ قارئٍ فكرةً مفادها أنّها يمكنه، هو نفسه، أن يكون نورًا، دائمًا، وفي أيّ ركنٍ كان على هذه الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فرانسِسكا ألبانيزي
آذار/ مارس 2025

شكر

في بداية هذا الكتاب، ذكرتُ أنّني اخترتُ عشرة أشخاص ليكونوا محور القصص، لأنّني تعلمتُ من كلٍّ منهم شيئًا جوهريًّا عن فلسطين. الأولى هند، والثاني أبو حسن. الثالث جورج، والرابع آلون، والخامسة إنغريد. السادس غسّان، والسابع إيال. الثامنة مَلَك، والتاسع غابور. أما العاشر فهو ماكس. شريك حياتي، والشخص الذي وطئت قدماي فلسطين معه لأول مرّة، والذي قرّرتُ معه مغادرة فلسطين بعد ثلاث سنوات. لكنّ فلسطين هكذا... يمكنك أن تغادرها، ولكن بالنسبة إلى مَن زارها وشاهدها وعاشها، سيحملها في داخله إلى الأبد. حياتي دليلٌ على ذلك.

في أيّامنا الأولى في القدس سافرنا أنا وماكس كثيرًا. تنقّلنا باستمرار جاهدين في البحث، في محاولة فهم تلك الأرض. وللمفارقة، كانت حدودها غير مرئيّةٍ بالنسبة إلينا. تتبّعنا خطى فلسطين التاريخيّة... في تلك الفترة ذهبنا أولًا إلى الناصرة، وزرنا الجليل – أي المنطقة الساحليّة – من حيفا إلى يافا، ثمّ اتّجهنا جنوبًا، حيث الصحراء. كلّ هذا أصبح الآن جزءًا من دولة إسرائيل. جلنا في تلك الأرض، تعلّمنا أن نألف جروحها. جروحٌ ظاهرة، محفورة على الحجر. في أيّام الأحد، كنّا نتمشّى معًا في الغابة التي تسيّج المدينة، هناك على التلال المحيطة بالقدس، التي أصبحت الآن جزءًا من إسرائيل. وتحت الغابة تستريح قرية عين كارم، بمنازلها الحجريّة المربّعة التي تحتضنها أشجار الحمضيّات والياسمين. في تلك الجولات، تعرّفنا إلى العديد من الأصدقاء الذين أقاموا معنا لفترةٍ طويلة من حياتنا. وهناك بدأنا نفهم ما يقصده الفلسطينيّون بقولهم... «حتى الحجارة هنا تروي قصّتنا». على سبيل المثال، أثناء سيرنا في الغابة، كنّا غالبًا ما نصادف أنقاض منازل، وشظايا الجدران. لم تكن سوى بقايا قرى فلسطينيّة هُجّرت ودُمّرت خلال نكبة عام 1948، وفُرِشَت فوقها سجّادات من الأشجار. كثيرٌ من تلك الغرسات كان هبةً من يهود الشتات لدولة إسرائيل، التي تقدّم نفسها للعالم كمنارة، ومأوىً لجميع اليهود.

شيئًا فشيئًا اكتشفنا تلك الأرض. وبعد انتقالنا إلى القدس الشرقيّة بفترة، اندلعت الاحتجاجات في حيّ الشيخ جرّاح، في المنطقة التي كنّا نسكنها، على تلّةٍ تقع في بقعةٍ مِن المدينة كانت جميلة بقدر ما كانت مدمّرة. لكن القدس الشرقيّة بأسرها تعيش وضعًا كارثيًّا. يدفع الفلسطينيّون ضرائب باهظة، لكنّهم لا يحصلون إلّا على الحدّ الأدنى من الخدمات في المقابل. تُشكّل رسوم جمع النفايات والكهرباء 13% من المدفوعات؛ حتى إنّنا نحن أيضًا دفعنا ضريبةً باهظة للبلديّة. وفي الجهة المقابلة من الشارع، سكنت عائلاتٌ فلسطينيّة عديدة، مثل عائلة صديقنا جورج. طُرد العديد منهم مِن منازلهم أمام أعيننا. في الوقت نفسه كان المستوطنون يصلون، بدعمٍ من منظمات مثل «عَطيرِت كوهانيم» Ateret Cohanim، ومؤسّسة «إلعاد عير دافيد» Elad-Ir David، و«صندوق أرض إسرائيل». شنّوا معارك قانونيّة شاملة ضدّ السكّان الفلسطينيّين، مُقدّمين سندات ملكيّة مشكوكًا في صحّتها تعود إلى عهد السلطنة العثمانيّة. ومع ذلك، قبلت المحاكم الإسرائيليّة تلك الدعاوى، وسمحت لهم بإخلاء الفلسطينيّين الذين، لعدم وجود مأوى آخر لهم، انتهى بهم الأمر في المنازل الصغيرة التي بنتها الأونروا، على أرضٍ أدارها الأردنيّون بين عامي 1949 و1967. رأينا مشاهد مأساويّة. عائلات تطردها، حتى في منتصف الليل، الشرطةُ التي تُلقي كلّ شيءٍ خارج المنزل... المطابخ والطاولات والأسرّة. جاء بعض الإسرائيليّين للاحتجاج، لكنّ عددهم كان قليلًا جدًّا. أما الفلسطينيّون، فلم يُريدوا احتجاجات بسيطة، بل أفعالًا ملموسة، وخاصّةً من الإسرائيليّين اليهود؛ أولئك الذين ينتخبون. أرادوا أفعالًا من أولئك الذين لهم حقوق في إسرائيل، والذين لا يعتقدون أنّ مجرد الاحتجاج مرّةً واحدة أسبوعيًا بالدفوف واللافتات، في حيّ الشيخ جرّاح، سيكون كافيًا. هذا ما قاله الفلسطينيّون علنًا عندما رفضوا الانضمام إلى تلك الاحتجاجات عام 2010. وهكذا، وجدنا أنفسنا نحن أيضًا وسط هدير التظاهرات، التي شارك فيها ماكس بنشاط (لم أشارك بسبب عملي مع الأمم المتحدة الذي يمنعني عن ذلك). وهكذا، التقى ماكس بالعديد من دعاة السلام من تل أبيب. حافظنا على صداقتنا مع البعض منهم، رغم أنّ لقاءنا أصبح مستحيلًا الآن.

بعد سنوات من التعارف والحديث عن أمورٍ كثيرة، رأيتُ في القدس روح ماكس السياسيّة والنضاليّة وهي تتجلّى وتتجسّد. أذهلني هذا الجانب فيه، فقد أثبت أنّه شخصٌ قادرٌ على إثبات نفسه عندما ينخرط في المسائل. بحدّة ذكائه، وبكونه مفكّرًا نزيهًا أولًا وقبل كلّ شيء. تشاركنا أنا وهو ذلك الشعور بعدم التسامح مع الظلم. في الواقع، كان كثيرًا ما يذهب مع الإسرائيليّين من منظمة «تعايش»، وهي منظمة تعمل كوسيط بين المستوطنين والفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة، ويرافق المنتمين إليها الفلسطينيّين بأجسادهم وحياتهم في أنشطتهم اليوميّة – كزراعة الأرض أو رعي الماشية – بهدف حمايتهم من الهجمات، وتوثيق أيّ انتهاكات، وردعًا للعنف. كان غالبًا ما ينضمّ إليهم أيّام الجمعة، أو يشارك في احتجاجات نعلين وبلعين. في أحد الأيّام، عاد من زيارةٍ لبستان زيتون حاملًا سلّة ممتلئة بكرات مطاطيّة سوداء. لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. كانت قنابل الغاز المسيّل للدموع، وقد أطلقها الجيش الإسرائيلي على المتظاهرين. قال لي ساخرًا كعادته: «عيد الميلاد آتٍ. سنزيّن الشجرة».

كان بإمكان ماكس أن يكتب كتابًا عن السنوات التي قضيناها في القدس، وعن تجربته مع حركة المقاومة السلميّة الإسرائيليّة. لقد رأى في تلك الحركة البذرة الأساسيّة لشيءٍ مُقدّر له أن يسلك مسارين منفصلين ومتوازيين. أحدهما للفلسطينيّين، والآخر للإسرائيليّين الذين ما زال أمامهم طريقٌ طويل ليقطعوه وحدهم قبل الاندماج في الطريق الواحد. فبالنسبة إلى العديد من الإسرائيليّين، كان الشعور بالامتياز قويًّا لدرجة أنّهم لم يتخلّوا عنه من أجل الاعتراف بالفلسطينيّين كشعبٍ حرّ.

أتذكّر لحظاتٍ جميلةً من حياتي في القدس.

كانت لدينا العديد من المراجع في المدينة. محلّ الفلافل المفضّل، والمكتبة التعليميّة حيث التقى ماكس بجورج، وحتى الآن ما زال زوجي يتذكّر أصحابها. ذلك أنّه كان يعقد اجتماعات عبر الإنترنت في الطابق العلوي، وعندما يتحدّث، لا صوت يُسمع إلّا صوته! مع ذلك، كانت فترة إقامتي في القدس ثقيلة. من الصعب العيش في نظامٍ يقوم على الفصل العنصري، الأمر أشبه بالغرق. القدس، كبقيّة الضفّة الغربيّة، مدينةٌ دستوبيّة.

في كلّ مرةٍ كنّا نستقبل فيها ضيوفًا، كنّا نستعيد معاناة الاحتلال. إلى أين كنّا نأخذ ضيوفنا؟ بالتأكيد ليس إلى تل أبيب أو إلى الناصرة. كنّا نأخذهم لرؤية بؤرة الاحتلال: القدس. البلدة القديمة والجزء المعزول بالجدار. بيت لحم التي مزّقها الجدار. الخليل التي اجتاحها المستوطنون العنيفون. البدو النازحون من كلّ مكانٍ إلى كلّ مكانٍ حول وادي الأردن، ثمّ نابلس، جنين، طولكرم، ومخيّم بلاطة. كم من أصدقائنا وأقاربنا الذين زارونا غيّروا رأيهم بشأن إسرائيل وفلسطين. وصل بعضهم بآراءٍ متحيّزة نوعًا ما، وكانوا مدافعين بقوّة عن إسرائيل، حيث لم يكن لديهم أيّ تعاطف مع الفلسطينيّين. وكانوا ينظرون إليهم على أنّهم مثيرو شغب و«إرهابيّون». لم يعد أحدٌ إلى إيطاليا بنفس الرأي تجاه إسرائيل. كان لدى بعض أصدقائنا ردود فعلٍ هستيريّة: «ما الذي يهمّني في الخليل لأذهب إلى هناك؟ لم آتِ إلى هنا لرؤية هذه الوحوش! لكن لماذا تأخذونني إلى حيث كلّ هؤلاء الجنود! أنا خائف، بين كلّ هؤلاء المسلحين! أنا خائف! أنتم لستم طبيعيّين!».

بعد تكرّر مشاهد مماثلة، وفي مرحلةٍ ما، قلّلنا قليلًا من حركة الأشخاص الذين كنّا نأخذهم في جولات حول المناطق الرئيسيّة التي يسيطر عليها الاحتلال. لكنّ ماكس وأنا واصلنا زيارة فلسطين. حتى إنّنا وجدنا مساحات خاصّة يمكننا التنفّس فيها، حتى في زحمة الاستعمار المستمرّ. على سبيل المثال، سبسطية. إنّها قريةٌ صغيرة تقع على تلال الضفّة الغربيّة، على بُعد بضعة كيلومترات من نابلس. عند الوصول، يصادفك منظرٌ طبيعي تتناثر حوله الأعمدة الرومانيّة، وبقايا المعابد، ومدرّج روماني مختبئ بين أشجار الزيتون، وكنيسةٌ صليبيّة أمست في حالة خراب. وفي وسط القرية، بين البيوت الحجريّة، يوجد ما يُعتقد حسب التقاليد أنّه قبر يوحنّا المعمدان. كان ذلك المكان الساحر ملاذنا، بآثاره الرومانيّة، والمدينة القديمة التي أسهم في ترميمها، إلى حدّ كبير، زوجان من المهندسين المعماريّين الإيطاليّين – الفلسطينيّين، حوّلاها إلى أول نموذجٍ لبيوت الضيافة الواسعة التي لم نكن أنا وماكس قد رأينا مثلها إطلاقًا. أتذكّر بيت الضيافة والمنزل الصغير الذي كانت تُعقد فيه دورات الفسيفساء الحرفيّة، والذي يقع في قلب القرية الصغيرة. لم يكن بإمكان السكّان الفلسطينيّين فعل الكثير، لأنّ المنطقة بأكملها كانت تحت السيطرة الإسرائيليّة، ولم يسمحوا بأيّ خططٍ للتطوير أو الإنعاش. لكن الجزء الذي

يديره الفلسطينيّون من القرية استحال شبكةً من بيوتٍ صغيرة تفيض دفئًا، بدا طليعيًا في المقاومة. قبل مغادرة فلسطين، كانت رحلتنا الأخيرة... إلى هناك. وكان حملي بليلى قد وصل إلى شهره الخامس.

الآن، عندما أفكّر في سبسطية ينقبض قلبي، لأنّ الإسرائيليّين يدمّرونها.

أتذكّر أيضًا الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزّة عام 2014، الذي قُتل فيه ألفا شخص، بينهم أكثر من خمسمئة طفل. كنّا في واشنطن.

قضيت ساعات وأنا أضمّ ليلى إلى صدري، وأقرأ الأخبار الآتية من غزّة. كم من زملاء لنا في الأونروا قُتلوا، وكم من الدمار قد وقع! آنذاك، بدا الأمر لا يُصدَّق بالنسبة إلينا. وفي تلك الأيّام تحديدًا، كان ماكس هو الذي شجّعني على الموافقة على الاقتراح الذي كان زميلي السابق ليكس تاكنبرغ يقدّمه منذ عامين، أي مشاركته في تأليف كتاب جديد عن اللاجئين الفلسطينيّين. قال لي ماكس: «لا تقلقي، إن وجدت التمويل، فهذا جيّد. وإن لم تجديه، فلا بأس. فلينصبّ تركيزك على ما تشعرين بأنّه يعود بالمنفعة، شيء يخدم غرضًا نبيلًا. لأنّ من المهم حقًا فهم قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين على نحوٍ أفضل».

كانت الشكوك تملأني، ولكنّي قلتُ حينها: «أتعلم؟ دعني أفكّر في الأمر قليلًا. في الحقيقة، لا أعرف كيف أكتب كتابًا، لكنّني سأكتشف ذلك، سأتعلم».

دعمني ماكس كثيرًا خلال تلك الفترة، وأيضًا خلال تحضير الكتاب، عندما شعرتُ – لكوني نوعًا ما أعاني من الوسواس القهري – بأنّني لا أستطيع التخلّي عن هذا الكائن الذي كان ينمو مع طفلي، ويستهلك الكثير من وقتي ومساحتي، وكمّيةً هائلة من طاقتي العقليّة. جزءٌ كبير من هذا الكتاب كُتِبَ بين واشنطن وإندونيسيا. ولطالما مازَحَنا أصدقاؤنا قائلين: «من الأسهل رؤية فرانشِسكا من دون طفلها وطفلتها، لكن ليس من دون جهاز اللابتوب...».

لا بدّ من القول إنّني لم أكن بارعة في رسم الحدود بين العمل والحياة الشخصيّة. وقد انهارت هذه الحواجز تمامًا عندما بدأتُ ولايتي كمقرّرة خاصّة للأمم المتحدة عام 2022.

في البداية، كان الأمر صعبًا للغاية على حياتنا الأسريّة. حتى ذلك الحين، ورغم وظيفتي المُرهِقة التي كانت تقتضي منّي أيضًا السفر كثيرًا، كنتُ دائمًا أعتني

بالطفلين – من المدرسة إلى ملابس النوم – وبالمنزل، وبالأشياء المشتركة، من التسوّق إلى العطلات. فجأةً، لم أعد قادرةً على الاهتمام بالكثير، سوى نفسي.

خلال الصيف الأول الذي قضيناه في صقلية، كرّستُ وقتي لكتابة التقرير عن «الحق في تقرير المصير»، حيث لجأتُ إلى تِراس ليدو دي تشيلوپي للكتابة، بينما كان ماكس يقضي الوقت مع جُرْدانو وليلي، وهم يستجمّون ويستمتعون بأحضان الأقارب والأصدقاء. وكان الصيف الثاني مشابهًا. أجريتُ مقابلات مع أطفال فلسطينيّين تحضيرًا لتقريرٍ أعدّه عن الطفولة.

ثم جاء السابع من أكتوبر، ليختفي العالم كما عرفنا وعشناه من قبل، تمامًا وفجأة. لأول مرّة، استطعنا أخذ إجازة لمدّة ثلاثة أيّام مع طفلينا في منتجعٍ قرب تونس، بعد تقديم تقريري عن القاصرين. كنت قد عدتُ لتوّي من لندن، حيث ألقيتُ محاضرة مهمّة بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة إدوارد سعيد (التي اخترنا لها ملصقًا من رسوم مَلَك مطر، الفنّانة نفسها التي رسمت اللوحة التي تتصدّر غلاف هذا الكتاب). أتذكّر ذلك الصباح الذي حمل نكهة الصقيع في طيّاته، عندما أيقظتنا مكالماتٌ هاتفيّة مُتواصلة، وأجبرتنا على النهوض من الفراش. سارعنا بالبحث عن جهاز التحكّم عن بُعد للوصول إلى قناة الجزيرة. أمام التلفزيون، في السادسة صباحًا، جلسنا نحاول فهم ما حدث. كنّا كلانا عاجزين عن الكلام.

«ماذا فعلوا؟ كم من الناس... كم من الأطفال قُتلوا؟». منذ الساعات الأولى، أتذكّر الصدمة العارمة، والشعور التامّ بعدم الفهم لما كان يحدث. أتذكّر الخوف ممّا كان وما سيكون، وتوسّلات ماكس لإخراج الأطفال من الغرفة. بحلول الساعة التاسعة، استعدتُ السيطرة على الموقف. كنتُ أتحدّث عبر الهاتف بلا انقطاع، وبدأتُ أردّ على طلبات الصحافيّين. كانت الكلمات الأولى التي نطقتُ بها في تلك الأيّام، والتي ما زلتُ أسمع صداها يتردّد في داخلي: «آمل أن يحتضن العالم الإسرائيليّين والفلسطينيّين بروحٍ ملؤها الرحمة والحكمة. عسى أن يتمكّن الطرفان من التلاقي في هذا الوقت الذي يهيمن فيه الألم الشديد، وأن يفهم كلٌّ منهما صدمة الآخر». للأسف، لم يتقبّل أحدٌ في الطيف السياسي هذه الكلمات.

في هذه الأثناء، واصلتُ أنا وماكس تجربة كلّ شيء معًا، بما في ذلك كلّ ما يتعلق بفلسطين.

خلال العام ونصف العام الماضيين – حقبة الإبادة الجماعيّة – تغيّر ماكس مجدّدًا. تولّى إدارة شؤون الأسرة، وأصبح مصدر دعمي الأول. صحيح أنّه كان يردّد بعض التعليقات اللاذعة في البداية، من نوع «انظري... لديّ عملٌ أيضًا»، أو «أنتِ لستِ هنا أبدًا»، عندما كنتُ أتغيّب عن مدرسة الأطفال، على سبيل المثال. لكن مع مرور الوقت، تغيّر ماكس كثيرًا. أحيانًا يغضب لأجلي، لأنّني أعمل كثيرًا، ولأنّني لا أضع حدودًا لأيّ شيء أو لأيّ شخص. لكنّه دائمًا ما يدعمني. حتى عندما يرى تغريداتي استفزازيّة للغاية.

في الواقع، ماكس هو من يقول لي أحيانًا: «هيّا، هيّا، واصلي الصراحة، لأنّكِ عندما تكونين صريحةً جدًّا، يحبّكِ الناس أكثر».

من أجل ذلك، أنا ممتنّة لدعمه.

وأشكره أيضًا على تحليله الاقتصادي، وعلى ما كتبه عن فلسطين. لا أنسى أنّه في أحد آخر التقارير التي كتبها سَلفي، مايكل لينك، للأمم المتحدة عام 2021، عندما لم يكن يعلم بوجودي، انتقد البنك الدولي بشدّة لمساعدته في تطبيع الاحتلال الإسرائيلي. وأضاف أنّ تقرير البنك الدولي الوحيد الجدير بالاهتمام هو التقرير المتعلق بتكاليف الاحتلال في الضفّة الغربيّة على الاقتصاد الفلسطيني. ولم يكن هذا سوى أول تقريرٍ عمل عليه ماكس عندما عمل في البنك الدولي في 2012.

شكرًا لك يا ماكس، فأنت دائمًا غنيّ بالأفكار. شكرًا لك على لطفك وكرمك. ولأنّه لا يمكنني أن أتحدّث عن فلسطين من دون الحديث عنك، أو من دونك.

شكرًا لك على الدموع التي ذرفتها في السنوات الأخيرة، وعلى تلك التي ساعدتني على عدم ذرفها، بقوّتك وذكائك الحادّ. شكرًا لكلّ الدعم الذي قدّمته لي خلال هذه السنوات العصيبة، وتشجيعك الدائم على المثابرة. حتى في مواجهة رعب الموت الذي، رغم بُعده الجسدي، اجتاح حياتنا بقسوةٍ وحوّل كلّ ليلةٍ إلى عذاب وعلى امتداد شهورٍ طويلة. شكرًا لك على المرات العديدة التي ساعدتني فيها على تحويل الحزن والغضب إلى عزم، ممّا سمح لي بالتصرّف بحزم، ومن دون تراجع. شكرًا لك على مساعدتي في رؤية وفهم، والبدء بكشف طبيعة النظام الذي

نحاربه معًا، والذي يُشبه المافيا، من أجل بناء حاضر لا نخجل منه، وتجنّب تدمير أو رهن مستقبل أطفالنا وغيرهم من الأطفال، الذين سيبقون دائمًا أطفالًا.

شكرًا أيضًا لجميع الأرواح الجميلة التي التقيتها على مدار هذه السنوات. كلمات الشكر لا تكفي... أحملكم معي. إلى فريقي من «صانعي السلام» الدؤوبين: سارة ترويان Sara Troian التي كرّست نفسها جسدًا وروحًا وبكلّ إخلاص لولايتي لمدّة عامين. العامان الأولان اللذان كانا غامضين لكنّهما كانا حاسمين. أحبّكِ يا سارة، ويسعدني أن أعرف أنّكِ في مكان آخر تقومين بأشياء رائعة. شكرًا، لأقرب المعاونين، أولئك الذين لولاهم لما كان الكثير ممّا نراه في الخارج ممكنًا. ميليسا أودونيل Melissa O'Donell التي كانت ركيزة أستند إليها منذ الأشهر القاتلة التي بدأت فيها الإبادة الجماعيّة؛ وأمل لوباني، التي لا يوازي صبرها ولطفها شيءٌ إلا إخلاصها العنيد في عملها. وأخيرًا وليس آخرًا تيريزا راسيلا Teresa Rasella التي تُجسّد ملاكًا حارسًا لا ينقصه شيء. لكم جميعًا، أقول: لا أجد الكلمات الكافية لأشكركم. هيّا بنا نمضي قدمًا، فالطريق لا يزال طويلًا.

إلى الباحثين، وزملائي في الجامعة، وخاصّةً نيكولا پروجيني Nicola Perugini من جامعة إدنبرة، الذي يُمثل، إلى جانب لويجي دانييلي Luigi Daniele من جامعة نوتنغهام، مصدر إلهام ودعم دائمين.

شكرًا للمجتمع المدني الفلسطيني، الواقع تحت الاحتلال والذي في الشتات – أنتم كثر، لكنّني أشكركم جميعًا – وفي إسرائيل، لعاموس غولدبرغ وإيتاي إيشتاين. دانيال لايڤي لم يعد في إسرائيل، لكنّه بالنسبة إليّ يُمثّل أفضل ما فيها.

أشكر عائلتي الكبيرة من الأصدقاء، وخاصةً أولئك في تونس، الذين دعموني وأحبّائي كثيرًا خلال هذه الأشهر الصعبة. ماريا مايا نيكولي، بوديمير بودا ميليتش، إيمان سيمون، أحمد شهاب الدين، ڤيتوريا كاپريزه، ستيفانو كوْزّاني، منال وردة، وأصدقاءنا التونسيّين، المدافعين الأعزّاء عن حقوق الإنسان.

كلّ الذين التقيتُ بهم في الطريق. أولئك الذين بدأ الطريق معهم. من أريانو المحبوب فصاعدًا: أمّي ليبيرا، أخي جوزيپه، وأختي لِلا Lella. أتقدّم بأسمى آيات الشكر لأمّي على كلّ ما قدّمته لي، على كلّ البذور الصغيرة التي غرستها فيّ. علّمتني الاستقلاليّة، وهو الدرس الأول من دروس الحريّة.

طفليّ ليلى وجُوردانو، ومعهما تلك الدهشة المتأصّلة في قلبي بوصفي أمًّا لهما، وندمٌ على ثقلٍ ألقيته على أكتافهما الصغيرة خلال السنوات الأخيرة، التي اتسمت بالغياب والعذاب الناتج عن الإبادة الجماعيّة، والذي لم أستطع دائمًا إخفاءه في مكتبي.

وأخيرًا وليس آخرًا، أنجيلا لومباردو، مارينا ميركوريالي، ماريانا لوي، أديلي إيانوني، واستوديو ليتيرا، الذين ساعدوا هذا الكائن الذي تحملونه بين أيديكم على المجيء إلى هذا العالم. لولا أسئلتهم ونصائحهم وعنايتهم الصادقة، لما أبصر هذا الكتاب العزيز على قلبي النور.

المراجع*

مكتبة
t.me/soramnqraa

هند

Ashly J., Sheikh Jarrah: When my enemy is my neighbour, Al Jazeera, 3 ottobre 2016; aljazeera.com/news/20163/10//sheikh¬jarrah¬when¬my¬enemy¬is¬my¬neighbour

Defence for Children International, Two¬year¬old Palestinian boy shot in head by Israeli forces dies in hospital, 5 giugno 2023; dci¬palestine.org/two_year_old_palestinian_boy_shot_in_head_by_israel_forces_dies_in_hospital

Forensic Architecture, The Killing of Hind Rajab, 21 giugno 2024; forensic¬architecture.org/investigation/the¬killingof¬hind¬rajab

OCHA (Ufficio delle Nazioni Unite per il coordinamento degli aiuti umanitari), Displacement of Palestinian herders amid increasing settler violence, 21 settembre 2023; www.ochaopt.org/content/displacement¬palestinian¬herdersamid¬increasing¬settler¬violence

OCHA, Humanitarian situation update #275 Gaza Strip, 26 marzo 2025; reliefweb.int/report/occupied¬palestinianterritory/humanitarian¬situation¬update¬275¬gaza¬strip

Rapporto della Relatrice speciale sulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/7820) 545/ ottobre 2023); docs.un.org/en/A/78545/ (in inglese).

UNICEF, How many children live in the State of Palestine?; data.unicef.org/how¬many/how¬many¬children¬under18¬are¬there¬in¬the¬state¬of¬palestine

للتعمّق في الموضوع:

Lyons J., Cold stone justice, ABC News, 10 febbraio 2024; www.abc.net.au/news/2014¬02¬10/stone¬cold¬justice¬promo/5245064

Wachsmann D., Two kids a day, docu¬film, 2022.

أبو حسن

Amnesty International, Israel's apartheid against Palestinians: Cruel system of domination and crime against humanity, 1 febbraio 2022; www.amnesty.org/en/documents/mde152022/5141//en

* جميع الروابط المذكورة تم التحقق منها بحلول نيسان/ أبريل 2025.

«Arbitrary deprivation of liberty in the occupied Palestinian territory: the Palestinian experience behind and beyond bars», Rapporto della Relatrice speciale sulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/HRC/5328) 59/ agosto 2023); docs.un.org/en/A/HRC/5359/ (in inglese).
OCHA, Dignity denied: Life in the settlement area of Hebron city, febbraio 2020; www.ochaopt.org/content/dignity¬denied¬life¬settlement¬area¬hebron¬city
OHCHR (Alto commissariato delle Nazioni Unite per i diritti umani), «Tragedy foretold and stain on our collective humanity»: Special Rapporteur warns of mass ethnic cleansing in the West Bank, 18 marzo 2025; www.ohchr.org/en/ press¬releases/202503//tragedy¬foretold¬and¬stain¬ourcollective¬humanity¬special¬rapporteur¬warns
Sand S., L'invenzione del popolo ebraico, Mimesis Edizioni, Udine 2024.
Statuto di Roma della Corte penale internazionale (adottato il 17 luglio 1998, entrato in vigore il 1° luglio 2002), 2187 UNTS 3; treaties.un.org/doc/Treaties/199833%20¬19980717%2006/07/PM/volume¬2187¬I¬38544¬English.pdf (in inglese).
«United Nations Standard Minimum Rules for the Treatment of Prisoners (the Nelson Mandela Rules)», Risoluzione adottata dall'Assemblea generale il 17 dicembre 2015, UN Doc. A/RES/70175/; docs.un.org/en/A/RES/70175/ (in inglese).
Wiles R., Remembering the Ibrahimi Mosque massacre, Al Jazeera, 24 febbraio 2014; www.aljazeera.com/gallery/201424/2//remembering¬the¬ibrahimi¬mosque¬massacre

للتعمّق في الموضوع:

Theroux L., The settlers, documentario, 2025; www.youtube.com/watch?v=DUeAqykYrGM

جورج

Albanese F., Takkenberg L., Palestinian Refugees in International Law, Oxford University Press, Oxford 2020.
Assemblea generale delle Nazioni Unite, «Resolution 181 (II) B: Future constitution and government of Palestine», 29 November 1947, UN Doc. A/RES/181(II), sezione B; docs.un.org/en/A/RES/181(II) (in inglese e francese).
Corte internazionale di giustizia, Parere consultivo sulle Conseguenze giuridiche della costruzione di un muro nel territorio palestinese occupato, 2004; www.icj¬cij.org/case/131?utm_source=chatgpt.com
Muna El¬Kurd: «You are Stealing my House», video pubblicato da UN Exhibits il 23 novembre 2022; www.youtube.com/watch?app=desktop&v=SAEOVWSBzao

Parenzo S., Irruzione all'Educational Bookshop, libri confiscati e proprietari in manette, «il manifesto», 11 febbraio 2025; ilmanifesto.it/irruzione¬alleducational¬bookshop¬libri¬confiscati¬e¬proprietari¬in¬manette

للتعمّق في الموضوع:

East Jerusalem: Sharing our house with Israeli settlers in Sheikh Jarrah, video pubblicato da «The Guardian» l'8 giugno 2011; www.youtube.com/watch?v=ksnLom8OD9E&t=189s

آلون

Alleanza internazionale per la memoria dell'Olocausto, La definizione di antisemitismo dell'Alleanza internazionale per la memoria dell'Olocausto, 26 maggio 2016; holocaustremembrance.com/resources/la¬definizione¬di¬antisemitismo-dellalleanza¬internazionale¬per¬la¬memoria¬dellolocausto

Bartov O., Browning C.R., Caplan J., Dwork D., Feldman D. et al., An open letter on the misuse of Holocaust memory, «The New York Review», 20 novembre 2023; www.nybooks.com/online/202320/11//an¬open¬letter¬on¬the¬misuse¬ofholocaust¬memory

Blackhawk N., The Rediscovery of America. Native Peoples and the Unmaking of U.S. History, Yale University Press, Londra 2024.

«Combating glorification of Nazism, neo¬Nazism and other practices that contribute to fuelling contemporary forms of racism, racial discrimination, xenophobia and related intolerance», Rapporto della Relatrice speciale sulle forme contemporanee di razzismo, discriminazione razziale, xenofobiae intolleranza a esse correlate, E. Tendayi Achiume, UN Doc. A/777) 512/ ottobre 2022); docs.un.org/en/A/77512/ (in inglese).

Commissione europea, Definition of antisemitism; commission.europa.eu/strategy¬and¬policy/policies/justice-andfundamental¬rights/combatting¬discrimination/racismand¬xenophobia/combating¬antisemitism/definition-antisemitism_en

Diritti umani in Palestina. La presentazione in Italia del primo rapporto della Relatrice speciale delle Nazioni Unite, Francesca Albanese, «Altreconomia», gennaio 2023; altreconomia.it/prodotto/dossier¬palestinaJerusalem Declaration on Antisemitism; jerusalemdeclaration.org

OCHA, Data on casualties; www.ochaopt.org/data/casualties (ultimo aggiornamento aprile 2025).

ONU, Convenzione internazionale sull'eliminazione di ogni forma di discriminazione razziale (adottata il 21 dicembre 1965, entrata in vigore il 4 gennaio 1969), 660 UNTS 195; volume¬660¬I¬9464¬English.pdf (in inglese).

Rapporto della Relatrice speciale sulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/7721) 356/ settembre 2022); docs.un.org/en/A/77356/ (in inglese).
Sereni C., Il gioco dei regni, Giunti, Firenze 2022.
Shlaim A., In defence of Francesca Albanese, 17 dicembre 2022; static1. squarespace.com/static/57260f202eeb8180abc89d93/t/6514e875e5bca113a8a0ff6f/1695869046079/Avi+Shlaim+letter.pdf
Shlaim A., Oom¬Shmoom: Israel's battle against the United Nations, «Jadaliyya», 7 luglio 2023; www.jadaliyya.com/Details/45189/Oom¬Shmoom¬Israel%E2%80%99s¬Battle¬against¬the¬United¬Nations

انغريد

«Anatomy of a genocide», Rapporto della Relatrice speciale sulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/HRC/551°) 73/ luglio 2024); docs.un.org/en/A/HRC/55/73 (in inglese).
B'Tselem, A regime of Jewish supremacy from the Jordan River to the Mediterranean Sea: This is apartheid, 12 gennaio 2021; www.btselem.org/publications/fulltext/202101_this_is_apartheid
Corte internazionale di giustizia, Conseguenze giuridiche pergli Stati della permanenza del Sudafrica in Namibia (Africa del Sud¬Ovest) nonostante la risoluzione 276 (1970) del Consiglio di Sicurezza (parere consultivo), 1971; www.icjcij.org/case/53
Dhlamini B., How Irish Dunnes Stores workers who fought against South African apartheid inspire radical Palestine solidarity, «The New Arab», 28 luglio 2023; www.newarab.com/opinion/boycotts¬turn¬tides¬lessons¬irish¬anti¬apartheid «Genocide as colonial erasure», Rapporto della Relatrice specialesulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/791°) 384/ ottobre 2024); docs.un.org/en/A/79384/ (in inglese).
Human Rights Watch, A Threshold Crossed. Israeli Authorities and the Crimes of Apartheid and Persecution, 27 aprile 2021; www.hrw.org/report/202127/04//threshold¬crossed/israeli¬authorities¬and¬crimes¬apartheid¬and¬persecution ONU, Convenzione internazionale sull'eliminazione di ogni forma di discriminazione razziale (adottata il 21 dicembre 1965, entrata in vigore il 4 gennaio 1969), 660 UNTS 195; volume¬660¬I¬9464¬English.pdf (in inglese).
«Stop the ethnic cleansing»: Watch Oscar speech of Palestinian, Israeli directors of No Other Land, video pubblicato da Democracy Now! il 3 marzo 2025; www.youtube.com/watch?v=kSvdSkanmIs
Yeshi Din, The occupation of the West Bank and the crime of

Apartheid: Legal Opinion, 9 luglio 2020; www.yesh¬din.org/en/the¬occupation¬of¬the¬west¬bank¬and¬the¬crimeof¬apartheid¬legal¬opinion

للتعمّق في الموضوع:

BADIL (Resource Center for Palestinian Residency and Refugee Rights); badil.org
BDS (Boycott, Divestments, Sanctions); bdsmovement.net
Daniele L., Perugini N., Albanese F., Humanitarian Camouflage:
Israel Rewrites the Laws of War to Legitimize Geno cide in
Gaza, Institute for Palestine Studies, novembre 2024.
Loewenstein A., Laboratorio Palestina. Come Israele esporta la tecnologia dell'occupazione in tutto il mondo, Fazi Editore, Roma 2024.

غسّان

«A Genocidal Project»: Dr. Ghassan Abu¬Sittah on Israel's destruction of Gaza health system, video pubblicato da Democracy
Now! il 20 dicembre 2024; www.youtube.com/watch?v=NZoQP3kOj20
FIFDH 2025, Crossed voices: Francesca Albanese and Dr. Ghassan
Abu Sittah, video pubblicato da FIFDH Genève il 9 marzo 2025; www.youtube.com/watch?v=¬3tqyd¬N300
Gaza surgeon Ghassan Abu Sitta responds to Biden's remarks on Palestinian death toll, video pubblicato da Middle East
Eye il 28 ottobre 2023; www.youtube.com/watch?v=VyoOtFBIneI
Horton R., Offline. Israel¬Gaza: what comes next?, «The Lancet», novembre 2023; www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140¬6736(23)02398¬X/fulltext
ICJP, Dr Ghassan Abu Sittah vindicated as application by General
Medical Council to suspend him from practicing is rejected, 27 agosto 2024; www.icjpalestine.com/202427/08//dr¬ghassan¬abu¬sittah¬vindicated¬as¬applicationby¬general¬medical¬council¬to¬suspend¬him¬from¬practicing¬is¬rejected
Kelly A., Osman H., Jallad F., No rules': Gaza's doctors say they were tortured, beaten and humiliated in Israeli detention,
«The Guardian», 25 febbraio 2025; www.theguardian.com/global¬development/2025/feb/25/israel¬gazadoctors-surgeons¬healthcare¬detention¬international¬law Medici Senza Frontiere, Strikes, raids and incursions. Over a year of relentless attacks on healthcare in Palestine, 7 gennaio 2025; www.msf.org/strikes¬raids¬and¬incursions¬year¬relentless¬attacks¬healthcare¬palestine
Physicians for Human Rights, Unlawfully detained, tortured and starved: the plight of Gaza's medical workers in Israeli custody, febbraio 2025; www.phr.org.il/wp¬content/uploads/20256265/02/_DetentionReport_Eng.pdf

ايال

Albanese F., Germany tried to silence me, a UN official, for talking about Israel's Genocidal War in Gaza, «Zeteo», 19 marzo 2025; zeteo.com/p/germany¬tried¬to¬silence¬me¬a¬un Albanese F., Takkenberg L., Palestinian Refugees in International Law, Oxford University Press, Oxford 2020.
Erasing palestinian life in Gaza: Israel's genocide exposed.
Francesca Albanese & Eyal Weizman, video pubblicato da Palestine Deep Dive il 18 novembre 2024; www.youtube.com/watch?v=8Ouu_ABYJGo
Forensic Architecture, A cartography of genocide. Israel's conduct in Gaza since october 2023, 25 ottobre 2024; forensicarchitecture.org/investigation/a¬cartography¬of¬genocide Forensic Architecture, Genocide in the Ixil triangle, 1° febbraio 2014; forensic¬architecture.org/investigation/environmental¬violence¬and¬genocide¬in¬the¬ixil¬triangle
Forensic Architecture, Restituting evidence. Genocide and reparations in German colonial Namibia, 4 novembre 2022; forensic¬architecture.org/investigation/restituting¬evidence¬genocide¬and¬reparations¬in¬german¬colonial¬namibiaphase¬1 Francesca Albanese, Eyal Weizman & more expose western complicity on Gaza genocide, video pubblicato da DiEM25 il 21 febbraio 2025; www.youtube.com/watch?v=qwD890CleCk
Health Cluster¬Occupied Palestinian Territory, Unified health dashboard; app.powerbi.com/view?r=eyJrIjoiODAxNTYzM DYt M j Q3Y S 0 0 O T M z LT k x M WQ t O T U1 N WEwMzE5NTMwIiwidCI6ImY2MTBjMGI3LWJkMjQtNGIzOS04MTBiLTNkYzI4MGFmYjU5MCIsImMiOjh9 (ultimo aggiornamento 21 aprile 2025).
Holocaust Encyclopedia, How many people did the nazis murder?; encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/documenting¬numbers¬of¬victims¬of¬the¬holocaust¬and¬nazipersecution
ONU, Convenzione per la prevenzione e la repressione del delitto di genocidio (approvata con risoluzione dell'Assemblea generale ONU n. 260 A (III) del 9 dicembre 1948, entrata in vigore il 12 gennaio 1951); www.un.org/en/genocideprevention/documents/atrocity¬crimes/Doc.1_Convention%20on%20the%20Prevention%20and%20Punishment%20of%20the%20Crime%20of%20Genocide.pdf (in inglese).
Pappé I., La pulizia etnica della Palestina, Fazi Editore, Roma 2008.
Rapporto della Relatrice speciale sulla situazione dei diritti umani nel territorio palestinese occupato dal 1967, Francesca Albanese, UN Doc. A/7721) 356/ settembre 2022); docs.un.org/en/A/77356/ (in inglese).
Roy S., The Gaza Strip. The Political Economy of De¬development, Institute for Palestine Studies, Washington 2016.

Weizman E., Spaziocidio. Israele e l'architettura come strumento di controllo, Mondadori, Milano 2022.

للتعمّق في الموضوع:

Goldberg A., Yes, it is genocide, Medium, 18 aprile 2024; thepalestineproject.medium.com/yes¬it¬is¬genocide-634a07ea27d4 Rapaport N., Rickett O., Israeli historian produces vast database of war crimes in Gaza, Middle East Eye, 6 dicembre 2024; www.middleeasteye.net/news/israeli¬historian¬produces¬vast¬database¬war¬crimes¬gaza Segal R., A textbook case of genocide, «Jewish Currents», 13 ottobre 2023; jewishcurrents.org/a¬textbook¬case¬of¬genocide

مَلَك

Albanese F., Takkenberg L., Palestinian Refugees in International Law, Oxford University Press, Oxford 2020.
Pappé I., La pulizia etnica della Palestina, Fazi Editore, Roma 2008.
Per approfondire Abulhawa S., Ogni mattina a Jenin, Feltrinelli, Milano 2006.
Abu Sitta, S., La mappa del mio ritorno. Memoria palestinese, Edizioni Q, Roma 2020.
Khalidi R., Palestina. Cento anni di colonialismo, guerra e resistenza, Laterza, Roma¬Bari 2025.
Palestine Land Society; plands.org

غابور

Bashir B., Goldberg A. (a cura di), Olocausto e Nakba. Narrazionitra storia e trauma, Zikkaron, Bologna 2023.
Dr. Gabor Maté: 7 impacts of trauma, video pubblicato daWholehearted il 10 novembre 2022; www.youtube.com/watch?v=O5jmsJAClpw
Gabor Mate's life advice will leave you speechless, video pubblicato da Motivation Mentors l'8 gennaio 2025; www.youtube.com/watch?v=fYOvUOPyOcA
Maté G., Il mito della normalità. Trauma, malattia e guarigione
in una cultura tossica, Astrolabio, Roma 2023.
Maté G., The roots of healing, podcast pubblicato sulla piattaforma Sounds True il 21 marzo 2017; resources.soundstrue.com/podcast/gabor¬mate¬the¬roots¬of¬healing Ultimo video di Refaat Al¬Areer, condiviso su Instagram da Mosab Abutoha il 7 dicembre 2023; www.instagram.com/reel/C0kLXvxoerW Working with collective trauma: Gabor Maté & Thomas Hübl, video pubblicato da Science and Nonduality il 15 agosto2019; www.youtube.com/watch?v=FhlVIhjZj4k&t=476s

للتعمّق في الموضوع:

Alareer R., If I Must Die. Poetry and Prose, OR Books, New York 2024.

يا له من غرورٍ نبديه نحن الغربيّين تجاه ثقافات وكلمات لا نفهم معناها وجذورها وجوهرها. غرور منتشر في جميع الأوساط – من الصحافة إلى النخب الأكاديميّة، وعلى نحوٍ واضح في كثير من الدوائر السياسيّة – وقد أسهم في إخفاء إنسانيّة الفلسطينيّين، وهذا ما عقّد خلاصهم وجعله أمرًا شديد الصعوبة. لهذا السبب، يجب أن يتغيّر النقاش. يجب أن ننشر كلماتٍ تفيد بكسر الجهل ونشر المعرفة، وأن نواصل طرح الأسئلة الأهم: ما الذي يمكننا فعله لوقف كلّ هذا؟ إلى أيّ مدى سيصل كلّ هذا؟ فيما يبدو العالم غارقًا في سباتٍ عميق، عاجزًا عن رؤية جرح شعبٍ بأكمله. جرحٌ ينفلش. هذا الجرح الذي لا يبدو أنّ أحدًا يكترث لالتئامه أو شفائه...

فرانشِسكا ألبـــانيزي

المقرَّرة الخاصة للأمم المتحدة المعنيّة بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة. حقوقية، أستاذة جامعية، وباحثة. عمِلَت في مكتب المفوّض السامي لحقوق الإنسان، وفي وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. خلال عملِها في هذه المناصب، قدّمت المشورة للأمم المتحدة ولعددٍ من الحكومات، وللمجتمع المدني في غرب آسيا وشمال افريقيا؛ ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ. في 2020 صدر لها «اللاجئون الفلسطينيون في القانون الدولي»، وفي 2023 صدر كتاب آخر حمل عنوان «إنّي أتّهم».

دار هاشم للكتب والنشر
Hashem publishing house